

جان پول سارتر

الجدار

ترجمة
هاشم الحسّيني



منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

جان بول سارتر

الجزء الثاني

ترجمة
هاشم الحسيني

١٩٦٣

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

الى اولنا كوزا كيفش

تعريف

عودنا سارتر في أبحاثه ورواياته ومسرحياته وصف الحالات النفسية في أوج توترها . لذا نراه يخلق « مواقف » الأحرار والقلق ليُعبر بها عن « العواطف الحادة التي تعصف بذات الإنسان . فهو كما سُمِّاه أندريه مورو « خبير المشاعر الإنسانية الصاخبة » .

و« الجدار » عنوان كتابنا هذا يتضمن خمس أقصوصات ، أولها الجدار ، وهي قصة ثلاثة أشخاص ينتظرون ساعة إعدامهم رمياً بالرصاص . صبيحة الغد ، يحل فيها سارتر مشاعر كل منهم ، ومظاهر تلك المشاعر كما تتمثل في أنواع سلوكهم .

غير أن المواقف المتشابهة التي يعيشها أبطال القصة في مجابهتهم خطر الموت ، لا يعني أن كلا منهم قد فقد ذاتيته . فإذا ما كانوا جميعاً حيال خطر واحد يحيط بهم ، فإن لكل منهم « موقفه » الخاص ، يواجهه من زاوية بيئته وثقافته ونوعية تفكيره ، فضلاً عن عمره ومدى تجاربه .

ولا شك أن موضوع الجدار ، يحتاج لمقدرة فنية في التحليل الدقيق

والوصف الحي . فهو يبرز ذلك الجوَّ الرهيب الذي يعيشه الانسان في أقصى ساعات الحرج .

وتعدُّ قصة « الجدار » من أرقى الاعمال الفنية التي تمثل التفكير السارقي ، فهي تظهر مدى العمق الذي بلغه الكاتب الفرنسي في سبره أعماق المشاعر الانسانية .

المترجم

دفعونا الى داخل قاعة كبيرة بيضاء ، فتراقصت عيناى لأن النور كان يؤذيها . رأيت ، من ثم ، طاولة ورامها أربعة أشخاص من المدنيين ، كانوا يتصفحون الأوراق . وحشدوا السجناء الاخرى في القعر وكان علينا أن نعبّر الحجرة حتى آخرها للتحقق بهم . كنت أعرف العديدين منهم . أما الآخرون فغرباء . والاثنان اللذان يواجهاني كانا أشقري اللون على جمجتين مستديرتين . إنها يتشابهان : فهما فرنسيان على ما اقصور . كان أصغرهما ينهض سرواله طيلة الوقت . كما كان عصبي المزاج .

استمر هذا الحال ثلاث ساعات ؛ كنت غبولا وكان رأسي فارغا لكن . الغرفة مدفأة وكنت أجد هذا شيقا ؛ منذ ثمان وأربعين ساعة لا زلنا نرتجف . كان الحراس يقتادون السجناء الواحد تلو الآخر أمام الطاولة . وعندها يسألهم الأشخاص الأربعة عن اسمهم ومهنتهم . ولم يذهبوا أكثر من ذلك . معظم الوقت — أو انهم كانوا يطرحون سؤالاً من هنا وهناك : « هل اشتركت في تدمير النخيرة ؟ » أو بالأحرى « أين كنت صبيحة يوم ٩ وما كنت تفعله ؟ » لم يكونوا ليصفوا للأجوبة أو أن ذلك لم يبد عليهم على الأقل : كانوا يسكتون برهة ويتطلعون أمامهم ثم يأخذون بالكتابة . سألوهم إذا كانت قد خدمت حقاً في الفرقة الدولية : لم يكن لهم الجواب العكس بسبب الأوراق التي وجدت في سترته . ولم يسألوا جوان شيئاً ، فبعد أن ذكر اسمه ، استمروا بالكتابة طويلاً .

قال جوان : « إن أخي جوزي هو الفوضوي . وانتم تعرفون جيداً

« أنه ليس هنا . أنا لا انتمي لأي حزب ، ولم اعمل بالسياسة أبداً » .

لم يحيوا . فأضاف جوان :

« أنا لم اعمل شيئاً . لا أريد أن ادفع الثمن عن الآخرين » .

كانت شفتاه ترتجفان . أسكتته أحد الحراس واقناده . وجاء دوري .

— املك يا بلو إنيانا ؟

فقلت : نعم .

نظر الشخص الى أوراقه وقال لي :

— أين رامون غري ؟

— لا أعرف .

— خبأته في بيتك من يوم ١٦ الى ١٩ .

اخرجني الحراس . في الممر كانت توم وجوان ينتظران

— اس . بدأنا بالسير . سألت توم أحد الحارسين :

— ويده ؟

فقال الحارس : ماذا ؟

— هذا استجواب أم حكم ؟

فقال الحارس :

— كان الحكم .

— حسناً ، ما سيفعلون بنا ؟

أجاب الحارس يحفاف :

— ستبلغون الحكم في زناياتكم .

وفي الواقع ، أن ما كان بمثابة زناينة لنا هي أقيبة المستشفى . كان فيها

البرد شديداً بسبب مجاري الهواء . ظللنا نرتجف طيلة الليل ولم تتحسن الحال طيلة النهار . الأيام الخمسة الماضية أمضيتها في سجن الابرشية المظلم ، وهو نوع من زنايات العصر الوسيط ؛ وبما ان السجناء كثيرون والمكان ضيق ، فقد رصفوهم اينما كان . لم أكن أسف على سجنى المظلم : لم أعان فيه من البرد غير اني كنت وحيداً فيه ؛ وهذا مزعج اذا استمر . وفي القبو كنت لي صعبة . جوان لم يكن ليتكلم أبداً : كان خائفاً ثم انه كان أصغر من أن يتكلم . لكن توم كان محدثاً لبقاً يتقن الاسبانية تمام الاتفاقان .

في القبو كان هناك مقعد وأربعة فرش محشوة بالقش . وعندما عادوا بنا ، جلسنا ننتظر بصمت وقال توم بعد برهة :

— انتهى أمرنا .

فقلت : اعتقد ذلك أيضاً ، لكنني اظن أنهم لن يفعلوا شيئاً بالنسبة للصغير .

فقال توم : لا يستطيعون اتهامه بشيء ، انه شقيق لثائر ، هذا كل شيء .

نظرت الى جوان : لم يكن يبدو عليه أنه يلتبه .

وتابع توم :

— هل تدري ما يفعلونه في سراغوسه ؟ يطرحون الاشخاص على الطريق ويمرّون فوقهم بالشاحنات . اخبرنا بذلك أحد المغاربة الفارين . يقولون إن ذلك لتوفير الذخيرة . فقلت :

— هذا لا يوفر المحروقات .

كنت غاضباً من توم : ما كان عليه أن يقول ذلك . وأضاف : هناك ضباط يتنقلون على الطريق ، يشرفون على العملية ، أيديهم في جيوبهم والسيكار

في فهم . أتظن أنهم يجهزون على الاشخاص ؟ يدعوهم بتصايحون عدّة مرّات في الساعة . كان المغربي يقول انه لم يصرخ في المرة الأولى . فقلت :
- لا أظن انهم سيفعلون هذا هنا . إلا إذا كان ثمة نقص في الذخيرة .

كان النهار يدخل من خلال الفجوات الأربع والثغرة المستديرة التي أحدثت في السقف ، الى جهة اليسار ، وكانت مشرقة على السماء . فمن خلال هذا الثقب المستدير المسدود عادة بحاجز صغير ، كانوا يرمون بالفحم الى القبو . تحت الثقب تماماً كانت توجد كومة كبيرة من الفحم المسحوق . وكان مخصصاً لتدفئة المستشفى ، ولكن منذ بداية الحرب تم إجلء المرضى وظل الفحم هناك يغير استعمال . وكان المطر يتساقط بالمناسبة ، إذا اغفلوا إغلاق الحاجز الصغير .

بدأ توم يرتجف وقال :

« يا اسم الله المقدس ، اني ارتجف ، ها أن كل شيء يعاودني » .

ونفض وبدأ يقوم ببعض الحركات الرياضية . وفي كل حركة كان قميصه ينفتح على صدره الأبيض المكسو بالشعر . تمدد على ظهره ورفع رجليه في الهواء على شكل مقصّ : كنت أرى مؤخرته السمينة ترتجف . كان توم قوي البنية لكنه كان كثير الشحم . كنت أفكر بأن رصاصات البندقية أو رؤوس الحرايب لا بدّ وأن تدخل في تلك الكتلة من اللحم الطريء كما تدخل في قطعة من الزبدة . لم يكن يحدث لي نفس الاثر لو كان ضعيفاً .

لم أكن اشعر بالبرد تماماً ، بل كنت لا أحس كتنفي ولا ذراعي . كان يتهاى لي من وقت لآخر أن شيئاً ما ينقصني فأبحث عن سترتي حولي . ثم أتذكر بغتة انهم لم يعطوني السترة . كان الأمر عسيراً . أخذوا ثيابنا ليعطوها جنودهم ولم يتركوا لنا سوى قمصاننا ، وتلك السراويل التي

يرتديها مرضى المستشفيات في الصيف . بعد برهة نهض توم وجلس قربي وهو ينفخ .

— هل تدفأت ؟

— يا اسم الله المقدس ، لا . ولكنني على آخر نفس .

نحو الساعة الثامنة دخل أحد القواد مع اثنين من الكتائب . كانت بيده ورقة . فسأل الحارس :

— ما اسم هؤلاء الثلاثة ؟ فقال الحارس :

— ستينبوك ، إبياتا وميربال .

ووضع القائد نظارته القديمة ونظر الى اللائحة :

— ستينبوك ... ستينبوك ... انظر . انت محكوم بالإعدام . ستعبد رمياً بالرصاص صباح غد .

وتطلع أيضاً ثم قال :

— والآخران أيضاً ، فقال جوان :

— غير معقول . ليس أنا . فنظر اليه القائد بدهشة :

— ما اسمك ؟ فقال : جوان ميربال .

فقال القائد :

— اسمك هنا ، انت محكوم .

فقال جوان : لم أفعل شيئاً .

فهز القائد كتفيه واتجه نحو توم ونحوي .

— انما من الباسك ؟

— لا أحد من الباسك .

بدا أنه منزعج .

٣٠ قيل لي ان هناك ثلاثة من الباسك . ولن أضيع الوقت بالركض وراءهم -
إذا بالطيسم لا تريدون كهنة !

فلم نكلف نفسنا الإجابة . فقال :

- سيأتي طبيب بلجيسي في الحال . سمح له بقضاء الليلة معكم .
وقدم التحية العسكرية وأنصرف .

فقال توم : أما كنت أقول لك . نحن بأحسن حال .

فقلت : نعم ، لكنه عمل وحشي بالنسبة للصغير .

... .. من أحب الصغير . كان وجهه

جميع ملاحه . قبل ثلاثة أيام كان

، يروق للعين ؛ ولكن له الآن هيئة خشبية مسطحة ،

لن يعود الى شبابه أبداً ، حتى ولو اطلق سراحه .

لم يكن أمر الشفقة عليه شيئاً ، ولكن الشفقة تثير اشمئزازي ، اذا انه كان يحتملني .

لم يصف شيئاً بعد ذلك لكنه أصبح داكن اللون : كما أصبح وجهه ويناء داكنة أيضاً . عاد الى الجلوس ونظر الى الأرض بعينين مستديرتين . كان قوم طيب النفس ، فأراد أن يسلك بيده ، لكن الصغير تخلص منه بنصف مبدى امتعاضه . فقلت بصوت منخفض : « دعه » ، فأنت ترى أنه سيبدأ بالمساء . »

ورضح قوم مكتئباً ، إذ كان يؤثر تعزية الصغير ، فهذا كان يشغله عن التفكير بنفسه مرة أخرى . لكن هذا يزعجني : لم أكن قط قد فكرت بالموت لأن فرصة الموت لم تسح ، ولكن الفرصة موجودة الآن ولم يعد من شيء آخر يحذر أن تفكر به .

بدأ قوم بالكلام وسألني :

« هل قتلنا أشخاصاً ، انت ؟ » لم أجب . فأخذ يشرح لي كيف انه قتل ستة أشخاص منذ بداية شهر آب ، لم يكن يعني الموقف ، ورأيت أنه لم يرغب بأن يشعر بذلك . أما أنا فلم أكن أفقه شيئاً كما يجب ، كنت اتساءل إذا كانوا يتألمون كثيراً ، وأفكر بالرصاصات ، وأتصور أجسامها المحرقة عبر جسدي . كل هذا كان على هامش القضية الحقيقية ، لكنني حافظت على هدوئي : فلدينا الليل كله لنفهم . وبعد لحظة انسك توم عن الحديث فنظرت إليه بطرف عيني . رأيت أنه بات داكن اللون ، هو أيضاً ، وأن ملامحه تدل على البؤس ، وقلت في نفسي : « ها هي البوادر » كان الوقت ليلاً الى حد ما ، والضوء الباهت يدخل من خلال الثغرات وكومة الفحم ، محدثاً لطخة كبيرة تحت السماء . من ثقب السقف بتـ أرى لإحدى النجوم : سيكون الليل ضافياً بارداً .

وفتح الباب ليدخل حارسان . كان يتبعها رجل أشقر يرتدي بزة رسمية بلجيكية . حيّانا ثم قال : « أنا طبيب . ولدي الأذن بمؤازرتكم في هذه الظروف العصيبة » .

كان صوته مميزاً يروق للسامع . وقلت له : « ما جئت تفعله هنا ؟ »

— أضع نفسي تحت تصرفكم . سأبذل قصارى جهدي حتى لا تكون هذه الساعات القليلة شديدة الثقل .

— لماذا أتيت إلينا ؟ فهناك أشخاص آخرون ، يضيق بهم المستشفى - فأجاب بهيئة مبهمة :

— لقد أرسلوني الى هنا . وأضاف : « آه ! كان يودكم أن تدخنوا أليس كذلك . لدي سجائر وسيكار أيضاً » .

قدم لنا سجائر انكليزية لكننا رفضنا . نظرت في عينيهِ فبدا منزعجاً .

وقلت له :

« انت لا تأتي الى هنا للمسيرة . فأنا أعرفك . لقد شاهدتك مع الفاشيين بقي باحة الشكنة ، في اليوم الذي أوقفت فيه » .

كنت أهم بالمثابة ، ولكن شيئاً ما أثني فجأة فباغتني : إن وجود هذا الطبيب لم يعد يمني . عادة ، عندما أكون تجاه رجل لا أتركه ابداً . ومع ذلك فإن الرغبة في الكلام ذهبت مني . فهزرت كنتفي وحوّلت عيني . بعد ذلك يقليل ، نهضت رأسي : كان يراقبني مراقبة الفضولي . كان الحراس قد جلسوا فوق أحد فرش القش . بادرو الطويل الناحل كان يدير ابهاميه ، والاخر يهز رأسه من وقت لآخر حتى لا ينام .

قال بادرو فجأة للطبيب : « هل تريد ضوءاً » . فأوماً الآخر برأسه أن « نعم » : أظن انه لم يكن أذكى من قطعة الحطب ، لكنه لم يكن خبيثاً جلا ريب . والناظر إلى عينيه الزرقاوين الباردتين يرى أنه كان يخطيء لضعف خياله . وخرج بادرو وعاد حاملاً سراجاً على النفط وضعه على طرف المقعد . كان السراج لا يضيء كثيراً ، ولكنه أفضل من لا شيء : فقد تركونا البارحة في الظلام . نظرت لبرهة غير قصيرة الى دائرة النور التي رسمها السراج في السقف . كنت مشدوهاً . ومن ثم ، استيقظت بفتة ، فامحت دائرة النور وأحسست بأني منسحق تحت عبء ثقيل . لم تكن تلك فكرة الموت أو الخوف : بل كان ذلك مبهماً . كان خدائي يحرقانني كما كنت أشعر بالأم في ججمتي .

نبتت نفسي وتطلعت الى صاحبي . كان توم قد أغرق رأسه بين يديه ، فلم أكن أرى سوى رقبته السمينة البيضاء . والصغير جوان كان أكثرنا بعداً عن طوره ، كان فمه مفتوحاً ومنخراره يرتجفان . أقترب الطبيب منه ووضع يده فوق كفه وكأنه يريد أن يواسيه . لكن عينيه ظللتا مثلجتين . ثم شاهدت يد البلجيكي تنزل على طول ذراع جوان حتى القبضة . وجوان يسمح له

بذلك غير آبه . وأخذ البلجيكي يده بين أصابعه الثلاث ، بأسارير منبسطة ، وفي نفس الوقت تراجع قليلاً الى الوراء لكي يدير لي ظهره . غير اني انخيت نحو الوراء فشاهدته يخرج ساعته وينظر إليها لحظة بدون أن يترك يد الصغير . وما هي إلا هنيهة حتى ترك اليد الجامدة وذهب الى الجدار يستند إليه ، ثم أخذ دفترًا صغيراً من جيبه ، وكأنه تذكر فجأة بأن عليه أن يراقب ، وكتب عليه عدة أسطر . وقلت في نفسي : « لن يأتي هذا القدر ليحس نبضي ، فسأضربه بقبضة يدي على أم وجهه » .

ولم يأت ، ولكنني كنت أحسّ بأنه ينظر إليّ . فرفعت رأسي ونظرت اليه بالمقابل . فقال لي بصوت كأنه ليس صادراً عنه : « ألا تجد أننا نرتجف هنا ؟ »

كان يبدو عليه أنه بارد الجسم ، فقد كان بنفسجي اللون .
فأجبت :
« أنا لا أشعر بالبرد »

ولم ينفك عن النظر الي ، بعين قاسية . فجأة فهمت ورفعت يدي الى وجهي : كنت مبتلاً بالعرق . في ذلك القبو ، وفي خضم الشتاء ، وفي مجاري الهواء ، كان العرق يتصبب مني . ومررت بأصابعي على شعري الذي يمس من العرق . ورأيت في نفس الوقت أن قميصي مبلل لاصقة يحسني : كان العرق يتصبب مني منذ ساعة على الأقل ولم أحس بشيء . ولكن هذا البلجيكي لم يتغافل عن هذا : فقد رأى القطرات تتدحرج على خدي وفكر : انها عوارض شبه مرضية للخوف . كان يحسّ أنه طبيعي وبكل فخر لأنه كان يشعر بالبرد . أردت أن أقوم بحركة بسيطة حتى اتحمى شجلي وغضبي . وسقطت على المقعد غير آبه .

اكتفيت بفرك عنقي بمنديلي ، لاني الآن بت أشعر بالعرق المتصبب من

شعري على رقبتى وكان كريهاً وفجأة عدلت عن فرك رقبتى ، كانت ذلك
بغير جدوى : وكان منديلي قد أصبح يرسم التمزيق ، والعرق لا يزال
يتصبب . كنت أعرق في مؤخرتي أيضاً كما كانت سروالي المبلل لاصقة
بالمقعد .

وتكلم جوان الصغير فجأة :

— هل انت طبيب ؟ فقال البلجيكي : نعم .

— هل نتألم ... لوقت طويل ؟

فقال البلجيكي بصوت أبوي :

— أوه ! متى ... ؟ كلا بل إن الأمر ينتهي بسرعة .

كان يبدو عليه أنه يشدد من عزيمة مريض يدفع الثمن .

— ولكن أنا ... قيل لي ... أنهم يعتمدون في أكثر الاحيان الى
رشقتين .

فقال البلجيكي وهو يحرك رأسه : في بعض الأحيان قد لا تصيب الرشقة
الاولى أياً من الاعضاء الحيوية .

— عندها من الواجب إعادة تعبئة البنادق والتصويب من جديد !

— هذا يستمر وقتاً طويلاً !

كان يخاف أن يتألم خوفاً هائلاً ، ولم يكن يفكر إلا بهذا : وهذا بنسبة
عمره على كل حال . أما أنا فلم أعد أفكر بذلك كثيراً ولم يكن الخوف من
العذاب ما كان يجعل العرق يتصبب مني .

نهضت ومشيت الى كومة الفحم المسحوق . فارتجفت نوم ورماني بنظرة
بغيفية : كنت أزعجه لأن حذائي يقرقع . وتساءلت في نفسي إذا كانت
وجهي خفيفاً قدر وجهه : رأيت أن العرق يتصبب منه هو الآخر . كانت

السماء رائحة ، لم يكن أي ضوء يتسرب الى هذه الزاوية المعتمة ، وليس عليّ إلا أن أرفع رأسي حتى أشاهد الدب الاكبر. ولكنه ليس كما في السابق: ليلة أول أمس ، في سجن الأبرشية ، كان بإمكانني أن أشاهد قطعة من السماء كبيرة ، وكل ساعة من النهار كانت تبعث في نفسي ذكرى مختلفة . وفي الصباح حين كانت السماء زرقاء حادة وخفيفة ، كنت أفكر بالمسابيح على ضفاف الاطلسي . في الظهر أرى الشمس وأتذكر ذلك البار في سفيل، حيث كنت أشرب التبنيذ الاسباني وأنا أكل السمك والزيتون . وبعد الظهر أصبح في الظل، أفكر بذلك الظل العميق الذي يمتد على نصف مساحة الحلبات بينما كان نصفها الثاني يسطع تحت الشمس : كان عسبراً حقاً أن نبصر الارض هكذا تنعكس في السماء . لكنه أصبح بإمكانني الآن أن اطلع في الهواء ما شئت ، فلم تعد السماء توحى لي بشيء. كنت أفضل هذا . وعدت لأجلس بجوار قوم . ومرّت فترة طويلة .

بدأ نوم حديثه بصوت خافت . كان عليه دائماً أن يتكلم ، فبدون هذا لم يكن يستطيع أن يعرف نفسه من خلال أفكاره . أظن انه كان يوجه كلامه الي ولكنه لم يكن يتطلع نحوي . فقد كان يخشى بلا ريب أن يراني كما كنت ، داكن اللون يتصبّب مني العرق : كنا أشبه بالمرايا أو أسوأ ، بالنسبة لبعضنا البعض . كان يتطلع الى البلجيكي ، الحي . وكان يقول له :

« هل تفهم ، انت ؟ أنا لا أفهم » .

بدأت أنا ايضاً بالحديث بصوت خافت . كنت أطلع الى البلجيكي .

« ماذا ، ما هنالك ؟ »

— سيحصل لنا شيء لا أستطيع أن أفهمه » .

كانت هناك رائحة غريبة حول قوم . فقد بدا لي اني أكثر احساساً للرائحة من ذي قبل .

وهميت متضاحكا :

« ستفهم في الحال . فقال بوجه عنيد : ليس الأمر واضحاً ، أودّ أن تكون لي الشجاعة ، ولكن علي أن أفهم على الأقل ... لصنع ، سيقنادونسا الى الباحة . وسيصطف الأشخاص بمواجهتنا . كم سيكون عددهم ؟
- لا أعرف . خمسة أو ثمانية . ليس أكثر .

- حسناً . سيكونون ثمانية . سنصبح فيهم : « صوبوا على الهدف » . وسأرى البنادق الثماني مصوبة الي . أفكر بأني سأدخل في الجدار ، سأدفع الجدار بكل قواي ، والجدار يقاوم ، كما هي الحال في الكابوس . كل هذا بإمكانني أن أتصوره . آه ! لو تدري كم بإمكانني أن أتصوره . فقلت له :

- حسناً ! فأنا أتصوره أيضاً . فأضاف بخبث :

- سيؤدي الى عذاب الكلاب هل تدري انهم يصوبون على العينين والفم لكي يشوهوا الصورة . اني اشعر بالجراح منذ الآن ؛ فنفذ ساعة بدأت أشعر بالآلام في الرأس والعنق . ليست آلاماً حقيقية ؛ بل أسوأ هي الآلام التي سأحسها غداً صباحاً . ولكن ماذا بعدها ؟ »

كنت افهم تماماً ما يعنيه ، ولكنني لم أرغب في أن افصح عن ذلك . أما الآلام ، فأنا أيضاً كنت احملها في جسدي ، كمجموعة من ندوب الجراح . لم أشأ أن انشي فكنت مثله ، لا اعير ذلك أهمية . وقلت بقساوة . « بعدها ، ستأكل السلطة » . بدأ يتحدث الى نفسه : بدون أن يترك البلجيكي بعينه .

ولم يبد على هذا الأخير أنه كان يصغي . كنت أعرف السبب الذي جاء من أجله . وما كنا نفكر به لم يكن مهم . لقد أتى لبشاهد أجسامنا ، تلك الأجسام التي تنازع وهي حية . قال توم . كما لو في الكابوس نود أن نفكر بشيء ، فنعتقد طيلة الوقت أننا فيه ، وبأننا منغمه ومن ثم نراه ينزلق ، ويفتر ويسقط من جديد . قلت في نفسي : وبعدئذ ، لا يبقى شيء . ولكنني

لا أفهم ما يعني ذلك . هناك فترات أتوصل فيها لذلك تقريباً ... ثم يسقط من جديد ، وأعود لأفكر بالآلام والرصاص والمفرقات . أنا مادي ، أقسم لك بذلك . فلن أصبح مجنوناً . لكن أمراً ما ليس على ما يرام . اني أرى جثتي : ليس هذا شاقاً ولكني أنا الذي أراها ، بأمّ عيني . عليّ أن أتوصل لأفكر .. لأفكر بأني لن أرى شيئاً ، ولن اسمع شيئاً وان العالم سيستمر بالنسبة للآخرين . نحن لم نوجد لنفكر هكذا يا بابلو . بإمكانك ان تصدقني : فقد حصل لي أن سهرت الليل بطوله وأنا انتظر شيئاً . ولكن هذا الشيء ، ليس شيئاً لذلك : إنه يباغتنا ، يا بابلو ، ولن نكون قد أقمنا الاستعداد لمواجهة . وقلت له : هل تريد أن أستدعي لك معرفاً ؟

لم يحب بشيء . كنت قد لاحظت انه كان يتوق الى النبوة وان يناديني بابلو متكلماً بصوت نقي . لم أكن أحب هذا كثيراً . ولكن يبدو ان جميع الارلنديين على هذه الحال . كان يتنبأ لي أن رائحة البول تتصاعد منه . في الواقع لم أكن أحب قوم كثيراً ولم أكن أدري لماذا . وبجحة أننا سنموت معاً كان عليّ أن أزيد تلك المحبة . هناك أشخاص تختلف معهم الحال . مع رامون غري مثلاً . ولكنني كنت أجد نفسي وحيداً بين قوم وجوان . غير اني كنت افضل ذلك : لعلني كنت ازداد عاطفة لو كان الأمر مع رامون .

لكنني كنت قاسياً بصورة رهيبة في تلك الفترة ، كما كنت أرغب بالبقاء كذلك .

وتابع مضغ كلماته ، بنوع من الارتياح . أكيد انه كان يتحدث لمنع نفسه عن التفكير . كانت رائحة البول تقفح منه بشدة كالعجزة المرضى بالبروستات . وكنت من رأيه بالطبع ، فكل ما قاله كان بإمكانني ان أقوله : فليس طبعياً ان يموت الانسان . ومذ بدأت استعد للوثة ، لم يعد أي شيء يبدو لي طبيعياً ، لا هذه الكومة من الفحم المسحوق ، ولا المقعد ، ولا قم بادرو القذر . غير انه لم يكن يعجبني ان أفكر بما يفكر به قوم . وكنت

أعلم حق العلم اننا ، طيلة الليل وبفارق دقائق خمس فقط ، كنا نتابع التفكير بالأشياء ذاتها ، وفي نفس الوقت أيضاً كان العرق يتصبب منا معاً أو أننا نرتجف معاً . نظرت اليه جانبياً ولأول مرة بدا لي غريباً : كان يحمل موته في وجهه . لقد طعنت بكبريائي : أربع وعشرون ساعة عشتها بجوار قوم ، كنت أصغي اليه ، أحدثه ، وأعرف أن ما من شيء مشترك فيما بيننا . أما الآن فنتشابه كالأخوين التوأمين ، لمجرد أننا سنلاقي حتفنا معاً . أمسكني قوم بيدي دون أن ينظر الي :

« بابو ، اني اتساءل ... أتساءل اذا كنا ننعدم حقاً » .

أفلت يدي وقلت له :

« انظر بين رجليك أيها القدر » .

كانت تحت رجله بركة ، ونقاط تتساقط من سرواله . فقال مرتاعساً :

« ما هذا ؟ فقلت له :

— انت تبول في سروالك . فقال غاضباً :

— ليس هذا صحيحاً ، أنا لا أبول ولا أشم شيئاً

كان البلجيكي قد اقترب . وسأل برجاء مصطنع :

« هل تشعر بالألم ؟ »

لم يجبه قوم . ونظر البلجيكي الى البركة بدون أن يقول شيئاً . وقال قوم بلهجة جسورة : « لا أعرف ما هذا ، لكنني لست خائفاً . أقسم لك بأنني لست خائفاً » .

لم يقل البلجيكي شيئاً . فنمض قوم وذهب ليبول في الزاوية . وعاد وهو يزرر فتحة سرواله ، وجلس بدون أن ينبس بكلمة . كان البلجيكي يسجل ملاحظاته .

كنا ننظر اليه نحن الثلاثة لأنه حيّ . كانت له حركات كحركات الحيّ ، وهووم الحيّ . كان يرتجف في ذلك القبر ، كما يرتجف الحيّ . كان جسمه طيعاً حسن التغذية . أما نحن فلم نعد نحس أجسامنا - وليس كما يحس هو على كل حال . كنت أرغب في أن أتحمس سروالي بين فخذي ، ولكنني لم أتجرأ . فانظر الى البلجيكي الواقف على رجله بشكل قوس ، وهو يسيطر على عضلاته - كما أن بإمكانه التفكير بغده . كنا هناك ، ثلاثة ظلال بغير دم ، ننظر اليه فنمتص حياته كالأفاعي .

وأخيراً اقترب من جوان الصغير . هل أراد أن يتحسس رقبتة لسبب يتعلق بمهنته أو أن ذلك كان بدافع الاحسان ؟ فإذا فعل هذا بدافع الاحسان فقد كانت المرة الوحيدة التي قدم فيها إحساناً طيلة تلك الليلة . لقد دغدغ ججمة جوان الصغير وعنقه . وتركه الصغير يفعل ذلك ، بدون ان يتركه بناظريه ، وفجأة أمسكه بيده ونظر اليه بوجه مضحك . كانت يأخذ يد البلجيكي بكلتا يديه ، ولم يكن في ذينك الملقطين الداكني اللون أي شيء طريف وهما يسكان تلك اليد السمينة الموردة ، كنت اشك كثيراً بما سيحصل وكذلك كان توم : لكن البلجيكي لم يكن يرى سوى النار ، وكان يتسم ابتسامة أبلوية . وما هي اللحظة حتى رفع الصغير تلك الراحة الضخمة الحمراء الى فمه وأراد ان يعضها . فأقلت البلجيكي يده وتراجع حتى الجدار وهو يهتز يمنة ويسرة . ونظر الينا للحظة بهلع شديد ، كان عليه ان يفهم فجأة بأننا لسنا رجالاً مثله . أخذت بالضحك ، وارتعد أحد الحراس . والآخر الذي نام بدا جاحظ العينين لا يظهر منها سوى البياض .

كنت أحسني منهكاً ومتوتر الأعصاب معاً . لم أكن أود ان افكر بما سيحصل عند الفجر ، أي بالموت . إذ لم أفقه شيئاً من ذلك ، ولم أكن اصادف سوى كلمات أو فراغ . ولكن ما ان أحاول التفكير بشيء آخر حتى كنت أرى فوهات البنادق مصوبة اليّ . لقد عشت لحظة إعدامي نحو عشرين مرة

متتالية : اضطررت أن أنام دقيقة . كانوا يحرونني نحو الحائط ، فأتخبط ..
واطلب اليهم المغفرة . واستيقظت مذعوراً ونظرت الى البلجيكي : خشيت ان
أكون قد صرخت في نومي . لكنه كان يمسح شاربيه ؛ فلم يلاحظ شيئاً .
لو شئت ، أظن انه كان بإمكانني أن انام برهة : كنت مستيقظاً منذ ثمان
وأربعين ساعة ، وقد تملكني الاعياء . لكنه لم يكن يودي ان افقد ساعتين
من ساعات الحياة : سيأتون لايقاظي عند الفجر ، وسأبعمم مخبواً من النعاس
فأموت بدون ان أطلق زفرة ؛ لم اكن أرغب في ذلك ، لا أريد ان أموت
كحيوان ، أريد ان افهم .

ثم اني كنت أخشى أن أرى الكوايس . نهضت ، وتشتيت طولاً وعرضاً
وحقاً أبدل افكاري بدأت افكر بحياتي السابقة . وعاددتني زحمة من
الذكريات ، من هنا وهناك ، منها الجميلة ومنها الرديئة - أو انني كنت
اسمها هكذا على الأقل . كانت هناك وجوه وقصص . رأيت وجه مصارع
صغير قتل على قرني الثور في فالنسيا إبان المهرجان ، وكذلك وجه أحد
أعمامي ، وجه رامون غري . وتذكرت قصصاً عديدة : كيف أني بقيت
عاطلاً عن العمل ثلاثة اشهر سنة ١٩٢٦ ، وكيف كدت أن أموت من الجوع .
وتذكرت ليلة أمضيتها فوق مقعد في غرناطة : ولم أكن قد تناولت الطعام
منذ ثلاثة أيام ، كنت مسعوراً ، ولم أرغب في الموت . أضحكني ذلك .
قبأية همة كنت أركض وراء السعادة ، وراء النساء ، وراء الحرية . ولماذا؟
أردت أن احرر اسبانيا ، كنت معجباً بـ بي مارغال ، فالتحقت بالحركة
الفوضوية ، وتسلكت في الاجتماعات العامة : كنت آخذ كل شيء على محمل
الجد ، وكأنني كنت خالداً .

في تلك اللحظة خلت أن مجمل حياتي أمام عيني وفكرت :
« إنها كذبة مقدسة » . ولم تكن بذات قيمة لأنها انتهت . تساءلت
كيف كنت استطيع أن ائنزه وأن أهذر مع النساء : لو كنت أعلم اني

سأموت هكذا لما حركت اصفر اصابعي اطلاقاً . كانت حياتي أمامي ، مغلفة ، مطبقة ، كالخبيبة ، ومع ذلك فان كل ما في داخلها لم يكن منتهياً . و حاولت ، للحظة ، أن أعطي فيها حكماً . وددت أن أقول لنفسي : انها حياة جميلة . ولكنه ليس بالامكان اعطاء حكم عليها ، فقد كانت رسماً . كما امضيت وقتي باستخلاص المراحل في سبيل الأبدية ، ولم أفهم شيئاً . ولم أكن آسف على شيء : كانت هناك عدة أشياء يمكن أن آسف عليها ، كقطع التينيد الاسباني او الحمامات التي كنت اخذها في الصيف على خليج صندرب قرب قادس . ولكن الموت أفسد كل شيء . وفجأة ، اتت البلجيكي فكرة رائعة فقال لنا :

« أيها الأصدقاء ، بإمكانني أن اتكلف - إذا وافقت الادارة العسكرية - بأن احمل منكم كلمة ، أو ذكرى الى من يحبونكم ... »

فهمهم قوم :

« ليس لدي اي انسان » .

ولم اجب بشيء . وانتظر قوم لحظة ، ثم تطلع الي بفضل : أكن توصي شيئاً لكونشا ؟

- كلا .

كنت أمقت هذه اللياقة الرقيقة ؛ لكنهما غلطتي ، فقد تحدثت عن كونشا في الليلة السابقة ، وكان علي ان اضبط نفسي . كنت معها منذ سنة . وفي العشية ايضاً ، وددت قطع ذراعي بالفأس حتى أراها خمس دقائق . لهذا تكلمت عنها ، كان ذلك رغماً عني . واليوم لم أعد أرغب برؤيتها ثانية ، وليس عندي شيء أقوله لها . لم اكن أود حتى ان اخمها الى صدري ؛ كنت أمقت جسدي الذي اصبح داكن اللون يتصبب منه العرق - ولم اكن متأكداً إذا كنت أمقت جسمها ايضاً . ستبكي كونشا عندما تعلم بخبر موتي ، ستظل

شهوراً ، غير راغبة بالحياة . ولكن ، مع ذلك ، فأنا الذي اموت . فكرت بعينيها الجميلتين العذبتين . عندما كانت تنظر الي ، ينتقل شيء منها اليّ . ولكني فكرت ان الأمر قد انتهى ؛ فإذا تطلعت اليّ في الوقت الحاضر سيظل نظرها في عينيها ولن يصل إليّ . كنت وحيداً .

وتوم كذلك كان وحيداً ، ولكن ليس بنفس الطريقة . اذ جلس منفرج الرجلين واخذ ينظر الى المقعد بنوع من الابتسامة ، كانت تبدو عليه الدهشة . وقرب يده ولامس الخشب بحذر ، وكأنه يخشى ان يكسر شيئاً ما ، ثم سحب يده بحدة وارتجف . ما تسليت بالمقعد لو كنت انا توم . كان ذلك نوعاً من التمثيليات الارلندية ، ولكني كنت ارى ان للاشياء شكلاً مضحكاً ؛ فقد كانت أكثر اختفاء وقل وزناً من المعتاد . اذ كان يكفي ان انظر الى المقعد ، والسراج ، وكومة الفحم المسحوق ، حتى اشعر بأني سأموت . بالطبع ، لم يكن باستطاعتي ان افكر بموتي بصفاء ، لكنني كنت اراه اينما كان ، على الأشياء ، في الشكل الذي تراجعت به الأشياء ووقفت بعيدة ، يتحفظ كأشخاص يتكلمون بصوت خافت قرب فراش انسان يموت ، كان موته ، ذاك الذي تحسسه توم على المقعد .

في الحال الذي كنت فيه ، لو جاء من يعلن لي ان بإمكانني العودة بهدوء الى بيتي ، وان حياتي سيتم انقاذها : لظلمت على برودي : فعدة ساعات او عدة سنين من الانتظار كلها سواء ، عندما يتبدد وهم الخلود . لم اعد اصر على شيء ، فقد بت هادئاً . لكن هدوئي كان رهيباً - بسبب جسدي : جسدي ، الذي كنت انظر بعيني ، واسمع بأذنيه ، ولكنه ليس انا . كان يتصبب منه العرق ويرتجف وحده ، ولم اعد اتعرف عليه . كنت ملزماً بأن ألسه او ان انظر اليه لأرى كيف أصبح ، كما لو انه اضحى جسم انسان آخر . لفترات ، كنت لا ازال اشعر به ، احس بالملزقات ، وبأنواع التدحرج كما لو كنّا في حادثة نائمة او انني احس خفقان قلبي . ولكن هذا لم يكن ليطمئنني ؛

فكل ما كان يأتي من جسدي كانت له هيئة قدرة معوجة . معظم الوقت ، كان يسكت ، ويظل أبكم ، ولم أعد احس بسوى نوع من الجاذبية ، والوجود المدنس قبالي . كان ينهيا لي اني مرتبط بموت بطيء . كنت اتحسس سروالي لحظة واحس بأنه مبتل ؛ ولم اكن اعرف اذا كان مبتلا من العرق أو البول ، غير اني ذهبت لأبول على كومة الفحم ، احتياطاً .

اخرج البلجيكي ساعته ونظر اليها . وقال :

« انها الثالثة والنصف » .

يا له من قدر . لقد فعل هذا عدداً .

قفز توم عن الأرض : لم نكن قد عرفنا بعد ان الوقت يمر والليل يحيط بنا ككتلة مقسمة ليس لها شكل معين ، ولم أعد اتذكر حتى انه ابتداءً .

اخذ جوان الصغير بالصراخ . كان يتصور ألماً ، ويتوسل :
« لا أريد ان اموت ، لا اريد ان اموت » .

وركض عبر القبو رافعاً ذراعيه في الهواء ، ثم نهالك على فراش من القش وانتحب . كان توم ينظر اليه بعينين كئيبتين ولم تعد به رغبة لمؤاساته . ولم يعد هذا ضرورياً ، اذ كان الصغير يحدث ضجيجاً أكثر منا ، ولكن اصابته كانت أخف ؛ كان بمثابة مريض يدافع عن يؤسه بالحمى ، فالحمى اذا زالت ، تصبح الأمور اشد خطورة .

كان بيبي ، وكنت أعرف تماماً انه يشفق على نفسه ، ولم يكن يفكر بالموت . للحظة واحدة ، للحظة واحدة اعتراني شعور بالبكاء انا ايضاً ، بالبكاء رفقاً بنفسي . ولكن العكس هو الذي جرى ؛ ألقيت نظرة على الصغير ، فرأيت كنفه الهزيلتين الباكيتين واحسست بعدم انسانيته ؛ لم يكن بوسعي ان اشفق على نفسي وعلى الآخرين . وقلت في نفسي : « أود ان امرت حقاً . »

كان قوم قد نهض ، ووقف تحت الفوهة المستديرة بالضبط وأخذ يتربص ،
طلوع النهار . وأنا كنت مصدوماً ، وددت ان اموت حقاً ، ولم افكر بغير
ذلك . ولكن ، منذ انبأنا الطبيب عن الوقت ، بدأت أحس به ينقضي ،
بل يسيل قطرة فقطرة .

كان الوقت لا يزال ظلاماً عندما سمعت صوت قوم :

- هل تسمعون .

- نعم .

كان الرجال يمشون في الباحة .

ما الذي جاء بهم ؟ فليس بإمكانهم ان يطلقوا النار في الظلام .

وما هي الا دقائق حتى لم نعد نسمع شيئاً . فقلت لتوم :

« ما هو النهار » .

استيقظ بدرو مثائباً وجاء ليطفىء السراج . وقال لرفيقه :

« ياله من صقيع » .

كان القبوق قد أصبح داكناً تماماً . وسمعنا عبارات نارية من بعيد . فقلت ،

لتوم : « ها هي الأمور تبدأ ، يودون ان يقوموا بالواجب في الباحة .

الخلفية » .

طلب قوم من الطبيب ان يعطيه سيجارة . انا لم اكن ارغب بالتدخين .

لا أريد لا سيجارة ولا كحولاً . ابتداء من هذه اللحظة ، لم يكفوا عن .

اطلاق النار .

فقال قوم :

« هل ترى ؟ »

كان يود ان يضيف شيئاً ولكنه سكت ، ونظر الى الباب . فتح الباب ،

ودخل ملازم مع اربعة جنود . فوقعت السيكاره من يد توم .

« ستينيوك ؟ » .

لم يجب توم . فبدرو هو الذي دل عليه .

— جوان مريال ؟

— هذا الذي يفتش القش . فقال الملازم :

« انهض » .

لم يتحرك جوان . فأخذه جنديان من تحت ابطيه وأوقفاه . ولكن ما ان تركاه حتى سقط أرضاً .

وتردد الجنود . وقال الملازم :

« ليس هو الوحيد الذي يرى نفسه في حالة سيئه ، عليكما ان تحملاه انما الاثنين . وستدبر الأمر هناك » .

واستدار الى توم :

« هيا ، تعال » .

وخرج توم بين جنديين . وكان يتبعه جنديان آخران ، يحملان الصغير من تحت إبطيه وعرقوبيه . لم يكن مغشياً عليه ، فعيناه جاحظتان ، والدموع تسيل على خديه . ولما هممت بالخروج أوقفني الملازم :

— انت إبيانا

— نعم .

— سنتظر هنا ؛ فسيأتون لآخذك في الحال .

وخرجوا . خرج البلجيكي والسجانات ايضاً ، وبقيت وحدي . لم اكن أفهم ما يجري لي ، ولكنني وددت ان يلمتي ذلك بسرعة ، وسمعت الطلقات على فترات شبه منتظمة . وكنت ارتعش لسماع كل منها . كنت اود ان

اصرخ ، ان انتزع شعري . لكنني ضغطت على اسناني وغرست يسدي في جيبى لانني كنت اود البقاء نظيفاً .

وما هي الا ساعة ، حتى أتوا ليأخذوني ، واقتادوني الى الطابق الأول ، الى حجرة صغيرة تقوح منها رائحة السيجار ، ذات حرارة خانقة . كان فيها ضابطان يدخان وهما جالسان على كنبات ، كما يضع كل منهما على ركبتيه اوراقاً .

— اسمك اياتا؟

— نعم .

— اين رامون غري ؟

— لا أعرف .

الذي كان يستجوبني قصير ضخم . كانت عيناه القاسيتان تبدوان من خلف نظارته . وقال لي :

— اقترب

واقتربت . فنهض وامسكني بكثفي وهو ينظر الي بوجه من يريد قذفي الى باطن الأرض . في نفس الوقت الذي كان فيه يضغط على عضلات ذراعي بكل قواه . لم يكن ذلك بغية ايدائي ، بل انها اللعبة اللبقة .

كان ينبغي السيطرة علي . وارثأى ايضاً ان ينفث لهائه العفن في وجهي . بقينا لحظة واحدة على هذه الحال ، كان هذا اقرب الى اضحاكي . اذ كان يلزم اكثر من ذلك لاختافة رجل على وشك الموت : لم تنجح لعبته . فدفعني بعنف ثم عاد الى الجلوس وقال :

« انها حياتك مقابل حياته . نحن سننقذ حياتك اذا قلت لنا أين هو » .

ان هذين الرجلين المزدانين بسياطهما واحذبتها الطويلة الساق ، هما كذلك

من الرجال الذين سيموتون ، بعد موتي بقليل ، ولكن ليس ابعد من هذا .
كانا منهمكين بالبحث عن اوراقها ، يركضان وراء رجال آخرين بغية الالتقاء
بهم في السجن او حذفهم من الوجود . كانت لهما آراء حول مستقبل اسبانية
وحول مواضيع اخرى . كانت نشاطاتها الضئيلة تبدو لي ناكية غليظة : لم
يكن يوسعي ان اضع نفسي في مكانها إذ تهيأ لي انها مجنونان .

كان الصغير الغليظ ينظر الي ايمعان ، وهو يضرب بالسوط على جزمته .
كل حركاته تدل بدقة على ان له مشية حيوان هائج مفترس .

— اذاً ؟ فهمت ؟ فأجبت :

— أنا لا اعرف اين غري . كنت اظن انه في مدريد .

ورفع الضابط الثاني يده بوقاحة . هذه الوقاحة كانت محسوبة بدقة
ايضاً . كنت أشهد مناوراتهم الصغيرة ، مندهشاً من وجود رجال يتسلون.
بهذي الأمور . فقال بتؤدة :

— لديك ربع ساعة لتفكر . قده الى غرفة الغسيل ، وستعيده بعد
ربع ساعة . فاذا أصر على الرفض سننفذ به الحكم في هذا المكان .

كانوا يعرفون ما يريدونه لقد امضيت ليلى كله بالانتظار ؛ وبعد هذا ،
جلوني على الانتظار ساعة في القبو ، بينما كانوا يعدمون قوم وجوان والآن ها
هم يحتجزوني في غرفة الغسيل . لا بد انهم أعدوا ضربتهم منذ البارحة .
قالوا في نفسهم ان الاعصاب تتلف مع الوقت وتأملوا في ان يروني هكذا .

كانوا يخطئون كل الخطأ . ففي غرفة الغسيل جلست على طاولة ، لاني
كنت لا أزال احس بضعفي وبدأت افكر ، ولكن ليس باقتراحهم . بالطبع
كنت أعلم ان كان غري ! كان محتبئاً في بيت ابناء عمه ، على بعد أربعة
كيلومترات عن المدينة . وكنت اعرف كذلك اني لن اكشف عن مكان
وجوده الا اذا عذّبوني (ولم يبد عليهم انهم فكروا بذلك) كل ذلك كان .

معداً تمام الاعداد النهائي ، فلن يعني أبداً . بيد اني وددت لو ادرك اسباب سلوكي . كنت أؤثر ان اموت على ان اسلم غري . لماذا ؟ لم اعد احب رامون غري . وصادقتي معه تلاشت قبل الفجر ، مع حيي لكونشا ، مع رغبتني في الحياة . كنت لا أزال اقدره بلا شك ، كان رجلاً قاسياً . ولكن ليس لهذا السبب قبلت بالموت مكانه ، فلم يعد لحياته قيمة تفوق قيمة حياتي ، لم يعد لأية حياة قيمة . سيلصقون الانسان بالجدار وسيطلقون الرصاص عليه حتى الموت ، ما هم لو كنت انا او غري او اي شخص آخر ، كنت اعلم انه أكثر فائدة مني لقضية اسبانية غير اني كنت اسخر من اسبانية والفوضى ، لم يعد لأي شيء أهمية . ومع ذلك كنت هناك ، وكان بإمكانني ان اتقذ جلدي بتسليم غري ورفضت الاقدام على ذلك . رأيت هذا مضحكاً : إذ كان عناداً وفكرت :

« هل على المرء ان يكون عنيداً » .

واعتراني نوع من السعادة غريب .

وجاؤوا يستدعونني أمام الضابطین . فخرج جرد من تحت ارجلنا فسلاني قليلاً . واتجهت نحو احد رجال الكتائب وقلت له :

« هل رأيت الجرذ ؟ »

ولم يجب . كان مكفهر الوجه ، مقتنعاً بجديته . اما انا فكنت ارغب بالضحك ولكنني كنت اضغط على نفسي لاني خفت ان بدأت ان افقد القدرة على التوقف . كان لرجل الكتيبة شاربان ، فأضفت قائلاً له :

« عليك ان تحلق شاربيك ايها الغبي » .

كنت ارى ان اطلاق الشعر ليغزو الوجه اثناء الحياة ، من الأمور الغريبة . فرفسني برجله بغير اقتناع ، فسكت .

فقال الضابط الضخم :

— حسناً ، هل فكرت ؟

نظرت اليها بفضول كما لو انني انظر الى حشرات من نوع نادر جداً .
وقلت لها :

« انا اعرف اين هو . فهو مختبئ في المقبرة ، في قبو صغير او في كوخ
الحفارين » .

كان ذلك لأهزأ منها كنت اود ان اراها يقفان ، ويشدان حزاميهما
يعطيان الأوامر باهتمام .
فقفرا على ارجلهما .

« هيا . اطلب خمسة عشر رجلاً من الملازم لوبيز . وقال لي الضابط القصير
الضخم : وانت لو قلت الحقيقة ، فليس عندي الا قول واحد . ولكن ستدفع
الشن غالباً لو كنت تكذب علينا » .

ومضوا محدثين ضجة قوية ، بينما انتظرت بسرور تحت رقابة رجال
الكتائب . كنت اضحك من وقت لآخر من الوجه الذي سيقابلونني به . شعرت
بنفسي مغفلاً وخبيثاً . تخيلتهم رافعين حجارة القبر ، فاتحين أبواب الأقبية
واحداً واحداً . وتثلث الموقف كما لو كان شخصاً آخر : هذا السجين الذي
يصر على عمل البطولة ، هؤلاء ، هؤلاء الكتائبون الوقورون بشواربهم ،
واولئك الرجال ببناتهم الرسمية يتراكمون بين القبور . كان ذلك في منتهى
الطرافسة .

وما هي الا نصف ساعة حتى عاد القصير الضخم وحده . وقلت انه جاء
يمطي امر القضاء علي . اما الباقيون فظلوا في المقابر .

ونظر الي الضابط . وقد اختفت عن وجهه مسحة الارتباك وقال :
« اقتادوه الى الباحة مع الآخرين . ففي نهاية العمليات العسكرية ،
ستبث المحكمة العادية بمصيره » .

وخلت انني لم افهم ، فسألته :

— اذا سوف لن... لن يرموني بالرصاص ؟...

— ليس الآن على كل حال . وبعده ، لا يعود الأمر متعلقاً بي .

لم أفهم ابداً . وقلت له :

« ولكن لماذا ؟ »

فهز كتفيه بدون ان يجيب ، واقتادني الجنود . وفي الباحة الكبيرة كان هناك مئات السجناء من نساء وأولاد وبعض الشيوخ . وبدأت أدور حول المرحلة الرئيسية ، لقد اصبحت معتوها . عند الظهر ، قدموا لنا الطعام في المطعم . واستجوبني شخصان او ثلاثة . كان علي أن اعرفهم ، غير اني لم اجبهم ؛ فلم أكن اعرف اين انا .

عند المساء ، القوا في الباحة نحو اثني عشر سجيناً جديداً . فتعرفت على غارسيا ، الحناز . فقال لي :

— يالك من محظوظ مقدس ! لم أكن أفكر بأني سأراك على قيد الحياة . فقلت :

— لقد حكموا علي بالإعدام ، ثم غيروا فكرتهم . ولا أدري لماذا . فقال غارسيا :

— لقد أوقفوني في الساعة الثانية .

— لماذا ؟

غارسيا لم يكن يعمل بالسياسة . فقال :

— لا أدري . انهم يوقفون جميع من لا يفكرون على شاكلتهم .

وخفض صوته :

« لقد قتلوا غري » .

وبدأت أرتجف .

- متى ؟

- هذا الصباح . لو تدري ما فعل المغفل . لقد غادر بيت أبناء عمه يوم الثلاثاء ، لأنه صدر عنهم كلام . ولم يكن يفتقر لأناس يأوونه ولكنه لم يعد يريد إحساناً من أحد . وقال : « كنت سأختبئ عند إبيانا ولكن بما أنهم ألقوا القبض عليه فسادّ ذهب واختبئ في المقبرة » .

- في المقبرة ؟

- نعم . كانت بلاهة منه . فبالطبع مرّوا بها هذا الصباح ، وكانت هذا مقررأ . فوجدوه في كوخ الحفارين . فأطلق النار عليهم ، لكنهم أردوه .

- في المقبرة !

كل شيء بدأ بالدوران ، ووجدتني جالساً على الأرض ؛ كنت أخجل بقوة ، الى حدّ أن الدموع بانت في عيني .

المرفقة

- ١ -

كانت السيدة داربدا تحمل قطعة راحة الحلقوم بين أصابعها . وقربتها من شفتيها بعناية مخافة ان يطير عنها مسحوق السكر قائلة في نفسها : « إنها معطرة » . وعضت تلك القطعة التي بلون الزجاج ، فتصاعدت منها رائحة عفنة ملأت فيها . « غريب كم ان المرض يصفي الأحاسيس » . واخذت تفكر بالجوامع ، وبالشرقيين من اصحاب المجاملة (فقد ذهبت الى الجزائر في رحلة عرسها) ورسمت شفتيها ابتسامة ، فراح الحلقوم ايضاً متملقة .

وكان عليها ان تمر براحة يدها على صفحات كتابها ولعدة مرات لأن قشرة من المسحوق الأبيض كانت تغطي يدها رغم العناية . فيداها قد دحرجا حبيبات السكر وألصقاها بالورق الأملس : « إن هذا ليندكري بأركاشون عندما كنت أقرأ على الشاطئ... » فقد أمضت صيف ١٩٠٧ على شاطئ البحر . وكانت تعتمر وقتئذ قبعة من القش لها شريطة خضراء ، كما تجلس على رصيف الحجارة ويدها كتاب « لجيب » او « لكوليت إيفير » . والريح تمطر على ساقبها زوابع من الرمل ، وهي تقلب من وقت لآخر كتابها ممسكة بأطرافه . إنه الاحساس عينه ، غير ان قطععات الرمل الصغيرة كانت جافة في حين أن قطععات السكر تاذق بيدها . فقد عاشت قطعة من السماء الغبراء المتألثة فوق بحر اسود . « لم تكن قد ولدت بعد » . وأحست انها وهي مثقلة بالذكريات ثمينة كصندوق من الصندوق . وعاردها اسم القصة

التي كانت تقرأها ؛ واسمها السيدة الصغيرة ، ولم يكن الاسم مزعجاً . لكن السيدة داربدا باتت تفضل المذكرات والمؤلفات التاريخية منذ أرغمها بلاء مجهول على البقاء في غرفتها . كانت ترى أن الألم ، والقراءات العديدة ، والانتباه الدقيق للذكريات أيامها العذبة ، من شأنها أن تجعلها ناضجة كثرمة عاجل نضجها .

وفكرت بأن زوجها سيطرق بابها بعد قليل . ففي أيام الأسبوع الأخرى كان يأتي في المساء فقط ، يقبلها في جبينها بصمت ويتابع قراءة كتاب «الوقت» قبالتها . لكن الخميس هو «يوم» السيد داربدا . إذ يبدأ الغرفة الهادئة بوجوده . فهو لا يجلس ، بل يذرع أرض الغرفة ويدور على نفسه . كانت حديثه تخرج السيدة داربدا كشظية الزجاج . وهذا الخميس ، أسوأ من العادة ؛ حين تفكر بأن عليها في الحال أن تردد لزوجها اعترافات إيفا وترى ذلك الجسم الضخم الخفيف يقفز من الهلع ، ذلك يجعل العرق يتصبب منها . ووضعت حلقوماً في الصحن وألقته بكأبة ؛ لم تكن تريد أن يراها زوجها تأكل الحلقوم .

وارتمشت لما سمعت الباب يطرق . وقالت بصوت ضعيف : «ادخل» . دخل السيد داربدا على رؤوس أصابعه . فقال كما في كل خميس : «أريد أن أرى إيفا» .

فابتسمت له السيدة داربدا :

«ستقبلها من أجلي» .

لم يجب السيد داربدا وقطب حاجبيه باهتمام ؛ ففي كل خميس وفي نفس الساعة ، يعتبره نوع من الآلة التي تمتاز بمحاذاة الهضم .

«سأمر لأرى فرانشو وهو خارج من بيتها» أريد أن يكلمها بحدية وأن يحاول إقناعها .

كان يقوم بزيارات متعددة للدكتور فرانشو . ولكن عبثاً . ورفعت السيدة داربدا حاجبها . ففي الماضي زمن نشاطها كانت ترفع كتفها دائماً . ولكن منذ أثقل المرض جسدها ، استبدلت الحركات التي أرهقتها بحركات من وجهها : فتقول نعم بعينها لا بطرف فمها ، كما ترفع حاجبها بدلاً من الكتفين .

« من الواجب ان ننتزعها منه بالقوة » .

— سبق وقلت لك إن هذا مستحيل ، وذلك ان القانون قد اسبثت صياغته . قال لي فرانشو قبل ايام إن لديهم متاعب لا تخصى مع العائلات . اشخاص لا يعتمدون شيئاً معيناً ، يريدون إبقاء المرض عندهم . والأطباء مكبلوا الأيدي فبامكانهم ان يبدوا برأيهم ، ليس إلا . وتابع كلامه بقوله : عليه أن يثير فضيحة عامة أو أن تطلب هي بنفسها وضعها في المستشفى .

فقال السيدة داربدا :

— وهذا لن يكون في يوم غد .

— كلا .

واتجه نحو المرأة ، وغرس اصابعه في لحيته وبدأ يسرحها . كانت السيدة داربدا تنظر بغير حنو الى رقبة زوجها الجراء القوية .

وقال السيد داربدا : إذا استمرت فستصبح اكثر اهتزازاً منه ، وتلك حالة مخيفة . فهي لا تتركه خطوة ، ولا تخرج أبداً إلا لتقابلك ، ولا تستقبل أحداً . فجو غرفتهم لا يمكن ، بكل بساطة ، تنشقه . وهي لا تفتح الباب إطلاقاً لأن بيار لا يقبل بفتحه . كما لو انه يريد استشارة المريض . ويحرقون على ما اظن عطوراً ، بل قدارة في بحجرة ، وكأنهم في كنيسة . انني اقسم بأني اتساءل احياناً لماذا لها هاتان العينان الغريبتان . فقالت السيدة داربدا :

— لم ألاحظ ذلك . ارى هيشتها عادية . وهي كثيبة بالطبع .

— إن عليها ملامح من غادر القبر . فهل تنام ؟ وهل تأكل ؟ يجب ألا تسأل عن هذه الأمور . ولكنني اظن انه لا يغمض لها جفن برفقة رجل ضخم كبير . وهز كتفيه .

« وما أراه اسطورياً أننا نحن وأهلها ، ليس لنا الحق بمحايتها من نفسها . ناهيك عن أن يبار يمكن الاعتناء به جيداً عند فرانشو . فهناك حديقة كبيرة . وأضاف مبتسماً : ان بإمكانه ان يتفق مع افانس من نوعيته . لمث هؤلاء الأشخاص كالأولاد يجب تركهم معاً . فهم يؤلفون نوعاً من الماسونية . فهناك كان يجب وضعه منذ اليوم الأول وأقول : من أجل نفسه . من أجل مصلحته . بلاريب .

وأضاف بعد لحظة :

« سأقول لك اني لا اريد ان أعرف أنها وحيدة مع بيار ، خاصة في الليل . فلو افترضنا ان شيئاً ما قد حصل . فان بيار مرء بشكل خطير » . فقالت السيدة داربدا :

— لا أدري إذا كان من الواجب القلق الى هذا الحد ، لا سيما وإنها حالة رافقته دائماً . كان يوصي بأنه يهزأ من العالم . وتابعت متنهدة : يا له من صبي مسكين ، حاز على شرفه ثم وصل الى هذا الحد . كان يظن أنه اذ كانا جميعاً وله أسلوب في قوله لك :

« الحق الى جانبك » . لاقفال النقاش ... انها رحمة له أن لا يستطيع الاطلاع على حالته » .

كانت تتذكر غير مسرورة ذلك الوجه الطويل الساخر ، الدائم الانحناء . الى جهة واحدة . ففي الأيام الأولى لزواج إيفاء ، لم تتمن السيدة داربدا أكثر من إقامة علاقات ودية مع صهرها . لكنه ثبط همتها ؛ فلم يكن يتحدث ، كما يوافق باستعجال وبغير اكتراث .

ويتابع السيد داربدا فكرته قائلاً :

« دعاني فرانشو لزيارة عيادته ، انه رائع . فالمرضى لهم غرف خاصة ، فيها مقاعد جلدية ، وأسرة مريحة وهل تعرفين ايضاً ان فيها معدات التنس ، كما وسيصار لبناء مسبح » .

كان قد انتصب أمام النافذة ، ينظر من خلال الزجاج مائجاً ذات اليمين وذات اليسار من على رجله المقوستين . فجأة استدار على طرفي حذائه بمرونة وأطوى الكتفين واضعاً يديه في جيوبه . وبدأت السيدة داربدا تشعر بأثر العرق سيتسبب منها ، ففي كل مرة يحصل الشيء ذاته . والآن سيذرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً كدب في قفصه ، وسيقرقع بحذائه عند كل خطوة فقالت له :

« يا صديقي ، أرجوك ، اجلس ، انت تتعبني » .
واضافت بتردد : « عندي شيء خطير اقله لك » .

جلس السيد داربدا على الكرسي الكبيرة ووضع يديه فوق ركبتيه . وسرت في ظهر السيدة داربدا قشعريرة خفيفة ؛ فقد أزفت الساعة ، كانت عليها ان تتكلم . وقالت بصوت ملؤه الانزعاج :

- تدري أنني رأيت إيفا يوم الثلاثاء .
- نعم .

- لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة ، كانت لطيفة جداً ، فننذ وقت طويل لم أجد لها بتلك الثقة . عند ذلك طرحت عليها بعض الاسئلة ، وجعلتها تتكلم عن بيار .

وأضافت وقد ازداد انزعاجها : حسناً ، انها تملك « كثيراً » به .
فقال السيد داربدا :

- اقسم بأنني أعرف هذا حق المعرفة .

كان يزعم السيدة داريدا قليلاً . إذ ان عليها دائماً ان تشرح له الأشياء بدقة واضعة النقاط على الحروف ، كانت السيدة داريدا تحلم بأن تنضي حياتها مع أشخاص من ذوي اللباقة والحس المرهف ، بمن يفهمونها بسرعة . وأردفت : « غير اني أريد ان اقول ، انها تتمسك به » بخلاف « ما نتصوره » .

وتطلع السيد داريدا بعينين غاضبتين مضطربتين ، كمادته عندما لا يفهم معنى قلمح أو خير ما :

— ما يعني هذا ؟

فقال السيدة داريدا :

— شارل ، لا تعني ، عليك ان تفهم ان الأم تجد صعوبة في ذكر بعض الأمور .

فقال السيد داريدا بغضب :

— لم أفهم أية كلمة من الكلمات التي أتيت بها ، ولا تريد ان تقولي شيئاً رغم ذلك ؟

فقال : حسناً إذا !

— لديهم أيضاً .. ايضاً حتى الآن !

فأجاب بثلاث كلمات جافة :

— نعم ! نعم ! نعم !

فأزاح السيد داريدا ذراعيه ، وأخفض رأسه وسكت .

فقال امرأته بقلق :

— شارل ، كان عليّ ان لا اقول لك ذلك . لكنني لم اعد استطيع

الاحتفاظ به لنفسي .

فقال بصوت وئيد :

— يا بنتنا ! مع هذا المجنون ! انه لم يعد يعرفها فهو يسميها أغاثا . فطبيعي.

ان تكون قد فقدت معنى ما يجب ان تكون .

فرفع رأسه ونظر الى زوجته بقساوة :

— أنت متأكدة من انك فهمت جيداً ؟ فأضافت بحدة :

— لم يكن هناك من شك ممكن . فأنا مثلك ، لم يكن يسعني ان اصدق ،
وانا لا افهمها على كل حال . إلا لأنها متأثرة بهذا البائس المسكين... وتنهتت :
واخيراً ، اعتقد انه يحتفظ بها بهذا .

فأجاب السيد داربدا :

— يا للأسف ! هل تذكرين ما قلت لك عندما جاء ليطلب يدها ؟ قلت
لك : « انه يروق لإيفا اكثر من اللزوم » . ولم تريدي ان تصدقيني .

وضرب فجأة على الطاولة واحمر بقوة :

— هذا فساد في الأخلاق ! يأخذها بين ذراعيه ويقبلها وهو يناديها
بأغاثا ويفرغ جميع سخافات حول التماثيل التي تطير وغير ذلك ! وهي تسمح
بذلك ! ولكن ما يجري في الحقيقة بينها ؟ ان تلومه من كل قلبها . ان
تضعه في مأوى للراحة ، حيث يصبح بإمكانها ان تراه كل يوم في ساعة
مبكرة ، غير اني لم افكر بشيء كهذا ... كنت اعتبرها بمثابة أرملة .

وقالت بصوت وقور :

— اصغني يا جانيت ، أريد ان اكلمك بصراحة ، فاذا بقي فيها إحساس
عليها ان تتخذ لها عشيقاً !

فصاحت السيد داربدا :

— شارل ، اخرس !

فأخذ السيد داربدا ، بهيئة متعبة ، القبعة والعصا اللتين وضعها على
الطاولة المستديرة ، حين دخوله وختم حديثه قائلاً :

— بعد الذي قلته لي لم يبق لي اي أمل . وفي النهاية ، سأحدثها رغم كل

شيء لأن هذا من واجبي .

كانت السيدة داربدا تستعجل ذهابه . فقالت له بقية تشجيعه : « اتدري ان إيذا تشكو من عنادها أكثر من اي ... شيء آخر . تعرف أنه غير قابل للشفاء ولكنها تصر على عنادها ، وهي لا تريد ان ترضى بالتكذيب » .

كان السيد داربدا يداعب لحيته حالماً :

« عناد ؟ نعم يمكن ان يكون الأمر كذلك . حسناً ، فإذا كان الحق معك لا بد وان تعب في النهاية . فهو ليس مريحاً كل يوم ثم ان الحديث ينقصه ، فعندما أقول له مرحباً ، يبدلي بدأ رخوة بدون ان يتكلم . وعندما ينفردان معاً ، اظن انه يعود الى افكاره الثابتة : قالت لي انه يصرخ كالذبيح لأن عنده وساوس . تماثيل . تخيفه التماثيل لأنها تثر . يقول انها تدور حوله بأعين بيضاء » .

وأردف وهو يضع كفيه :

« ألا أقول لك ، انها ستمل في النهاية . ولكن إذا جئت قبل ذلك ؟ أود ان تخرج قليلاً ، ان ترى العالم : فإذا قابلت شاباً ظريفاً — شخصاً مثل شرويدر مثلاً وهو مهندس عند سامبلون ، شخصاً له مستقبله ، تراه تارة عند هؤلاء ، وطوراً عند اولئك وتعتاد برفق على التفكير ببناء حياتهم من جديد » .

لم تحب السيدة داربدا بشيء مخافة ان يتطور الحديث . فالتحنى زوجها نحوها قائلاً :

— هيا ، عليّ ان اذهب .

فقالت السيدة داربدا وهي تقرب جبينها :

— وداعاً ايها الأب . قبلها جيداً وقل لها نيابة عني إنها عزيزة ناعسة . وما ان ذهب زوجها حتى وقعت السيدة داربدا على كنبتها وأغمضت

عينها من فرط الإعياء . وفكرت بنوع من الملامة : « يا لها من حيوية » ..
وما كادت تستعيد بعض قواها حتى مدت يدها الشاحبة ووضعت قطعة من.
الحلوقم في الصحن ، بارتجاف وبدون ان تفتح عينها .

كانت إيفا تسكن مع زوجها في الطابق الخامس من إحدى البنايات ،
في شارع باك . تسلق السيد داربدا برشاقة درجات السلم المثلثين واثني عشرة ..
ولما ضغط على زر الجرس لم يكن على آخر رمق . وتذكر بارتياح كلمة الأئسة.
دورموا :

« بالنسبة لسنك يا شارل ، انت ، بكل بساطة ، رائع » . لم يكن يعرف
أبدأ مثيلاً لقوته ونشاطه يوم الخميس ، لا سيما بعد تسلق الدرج .

وجاءت إيفا لتفتح له : « صحيح ، ليس عندها خادمة . هؤلاء البنات.
لا يستطعن البقاء في خدمتها لو وضعت نفسي في مكانهن » . قبلها قائلاً :
« مرحباً بك يا عزيزتي المسكينة » .

فقالت له مرحباً ببعض البرود .
وقال السيد داربدا وهو يلامس خدها : « وجهك مائل الى الشحوب »
فانت لا تتمرنين ما فيه الكفاية » .

ومرت فترة صمت .

وسألت إيفا :

— الماما صحتها جيدة ؟

— لا رديئة ولا جيدة . هل رأيتهما الثلاثاء ؟

حسناً انها ككل يوم . جاءت خالتك لويزا لتراها امس ، فسرت لذلك .
تحب كثيراً أن تتلقى الزيارات ، شريطة ألا تطول كثيراً . خالتك لويزا
أنت الى باريس مع الصغار من اجل قضية الحجز . حدثتك عنها على ما أظن.
انها قضية مضحكة . ومرت الى مكنتي لتأخذ استشارة . فقلت لها انـ

ليس هناك من طريقين : عليها ان تبسح . فقد وجدت بريتوفيل كمتأجر على كل حال . هل تذكرين بريتوفيل ؟ لقد انسحب من الأعمال في الوقت الحاضر .
وتوقف فجأة ، فايفا لا تكاد تصغي اليه . ففكر باكتئاب بانها لم تعد تكثر لشيء . « كقصص الكتب . في السابق كان علينا اننا نزعها بالقوة . والآن لم تعد نقرأ أبداً » .

— كيف حال بيار ؟ فقالت ايفا :
— بأحسن حال . هل تريد ان تراه ؟
فقال السيد داريدا بسرور :
— بل بكل تأكيد ، اريد ان ازوره زيارة قصيرة .

كان كثير الملاحظة لهذا الرجل التعيس ، ولكنه لا يستطيع رؤيته بغير شتمزاز . « انا اخاف الأشخاص غير الأصحاء » . لم تكن تلك غلطة بيار بلا شك : كانت سلالته مليئة . وتنهد السيد داريدا : « مهما اخذنا من احتياطات فان كل الأمور الماثلة تأتي متأخرة جداً » . كلا ، لم يكن بيار مسؤولاً . ولكن على كل حال ، فقد حمل هذه الآفة فيه ، وهي تكون جوهر طبيعته . اذ لم تكن كمرض السرطان او السل ، بالامكان التغاضي عنها عندما تكون بصدد الحكم على الانسان كما هو بمجد ذاته . فلطالما راق ايفا تلك الجاذبية العصبية وذلك الذكاء عندما كان يغازلها ، انها ازهار الجنون . « كان قد أصبح مجنوناً حين تزوجها ، غير ان جنونه لم يظهر . وفكر السيد داريدا : فتساءل اين قبتدىء المسؤولية او بالأحرى اين قنتهي . انه يحلل نفسه كثيراً على كل حال فهل هذا سبب بلائه ام نتيجة . ولحق بابلته عبر ممر طويل جمعتم وقال :

— هذه الشقة كبيرة بالنسبة اليكما ، عليكما ان تنتقلا منها . فأجابت ايفا :
— تردد لي هذا في كل مرة يا أبت ، لكنني اجبتك بأن بيار يرفض مغادرة غرفته .

كانت إيفا مدهشة : وهذا ما يثير التساؤل فيما لو كانت تعلم بحالة زوجها
كان مجنوناً ، وهي تحترم قراراته وآراءه كما لو كان متمتعاً بحسه السليم .
فأردف السيد داربدا ببعض الانزعاج :

— ما تحدث عنه هو من اجلك . إذ يبدو لي لو كنت امرأة اني سأخاف
من هذه الحجرات القديمة شبه المضاءة ، اتنى لك ان تقيمي في شقة مضيئة ،
كتلك التي بنوا منها هذه السنين الأخيرة ناحية أوتوبي ، من ثلاث غرف يدخلها
الهواء جيداً . وقد خفضوا ايجار شقاتهم لانهم لم يجدوا المستأجرين ،
فالفرفة سانحة .

وأدارت إيفا مزلاج الباب برفق بدخلا الغرفة . كاد السيد داربدا
يخنق من رائحة البخور الثقيلة . والستارات كانت مسدلة . فيز في الظل
رقبة هزيلة فوق ظهر الكنية ؛ كان بيار يدير ظهره ، انه يأكل .

فقال السيد داربدا رافماً صوته :

— مرحباً يا بيار . كيف حالنا اليوم ؟

واقترب السيد داربدا ؛ كان المريض جالساً الى طاولة صغيرة ؛ بهيئة
متملقة . وقال السيد داربدا رافعاً صوته أكثر :

— أكلنا بيضاً نبرشت . إنه لذيق ، هذا البيض !

فأجاب بيار بصوت رقيق :

— أنا لست أصم .

والسيد داربدا الذي تأثر ، أدار وجهه ناحية إيفا ليأخذها كشاهدة .
الكن إيفا بإدائه نظرة قاسية وسكتت . ففهم السيد داربدا انه جرحها .
« حسناً . فليكن ما تشاء » . كان يستحيل ايجاد اللهجة الملائمة مع هذا
الرجل : إذ ان عقله دون عقل طفل في الرابعة ، وايفا تريد ان يعامله الناس
كرجل . ولم يكن السيد داربدا ليستطيع ان يحول دون الانتظار بفارغ

الصبر زوال تلك التواحي المضحكة . فالمرضى يزعمونهم دائماً - وخاصة
الجهانين لأنهم على خطأ . فبيار المسكين مثلاً ، دائم الوقوع في الخطأ ، ليس
بوسعه ان يتفوه بكلمة بدون ان يضيع صوابه ، ومن العبث ان يطلب اليه
أي تواضع ، او حتى الاعتراف العرضي بالأخطاء .

وانتزعت إيفا قشرة البيض . ووضعت أمام بيار صحناً مع شوكة
وسكين .

فقال السيد داربدا مسروراً :

- ماذا سيأكل في الوقت الحاضر !

- قطعة بفتاك .

كان بيار قد تناول الشوكة ووضعها على طرف أصابعه الطويلة الشاحبة ..
فحصها بدقة ثم ضحك ضحكة خفيفة . وتمتم وهو يضعها من يده :

- لن تكون لهذه المرة . فقد نهيت .

واقتربت إيفا ونظرت الى الشوكة باهتمام فائق . فقال بيار :

- آغانا اعطيني شوكة أخرى .

واطاعته إيفا ، وبدأ بيار يأكل . فتناولت الشوكة المشبوهة وامسكتها
بكلتا يديها بدون ان تزيج نظرها عنها : يبدو انها تقوم بمجهود عنيف .
ففكر السيد داربدا . « كم هي منحرفة جميع تصرفاتهم وحركاتهم ! »

كان متضايقاً .

وقال بيار :

« انتبهني ، أمسكها من نصف الظهر بسبب الملاقط » .

فتنهدت إيفا وألقت الشوكة مع فضلات الطعام . وضاق السيد داربدا
ذرعاً بما رآه . ولم يفكر بأنه من الأفضل الموافقة على ترهات هذا المسكين -
حق من وجهة نظر بيار ، كان الأمر مؤذياً . لقد قالها فرانشو بوضوح :

« علينا ألا ندخل في هذر المريض ». قبلًا من اعطائه شوكه أخرى كان يجب تصويبه برفق وافهامه ان الشوكه الأولى ككل الشوكات الأخرى . واقترب من فتات الطعام ، وتناول الفراشة علناً واخذ يحكمها على اسنانه بنحفة . ثم اتجه نحو بيار . لكن هذا كان يقطع قطعة اللحم بسرور . فرفع نحو حميه نظرة عذبة لا تتم عن شيء . فقال السيد داربدا لايفا :

« اريد ان اتحدث قليلاً معك » .

تبعته ايفا طائفة الى غرفة الاستقبال . وانتبه السيد داربدا وهو يجلس ، الى انه نسي الفراشة في يده . فرماها ، بانزعاج على المنضدة . وقال : « هنا أفضل » .

— لن آتي ابداً .

— بإمكانني أن أدخن .

فقالت ايفا بتلف :

— طبعاً يا أبت . هل تريد سيجاراً ؟

آثر السيد داربدا ان يلف سيجارة . كان يفكر بغير قلق بالمناقشة التي سيجريها . كان مزعجاً من عقله وهو يتحدث الى بيار ، انزعاج المارد من قوته عندما يلاعب ولداً صغيراً . فكل صفاته من وضوح وصفاء ودقة كانت تتحول ضده . « مع جانبيت المسكينه ، الأمر متشابه الى حد ما ، عليّ ان اعترف بذلك » وبالطبع ، ان السيدة داربدا ليست مجنونة ولكن المرض انهكها . ايفا ، بالعكس ، كانت كأبيها ، ذات طبيعة مستقيمة ومنطقية . « لهذا لا اريد ان يغرقوها » . رفع السيد داربدا عينيه ، كان يريد ان يرى ملامح الذكاء والفتنة عند ابنته . خاب ظنه : ففي هذا الوجه الذي كان عاقلاً شديد الوضوح ، يوجد الآن شيء مضطرب كئيف . كانت لا تزال جميلة جداً . ولاحظ السيد داربدا انها تزيبت بعناية فائقة ، وحتى بزهو . فقد لونت ريفها بالأزرق واكتحلت . تلك الزينة الكاملة والعنيفة احدثت عند

أبيها انطباعاً مضنياً . فقال لها :

« تبدين خضراء من تحت زينتك ، اخشى ان تقعي فريسة المرض . ولكم قنبرجين في الوقت الحاضر ! انت التي كنت » .

لم تجب ايها ، وتطلع السيد داربدا بانزعاج الى هذا الوجه البارز المنهك ، تحت كتلة الشعر الكثيف الأسود . وفكر بأن لها هيئة ممثلة الدراما . « حتى اني اعرف لمن تشابه . لتلك المرأة متحفظة الرومانية ، التي لعبت دور فيدرا باللغة الفرنسية في حائط الأورانج » . وندم على ابدائه تلك الملاحظة غير المحببة .
— حصل هذا رغم ارادتي ! من الأفضل ألا اثيرها لأشياء صغيرة .

فقال لها مبتسماً :

— اعذريني ، فأنت تعرفين اني متمسك بالطبيعة قديم . لا احب كل هذه المراهم التي تغطي بها نساء اليوم وجوههن لكنني انا المخطيء ، فمن الواجب ان يماشي الانسان عصره .

وابتسمت له أيضاً بتعجب . أشعل السيد داربدا سيكرته وأخذ عدة أنفاس . وبدأ كلامه :

— يا ابنتي الصغيرة ، كنت اريد ان أقول لك حقاً إننا نريد ان نثرث نحن الاثنين ، كما في السابق . هلمي ، اجلسي واصفي لي بلطف ، فمليك ان تثقي بهذا الأب العجوز .

فقالت ايها :

— أفضل ان أبقى واقفة . ثم أضافت :

— ما عندك لتقوله لي ؟

فقال السيد داربدا بزيد من الجفاف :

— أريد ان أسألك سؤالاً بسيطاً . إلام سيقودك كل هذا ؟ .

فكرت إيفا مدهوشة :

— كل هذا ؟

— أجل ، كل هذا ، كل هذه الحياة التي ارتضيتها .

وأردف قائلاً :

— اصغي ، لا تظني اني لا افهمك (اصيب بضياغ مفاجيء) . لكن ما تريد ان تقومي به هو فوق طاقة البشر . تريد ان تعيشي بالخيال فقط أليس كذلك ؟ لا تريد ان ترضي بأنسه مريض ؟ لا تريد ان تري بيار كما هو اليوم ، أليس كذلك ؟ ليس لك نظر لغير بيار كما كان في السابق . يا عزيزتي الصغيرة ، يا ابنتي الصغيرة . وتابع السيد داربدا : إنها مخاطرة لا يمكن الاستمرار فيها . خذي ، اريد ان اقض عليك حكاية لم تسمعي بها من قبل : نحن عندما كنا في سابله — دولون ، كان عمرك ثلاث سنوات ، وتعرفت أمك على امرأة جذابة كان عندها صبي رائع . كنت تلعبين على الشاطئ مع هذا الصبي ، كنت لا تزالين صغيرة جداً ، انه خطيبك . وفي باريس شامت أمك ان تعود للقاء تلك المرأة الشابة ، إذ قيل لها أن حادثاً رهيباً قد حصل لها . فولدها الجميل قتل بعد ان صدمته مقدمة إحدى السيارات وقبل لأمك : « اذهبي لمقابلتها ولكن لا تتناولي بأي حال موضوع ولدها فهي لا تريد ان تصدق أنه مات » . وذهبت أمك لتري خلقة شبه مجنونة : كانت تعيش كالو ان ولدها لا يزال على قيد الحياة ، إذ انها تكلمه ، وتضع صحنه على الطاولة . لقد عاشت ستة اشهر على تلك الحال من التوتر العصبي ، ولم تمض هذه الاشهر الستة حتى اقتيدت بالقوة الى مأوى احترازي بقيت فيه ثلاث سنين . وقال السيد داربدا وهو يهز رأسه : لا يا صغيرتي ان اموراً كهذه مستحيلة . كان من الافضل لها ان تعترف بالحقيقة بشجاعة ، فتتالم لمرة واحدة ثم يتصم الزمن ألها . فلا يمكن الا التطلع الى الأمور مواجهة ، صدقيني .

فقالته إيفا ببناء :

— انت مخطيء فأنا اعرف ان بيار ...

ولم تجر الكلمة على لسانها ، فوقفت منتصبه القامة ، ووضعت يديها على
ظهر الكرسي . كان هناك شيء مجذب دميم في اسفل وجهها .

وسأل السيد داريدا مدهوشاً :

— حسناً ... ماذا ؟

— ماذا ؟

— انت ... ؟

فأسرعت إيفا لتقول بهيئة منزعجة :

— أحبه كما هو .

فقال السيد داريدا بقوة :

— ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً : انت لا تحبينه ، ليس بإمكانك
ان تحبيه . ليس بالإمكان الشعور بعاطفة الاتجاه إنسان سليم وطبيعي .

« ان لديك بعض المهاللة لبيار ، ولا أشك بذلك ، كما لا بد وانك تحافظين
على ذكرى السنوات السعيدة الثلاث التي امضيتها معه . ولكن لا اقول انك
تحبينه ، فلن اصدقك » .

ظلت ايضاً بكاء وحدجت السجادة بنظرة نائمة . فقال السيد داريدا
بهزود :

— ولا تظني ان هذا الحديث لا يؤلمني بقدر ما يؤلمك :

— ولكنك لن تصدقني .

فقال وقد ضاق ذرعاً :

— حسناً ، اذا كنت تحبينه فان هذا وبال عليك ، وعلي وعلى امسك
المسكينة وسأقول لك شيئاً كنت افضل اخفاه . لن تمر ثلاث سنوات حتى
يصبح بيار مجنوناً كاملاً ، وستحول الى حيوان .

وحدج ابنته بنظرات قاسية ، لقد كرهها لانها ارغمتها بعنادها على الاعتراف لها بهذا الأمر الخطير .

ولم تتحرك ايضاً وبدون ان ترفع ناظرها :

— اعرف ذلك .

فسأل مشدوها :

— ومن قاله لك ؟

— فرانشو . فأنا اعرف ذلك منذ ستة اشهر . .

فقال السيد داريدا بمرارة :

— وانا الذي قلت له ان يسارك .

«ولكن ، لعل هذا افضل . ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن ان نغفر لك الاحتفاظ ببيار في بيتك . فالكفاح الذي كرسست نفسك من اجله سيكتب له الفشل ، ففرضه لا يغفر . فاذا كان عليك ان تفعل شيئا ، واذا كان بالامكان انقاذه بالعناية ، فلا اعترض . ولكن انظري قليلا : كنت جميلة ذكية مرحة ، وانت تدمرين حياتك مختارة وبغير فائدة . حسنا ، أفهم انك مدعاة للاعجاب ، ولكن ها انت قد قتت برأيتك على اكمل وجه بل أكثر من واجبك . ومن العار أن تصرى على رأيك في الوقت الحاضر ، فعلى المرء واجبات تجاه نفسه يا ابنتي . ثم ألا تفكرين بنا » .

وأضاف وهو يشد على الكلمات :

— «يجب» عليك ان ترسلي بيار الى عيادة فرانشو ، ثم تتركي هذه الشقة التي لم تجلب لك سوى العذاب وتعودي الى بيتنا . واذا كنت راغبة بأن تكوني مفيدة وأن تسلي عن آلام الغير ، فعليك بأهلك . ان المسكينة تحت عناية الممرضات وهي بحاجة لأن ترى بشراً حولها . وأضاف :

— وهي — هي بإمكانها ان تقدر ما تقومين به من أجلها وتكون لك شاكراً .

ومضى وقت طويل . وسمع السيد داريدا بيار يغني في الغرفة المجاورة .
بالكاد كان صوته غناء فهو نوع من السرد الحاد العصبي ، ورفع السيد
داريدا نظره نحو ابنته :

— اذاً ، لن تقبلي ؟

فقال برفق :

— سيظل بيار معي ، فأنا على اشد ما تكون المفاهمة معه .

— شريطة القيام بأعمال حيوانية طيلة النهار .

فابتسمت إيفا وحدجت أباهما بنظرة ساخرة شبه فرحة . وفكر السيد
داريدا بغضب : « صحيح » ، فهذا لا يعملان اكثر من هذا : ينامان في
فراش واحد .

فقال وهو ينهض :

« انت مجنونة كاملة » .

فابتسمت بكآبة متممة وكأنها تحدث نفسها :

— ليس كثيراً .

— ليس كثيراً ! لا أستطيع ان اقول لك سوى شيء واحد يا ابنتي ،

أنت تخيفيني .

وقبلها على عجل وانصرف . وفكر وهو ينزل الدرج :

« من الاجدر ان ارسل لها رجلين ضخمين يقتادان تلك القذارة المسكينة

ويضعانها تحت مصب المياه دون اخذ رأيها » .

كان يوماً هادئاً من أيام الخريف ، ليس فيه من غرابة . والشمس تستطع في

وجوه المارة . دهش السيد داريدا لبساطة تلك الوجوه فمنها الأسمر الحسن

ومنها الناعم ، لكنها كانت تعكس السعادة والهموم التي ألغها . وقال في نفسه

وقد استلم جادة سان جرمان :

« اعرف بوضوح تام ما آخذه على ايفا ، لم يعد بيار كائناً بشرياً : فبكل ما توليه من عناية وتهبه من حب أراها تحرم هؤلاء البشر الآخرين . فليس بإمكان المرء ان يتخلى عن بني الانسان » .

كان يراقب المارة بحجة : يعشق نظراتهم الوقورة الصافية . ففي هذه الشوارع المشمسة وبين البشر بإمكان المرء ان يكون مطمئناً ، كما لو في عائلة كبيرة .

وتوقفت احدى النسوة أمام الأشياء المعروضة في الهواء الطلق ، كانت تمسك بيدها بنتاً صغيرة .

فسألت البنت وهي تدل على جهاز الراديو :

— ما هذا ؟

فقالت أمها :

— لا تلمسي شيئاً بيدك ، انه جهاز ، يحدث موسيقى .

وظلنا للحظة ساكتتين ، وفي غمرة السعادة .

فانحنى السيد داربدا وقد رق قلبه — نحو البنت الصغيرة وابتمس .

- ٢ -

« لقد ذهب » . وكان باب المدخل قد أقفل بقرعة جافة . وإيفا وحدها في غرفة الاستقبال : « أودّ أن يموت » . وتشنجت يداها على ظهر الكرسي ، إذ تذكرت عيني أبيها . كان السيد داربدا قد انحنى فوق بيار وقال له : « أليذ هذا ! » وكأنه يتقن الحديث إلى المرضى . نظر إليه ، فارتسم وجهه بيار في قعر عينيه . « انا اكرهه » عندما أفكر بأنه يراه » .

وانزلت يدا إيفا على طول الكنبه ، واتجهت نحو النافذة . كانت مشدوّهة . فالغرفة تسطع بالشمس ، فالشمس في كل مكان فيها : على السجادة ذات الدوائر ، وفي الهواء ، كقباب يعمي الأبصار . لقد فقدت إيفا تعودها على الضوء القوي ، الذي يصل إلى كل مكان ويخترق جميع الزوايا ، يلامس الأثاث فيجعله يلمع . وتقدمت مع ذلك نحو النافذة ورفعت ستار القماش الذي يتدلى فوقها . في نفس اللحظة ، كان السيد داربدا يغادر البناية ؛ فلمحت إيفا فجأة كتفيه العريضتين . ورفع رأسه ونظر إلى السماء مغمضاً عينيه ثم ابتعد بخطى واسعة وكأنه رجل شاب . وفكرت إيفا : « انه يجهد نفسه » . لم تكن لتكرهه أبداً : لم يبق في هذا الرأس من أشياء كثيرة ، إذ لا يكاد اهتمامه بالبقاء شاباً يظهر عليه . لكن الغضب عاد واستبد بها عندما شاهدته ينعطف نحو جادة سان جرمان ومن ثم يختفي . « انه يفكر ببيار » . فالقليل

من حياتها فرّ خارج الغرفة المقفلة ليتהלّك في سيره عبر الشوارع ، وفي الشمس ،
وبين الناس .

« أليس بالإمكان قط أن ينسونا ؟ » .

كانت طريق بالك شبه مقفرة . امرأة عجوز تعبر الشارع على مهل ، وتمر
ثلاث فتيات يتضاחקن . ثم رجال ، رجال أقوياء وقورون يحملون حقائبهم
ويتبادلون الحديث وفكرت إيفا : « البشر العاديون » ، وقد ادهشها ان ترى في
نفسها تلك المقدرة على الكره . وركضت امرأة جميلة حمينة أمام سيد أنيق .
فأحاطها بذراعيه وقبلها في فمها . ضحكت إيفا ضحكة قاسية وأسدت
الستار .

كان بيار قد انقطع عن الغناء ، لكن زوجة الثالث جلست الى البيانو ؛
تعرف قطعة لشوبان . وشعرت إيفا بأنها أكثر اطمئناناً ؛ وخطت خطوة نحو
غرفة بيار ، لكنها توقفت فجأة وأسندت ظهرها الى الحائط بشيء من القلق ؛
اذ في كل مرة كانت تغادر فيها الغرفة ، يدب في نفسها الذعر عند فكرة
العودة اليها ثانية . إلا انها تعرف أنه لم يكن بوسمها العيش في مكان آخر ؛
كانت تحب الغرفة . وجابت ببصرها بفضول بارد تلك الغرفة التي لا ظلال
لها ولا رائحة حيث كانت تلتظر عودة شجاعتها ، وكأنها تريد ان تكسب
قليلاً من الوقت . « ليقال انها عيادة طبيب الأسنان » : فكئبات الحرير
الوردي ، والديوان ، والطاولات كانت صبورة متكئمة ، على شيء من الأبهة
فهو من الأصدقاء الطيبين للإنسان . وتصورت إيفا ان رجالاً وقورين عليهم
ألوان فاتحة ، يدخلون قاعة الاستقبال ويستأنفون حديثاً كانوا قد بدأوه . لم
يسمهم الوقت لكي يتعرفوا على المكاث ، اذ تقدموا بخطى ثابتة الى وسط
الحجرة . وكان واحد مثلهم ، يمر يده وراءه ، يلامس عند مروره الطناقص
والأغراض والطاولات ، فلا يرتعد لاحتكاكه بها . واذا وقعت في طريقهم
قطعة أثاث ، كان يعمد هؤلاء الرجال الرزينون لازاحتها من مكانها ، بدون

أن يأخذوا عناء الابتعاد عنها . وجلسوا أخيراً ، وهم لا يزالون غارقين في مباحثاتهم ، حتى بدون أن يلقوا نظرة الى الوراء . ففكرت إيفا : « انها قاعة استقبال للبشر العاديين » وثبتت نظرها بالباب المقفل والقلق يضغط على حنجرتها : « عليّ ان اذهب . فلن اتركه وحده لهذه المدة الطويلة » . كان عليها ان تفتح الباب ، ثم تقف في العتبة ، محاولة ان تعود عينها على خيال الظل ، فتدفعها الغرفة بكل قواها . وكان على إيفا ان تنصر على تلك المقاومة وان تدخل الى قلب الغرفة . فجأة اعتراها ميل عنيف لمشاهدة بيار ، وأرادت ان تشاطره الهزء من السيد داريدا . لكن بيار لم يكن بحاجة اليها ؛ ولم تتصور إيفا نوع اللقاء الذي يعدّه لها . وفجأة فكرت بنوع من الفخر انه لم يبق لها محل في اي مكان . غير اني لا استطيع المكوث ساعة بصحبته . أنا بحاجة لأعيش هناك ، من زاوية الجدار الثانية . ولكنهم لا يريدوني هناك .

وحصل تغير عميق فيما حولها . لقد شاخ الضوء ، واصبح لونه داكناً : وتناقلت إيفا ، كالماء في اناء الزهور حين لا يتغير منذ البارحة . وعلى الاشياء وفي هذا الضوء المعجوز ، رأت إيفا من جديد تلك الكتابة التي كانت قد نسيته منذ وقت طويل ، كتابة بعد ظهر يوم من أيام خريف مضى . كانت تنظر فيما حولها مترددة خجولة : كل هذا كان بعيداً جداً : ففي الغرفة ليس هناك نهار أو ليل ، ولا فصل ولا كتابة . وتذكرت بفسير وضوح فصول الخريف السابقة ، فصول خريف طفولتها ، ثم جدت في مكانها فجأة ، كانت تخشى الذكريات .

وسمعت صوت بيار .

فصاحت :

— ها أنا آتية .

وفتحت الباب ودخلت الغرفة .

لقد ملأت رائحة البخور أنفها وقمها ، بينما أغضت عينيها ومدت يديها
الى الأمام - أصبحت الرائحة والظل يعينها عنصراً واحداً كالماء أو النار - تقدمت
بجذر نحو لطخة يبدو أنها طافية في الغمام . كانت اللطخة وجه بيار : فشا به
(و بيار مذ مرض بات يرتدي لباساً أسود) قد ذابت في العتمة . كان بيار
قد قلب رأسه الى الوراء وأغض عيني . إنه جميل . نظرت ايفا الى ريفه
الطويل المقوس ، ثم جلست الى جانبه على الكرسي الواطئة . وفكرت في
نفسها : « يبدو أنه يتألم » . بدأت عناها تألفان الظل شيئاً فشيئاً . فظهر
المكتب أولاً ، ثم السرير ، ثم اشياء بيار الشخصية ، والملصق ، والكتب التي
كانت على الارض قرب الكنية .

« أغاثا ؟ »

فتح بيار عيني ونظر اليها باسمياً . وقال :

- اتردين قصة الشوكة ؟ قمت بذلك لأخيف الرجل . فلم يكن ينقصها
شيء تقريباً .

فتبددت مخاوف ايفا وضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

- لقد نجحت نجاحاً هائلاً ، فجعلته يخاف خوفاً شديداً .

وابتسم بيار .

- أرايت ؟

داعبها هنية وأمسكها بكليتي يديه . وقال : ان ما هناك ، انهم لا يحسنون
أخذ الأشياء فهم يضعونها في قبضتهم .

فقالت ايفا :

- هذا صحيح .

ونقر بيار قليلاً على باطن يده اليسرى بسبابة يده اليمنى .

« فهذه يلتقطون . يقررون اصابعهم وما ان يلتقطوا الشيء حق يضعوا

راحة يدهم فوقه ليخنقوه »

كان يتحدث بصوت سريع وبطرف شفتيه :
يبدو انه مختار . وقال في الختام :

— أتساءل عما يريدونه . لقد أتى هذا الرجل . لماذا أرسلوه الي ؟ فاذا أرادوا ان يعرفوا ما اعمل ، فليس عليهم سوى ان يقرأوه على الشاشة ، فليسوا بحاجة حتى للتحرك من أماكنهم . انهم يرتكبون الأخطاء . لديهم القوة ولكنهم يرتكبون الأخطاء . أما انا فلا اخطئ ابداً ، وهذا هو رصيدي . ثم قال : — هوفكا هوفكا . كان يحرك يديه المدينتين أمام جيبته :

— العاهر ! هوفكا بافكا سوفكا . هل تريدان اكثر من هذا ؟
فسألته ايها :

— هل هذا هو الجرس ؟

وأردف بصراحة :

— نعم . انها ذهبت .

— هذا الرجل متخلف . انت تعرفينه ، وذهبت معه الى قاعة الاستقبال . ولم تجب .

فسأل بيار :

— ما كان يريد ؟ لا بد وأن يكون قد قاله لك .

فترددت لحظة ثم أجابت بعنف :

— كان يريد ان ننقل عليك .

عندما تقال الحقيقة على مسمع بيار بهدوء ، كان شديد الحذر ، اذ يجب أن يضرب بالحقيقة بعنف كي تنشل شكوكه . كانت إيفا تفضل أن تعنفه على ان تكذب عليه . فاذا كذبت وصدقها ، لم تكن لتتالك نفسها دون

شعور بسيط ، بالتفوق عليه ، يجعلها تشمئز من نفسها .

وكرر بيار بسخرية :

— أن يقفل علي . انهم يفقدون جادة الصواب . وما يمكن لهذا أن يصنع بي ، بين الجدران ؟ لعلمهم يمتقدون بأن هذا يوقفني . أتساءل أحياناً هل هناك عصابتان ؟ الصحيحة هي تلك التي تلتسب للزنجي . ومن ثم عصابة مسودات تسعى لحشر أنفسها في القضية فترتكب السخافة تلو السخافة .

ورقص يده على ذراع الكنبه ونظر اليها باغتباط ثم سأل بعد ان أستدار نحو إيفا بفضول :

— الجدران ، بالامكان اختراقها . فماذا أجبته ؟

— أنه لن يصار الى إدخالك المأوى .

فهرز كتفيه .

— لم يكن ينبغي ان تقولي هذا ، انت أيضاً ارتكبت غلطة إذا لم تكوني قد تعمدتها . ينبغي ان يستنفدوا لعبتهم .

وسكت . فأخفضت إيفا رأسها بجزن : « يقبضون عليهم ! » فبأي لهجة احتقار قال هذا ، ومكان صحيحاً . « وهل اقبض انا ايضاً على الاشياء ؟ مها راقبت نفسي ، أظن ان غالبية حركاتي تؤذيه . ولكنه لا يفصح بذلك . شعرت عندئذ بأنها بائسة ، كما كانت عليه في سن الرابعة عشرة وان السيدة داربدا المليئة بالحيوية والخفة تقول لها :

« سيظن بأنك لا تدرين ما تفعلينه بيدك » .

لم تكن تتجراً على القيام بأية حركة وفي تلك اللحظة تماماً شعرت برغبة لا ترد بتغيير وضعها . وأعدت رجلها يهدوء الى تحت الكرسي ، وبدون ان تلامس السجادة . كانت تنظر الى المصباح على الطاولة — المصباح الذي طلي

بيار ركيزته بالأسود ورقعة الشطرنج . على الرقعة لم يترك بيار سوى القطع السوداء . كان ينهض أحياناً ويذهب الى قرب الطاولة فيأخذ الجنود واحداً واحداً بين يديه . يحدثهم ، يطلق عليها اسم الأشخاص الآليين ، فيبدون وكأن الحياة قد أسبغت عليها بين أنامله . وعندما يضع الجنود من يده ، كانت أيفاً تذهب لتلامسهم بدورها (كان يتبها لها انها مضحكة) : فعادت الجنود قطعاً من الخشب الميت ، ولكن شيئاً ما مبهماً لا يمكن التقاطه ظل يكسوها ، شيئاً يشابه المعنى . وفكرت في نفسها : « انها اشيأه . لم يبق لي شيء في الغرفة » . كانت تملك بعض الأثاث في السابق . كالأرآة والمنضدة التي أتتها من جدتها والتي كان بيار يسميها بمآزحاً : منضدتك . لقد جر بيار الأشياء وراءه . وله وحده تظهر الأشياء وجهها الحقيقي . كان بإمكان أيفاً ان تنظر الى الأشياء طيلة ساعات ، والأشياء تأبى الا ان تبدي سوى مظاهرها - كما هي الحال بالنسبة للدكتور فرانشو والسيد داربدا . وقالت بنفس مأوها القلق : « غير اني لا أرى الاشياء بمنظار أبي . فليس يمكننا أن نستطيع رؤيتها كما يراها هو » .

وحركت ركبته قليلاً ، فقد تخدرت ساقها . كان وجهها جامداً متقلصاً فهو يؤذيها ، إذ تراه شديد الحيوية ، غير كتوم :

« أود ان أظل غير مرئية وأبقى هنا . أراه بدون ان يراني . فليس بحاجة إلي ، فأنا متطفلة في الغرفة » . وأدارت رأسها قليلاً ونظرت الى الجدار فوق رأس بيار . على الحائط كتبت التهديدات . وإيفسا تعرف ذلك ولكنها لم تكن تستطيع ان تقرأها . غالباً ما هي تنظر الى الورود الكبيرة الحمراء على سجادة الحائط ، حتى تتراقص أمامها تلك الورود . وتلتهب الورود في الظل . ويكون التهديد أكثر ما يكون مسجلاً قرب السقف ، الى اليسار فوق السرير ، لكنه يتنقل في بعض الأحيان . « ينبغي ان انتفض . لا أستطيع - لا أستطيع ان اظل جالسة لوقت أطول » . وعلى الجدار ايضاً

إطارات بيضاء تشابه قطع البصل . وتدور الاطارات على نفسها فتأخذ يدا
ايفا بارتجاف وتفكر بمرارة :

« هناك لحظات أصبح فيها مجنونة . ولكن لا ، ليس بإمكانني أن أصبح
مجنونة . بل ثور ثائرتي فقط » .

وفجأة شعرت بيد بيار فوق يدها . ويقول بيار بحنو :
- أغاتا .

كان يتسم لها لكنه يأخذ يدها بطرف اصابعه بنوع من النفور ، وكأنه
يلتقط سرطاناً من ظهره يريد ان يتجنب ملاقطه . ويقول :
- أغاتا ، أريد ان أثق بك كثيراً .

واغمضت إيفا عينيها وارفعت صدرها : « ينبغي ألا تجيب والا سيشعر
بالتحدي فيمسك عن الكلام » .

وآرخی بيار يدها وقال لها :

- أحبك كثيراً يا أغاتا ولكن ليس بوسعي ان أفهمك . لماذا تظنين في
الغرفة طيلة الوقت ؟

ولم تجب إيفا .

- قولي لي لماذا .

فقالت يحفاف :

- انت تعرف جيداً بأني احبك .

فيجبها بيار :

- أنا لا أصدقك . فلماذا تحبينني ؟ ينبغي ان أخيفك : فأنا مجنون .

فيبتسم ولكن سرعان ما يعود الى رصانته :

- هناك جدار بيني وبينك . أراك ، أكلّمك ، ولكن في الجهة الأخرى

ما يحول دون حبنا واحدا الآخر ؟ يبدو لي أن هذا كان اسهل في الماضي . في هامبورغ .

فتقول إيفا بحزن :

— نعم .

هامبورغ دائما . لم يكن يتحدث قط عن ماضيها الحقيقي . فلم يكونا يوماً في هامبورغ لا هو ولا إيفا .

— كنا نتزه على طول الأبنية ، وكان هناك قارب ، فهل تتذكرين ؟ والقارب أسود ، وعلى الجسر كلب .

كان يخترع بمقدار . كان غائبا عن الواقع .

— وأخذك بيدي ، جلدك كان مختلفاً . وصدقت كل ما كنت تقولينه لي .

وصاح : « اسكتوا » .

وأصغى هنيهة ثم قال بصوت حزين :

« ها هم قادمون » .

فارتعدت إيفا :

— انهم قادمون ؟ ظننت انهم لن يأتوا بعد اطلاقاً .

ثلاثة أيام ، وبيار أكثر هدوءاً من الماضي . فلم تأت اليه التايل . كانت بيار يخاف خوفاً شديداً من التايل ولم يتفق معها . أما إيفا فلم تكن تخشاه : ولكن ما أن يبدأوا بالطيران في الغرفة مهممين حتى تفزع هي أيضاً من بيار . ويقول بيار :

— اعطيني المجموعة .

وتنهض إيفا وتأخذ المجموعة : كانت مجموعة من قطع الورق المقوى ألصقها بيار بنفسه ، ويستخدمها في طرد التايل ، والمجموعة تشبه العنكبوت .

وعلى إحدى الأوراق كتب بيار : « قدرة على المكيدة » وعلى ورقة أخرى : « أسود » . وعلى ورقة ثالثة رسم رأساً ضاحكاً بعينين مجمعتين : كانت صورة فولتير .

وتناول بيار المجموعة بيده ونظر إليها بوجه معتم . وقال :

— لم يعد بإمكانها ان تخدمني .

— لماذا ؟

— لقد قلبوها .

— ستصنع مجموعة أخرى .

ونظر إليها طويلاً وقال من بين أسنانه :

— تريدني كل الارادة .

وثارث إيفا ضد بيار . في كل مرة يأتون فيها ، يتلقى هو خبراً ، فكيف يتصرف : إنه لا يخطيء أبداً .

كانت المجموعة تتدلى من طرف اصبع بيار . « انه يجد دائماً أسباباً حقيقية لعدم استعمالها . ففي يوم الأحد عندما جاؤوا ، ادعى بأنه أضع المجموعة لكنني كنت أراها بنفسى وراء علبة التنازق وليس ممكناً ألا يراها . فأتساءل ان لم يكن هو الذي يجتذبهم » . لم يكن بالامكان ان نعرف اذا كان مخلصاً حقاً . ففي بعض اللحظات ، كان يتهى لإيفا ان سيلا من الأفكار والرؤى تغزو بيار . ولكن في لحظات أخرى ، كان يبدو لها ان بيار يخترع . « إنه يتألم . ولكن الى اي حد هو يؤمن بالتأليل والتأنجي ؟ التأليل على كل حال ، أنا متأكدة من أنه لا يراها ، فهو يسمعها فقط : فحين تمر يحول رأسه عنها ، ويدعي مع ذلك بأنه يراها ويصفها » . وتذكرت وجه الدكتور فرانشو المائل الى الاحمرار : « ولكن ، يا سيدتي العزيزة ، انت جميع المجانين كاذبون ، فستضعين وقتك إذا أردت ان تميزي بين ما يشعرون به

حقاً وبين ما يدعون الشعور به» . وارتعدت :

« لماذا أتى فرانشو ، لا أريد ان أفكر على غرار » .

كان بيار قد نهض وذهب ليضع المجموعة في سلة الاوراق ، وتمت :
« مثلك أريد ان افكر » كان يمشي بخطى ضئيلة ، على رؤوس أصابعه ،
لكي يحتل أقل مكان ممكن . وعاد الى الجلوس ونظر الى إيفا بوجه مطبق
وقال :

— ينبغي وضع سجادات سوداء فوق الجدران ، فليس في هذه الغرفة
ما يكفي من السواد .

كان قد ارتاح في الكنية ونظرت إيفا بحزن الى هذا الجسد الشحيح ،
المستعد دائماً للانسحاب والانكفاء على نفسه : فذراعاه ، وساقاه ، ورأسه
كانت تبدو كأعضاء قابلة للإنكماش . ودقت الساعة السادسة على الجدار ،
وسكت صوت البيانو . وتنهدت إيفا : لن تأتي التائل في الحال ، كان ينبغي
انتظارها .

« هل تريد ان أشعل النور » .

كانت تفضل ألا تنتظر التائل في الظلام .

فقال بيار :

— افعلي ما شئت .

واشعلت إيفا مصباح المكتب الصغير ، فاجتاح الغرفة ضباب أحمر . كان
بيار ينتظر أيضاً .

لم يكن يتحدث بل ان شفتيه بهحركهما ترسمان بقعنتين مظلمتين في الضباب
الأحمر . إنها تحب شفتي بيار ، فقد كانتا في الماضي مشيرتين مغريتين . لكنها
أصاعتا الأغراء . اذ تنفصل واحدهما عن الأخرى بارتعاس قليل ثم تعود
للالتهام مع رفيقتها ، فتنسحق واحدهما على الأخرى لتعودا فتنفصلان من

جديد . فمها تعيشان وحيدتين في هذا الوجه المسور ، وكأنها حيوانات
وجلان . كان بإمكان بيار أن يجعل شفتيه ترقصان طيلة ساعات بدون أن
يخرج من فمه أي صوت ، ولطالما انبهرت ايضا بتلك الحركة المستمرة .
« أحبّ فمه » . لم يعد يقبلها أبداً . اذ بات يخشى الملامسة . في الليل كان
يلامس ؛ أيدي رجال قاسية جافة تلتقطه في انحاء جسمه . وأيدي نساء ذات
أظافر طويلة تقوم بدغدغته بقذارة . غالباً ما ينام بشبابه ، لكن يديه
تنزلقان تحت ثيابه وتشدان على قميصه . مرّة ، سمع ضحكة ؛ شفتان
منتفختان تلتصقان بشفتيه . منذ تلك الليلة انقطع عن تقبيل إيضا .

وقال بيار :

— أغاثا ، لا تنظري الى فمي !
وأخفضت ايضا عينيها .

وتابع بوقاحة :

— أنا لا أجهل ان بالامكان تعلم القراءة على الشفتين .

كانت يده ترتجف على ذراع الكنبه . ومد سبابته ونقر على الابهام ثلاث
مرات وتشبعت الأصابع الأخرى : كانت عملية مطاردة . وفكرت في
نفسها : « سيبتديء الأمر » . كان يودها ان تأخذ بيار بين ذراعيها .

بدأ بيار بالكلام بصوت عال وبلمهجة لائقة :

— هل تذكرين سان بولي ؟

لا إجابة . لعل هذا فتح .

وقال بوجه مسرور :

— هناك عرفتك . اختطفتك من بحار دانمركي . كدنا نتقاتل ، لكنني
دفعتم ثمن الرحلة وتركني في صحبتك . كل ذلك لم يكن الا مهزلة .

« انه يكذب ، انه لا يعتقد بأية حكمة يقولها . يعرف اني لا أَدعى أغانا . اني اكرهه حين يكذب » . لكنها رأت عينيه الجامدتين وقبّدت غضبها . وفكرت في نفسها : « إنه لا يكذب ، انه متعب . يحس بأنهم يقتربون . ويتحدث كيلا يسمع » . وتعلق بيار بكلتا يديه بذراع الكتبة . كان وجهه شاحباً ، ويبتسم . وقال :

— هذه اللقاءات غريبة أكثر الأحيان ، لكنني لا أؤمن بالصدفة . انا لا أسألك عن أرسلك ، فأنا أعرف انك لن تجيبي . لقد كنت على كل حال لبقة الى حد انك لطختني » .

كان يتحدث بعباء ، وبصوت حاد مضغوط . فهناك كلمات لم يستطع ان يلفظها فتخرج من فمه كادة رخوة لا شكل لها .

« لقد جذبتني في غمرة العيد ، في ميادين السيارات السوداء ، ولكن وراء السيارات جيشاً من العيون الحمراء التي كانت تبرق عندما أدير ظهري . أظن أنك كنت تعطيمهم الاشارات ، وانت تتعلقين بذراعي ، لكنني لم أر شيئاً . كنت مأخوذاً جداً باحتفالات التنويع الكبرى » .

كان ينظر قبالة جاحظ العينين . ومرّ يده على جبينه بسرعة فائقة وبحركة رشيقة وبدون ان يكف عن الكلام : لم يكن يريد الكفّ عن الكلام . وقال بصوت حاد :

— كانت حفلة تنويع الجمهورية ، مشهد مثير في نوعه بسبب الحيوانات المختلفة الأجناس التي أرسلتها المستعمرات من أجل الاحتفال . وخفت ان تضيعي بين القردة .

وتابع بصوت ملؤه الفطرسة وهو ينظر حوله :

— قلت بين القردة . وبماكاني ان أقول بين الزوج ؟ فالحيوانات الجمهضة التي تزحف تحت الرمال وتظن انها ستمضي بغير ان يراها احد

يكتشفها « نظري » ويقضي عليها في الحال . وصاح :

– الأمر هو السكوت . الجميع في مكانهم يتأهبون لدخول التائبيل ، هذا أمر .

ترا لا لا - كان يعوي ويضع يديه معاً امام فمه - ترا لا لا . ترا لا لا .

وسكت ، وعلمت ايها ان التائبيل قد دخلت الغرفة . فجلس جامداً شاحباً باحتقار . وجدت ايها هي الاخرى وانتظر الاثنان بصمت . كان احد الأشخاص يشي في المر . انها ماري ، الخادمة ، ها هي فصل بلا شك . وفكرت في نفسها : « ينبغي أن اعطيها دراهم للغاز » . ومن ثم بدأت التائبيل قطير ، قمر ما بين إيفا وبيار .

وقال بيار : « هان » ، وتكور في كنبته مخبئاً ساقيه تحته . وحول رأسه . كان يهذر من وقت لآخر لكن نقاطاً من العرق تتلألأ على جبينه : لم تستطع إيفا أن تحتمل هذا الحد الشاحب ، وهذا الفم الذي يشوهه تحريكه شذراً . وأغمضت عينيها . بدأت خيوط مذهب تراقص في قمر جفنيها . وأحست بأنها عجوز كبيرة الوزن . وعلى مسافة غير بعيدة ، كان بيار ينفخ بجلبة . « انهم يطيطون ، يهدرون ، ينحنون فوقه ... » وشعرت بدغدغة خفيفة ، وبانزعاج في الكتف والخاصرة اليمنى . وبحركة غريزية الحنى جسمها نحو اليسار كما لو انها تتجنب ملامسة مزعجة ، او كأنها تفسح المجال لشيء ثقيل أخرق . وفجأة قرقع السقف ، وأحست برغبة مجنونة لفتح عينيها ، والنظر الى يمينها وهي تكنس الهواء بيدها .

ولم تفعل شيئاً . بل أبقّت على عينيها مغمضتين وارتعشت في سرور جاف . وفكرت في نفسها : « أنا ايضاً أخاف » . وانحنى نحو بيار ، بدون ان تفتح عينيها . إذ بكفها مجهود بسيط حتى تدخل في هذا العالم الرهيب لأول مرة . وفكرت في نفسها : « أنا أخشى التائبيل » . كان تأكيداً عنيفاً

أعمى ، أو سحراً : أرادت بكل قواها ان تشعر بوجودهم . والقلق الذي يشل جهتها اليمنى ، حاولت ان تجعل منه نوعاً من اللمس . وفي ذراعها ، وفي خاصرتها ، وفي كتفها ، شعرت ببرورهم .

كانت التآليل تطير على علو ضئيل ، وتهدر . وإيفا تعلم أن تلك التآليل خبيثة ولكنها أساءت تصورها . وتعلم أيضاً انها لم تكن حية تماماً ، بل ان قطعاً من اللحم والقشر تظهر على أجسامها الضخمة . وعلى طرف اناملها كان الحجر يتقشر ، وراحات ايديها تأكلها . لم تكن ايفا تستطيع ان ترى كل هذا : فهي تفكر فقط ان نساء شدييدات الضخامة ينزلن عليها بعين انسانية « ها هي التآليل تنحني فوق بيار » وبذلت ايفا مجهوداً عنيفاً الى حد ان يديها أخذتا ترتعشان . « انها (التآليل) تنحني فوقي » . وجمدها في النهاية صوت رهيب . « لقد لامسوه » . وفتحت عينيها : كان بيار يضع رأسه بين يديه ، وهو شديد الاعياء . وأحسّت ايفا بأنها منهكة ، وفكرت بندم : « انها لعبة . لم تكن سوى لعبة » لم أوّمن بها ولو لحظة واحدة . كانت تتألم طيلة هذا الوقت ، كما لو انها صحيحة .

وارتاح بيار وتهدأ بقوة . ولكن حدقتيه ظلتا ممدتين بشكل غريب ، كان العرق يتصبب منه . وسأل :

— هل رأيتهما ؟

— ليس بإمكانني أن أراها .

فقال :

— هذا افضل بالنسبة اليك . أما انا فقد تعودت .

كانت يدا ايفا لا تزالان ترتجفان ، ودمها يتصاعد الى الرأس . وتناول بيار سيكارة من جيبه ورفعها الى فمه . لكنه لم يشعلها وقال :

— لا فرق عندي اذا رأيتهما . ولكن لا اريد ان تلامسني : أخشى ان تنبت لي بثوراً .

وفكر لحظة ثم سأل :

— وهل سمعتها ؟

فقال ايها :

— نعم ، انها كمحرك الطائرة (قالها لها بيار بنفس العبارة يوم الأحد الماضي) .

وابتسم بيار بنوع من التنازل وقال :

— انك تبالغين . لكنه ظل شاحب الوجه . وتطلع الى يدي ايها : « يداك ترهقان . لقد أثر هذا في نفسك يا أغاثا المسكينة . ولكن لا حاجة لك لافساد دمك : فلن تعود قبل الغد (التائبيل) » .

لم تكن تستطيع الكلام ، ان أسنانها تصطك وتحشى ان يلاحظ بيار ذلك . ونظر اليها بيار طويلاً . وقال وهو يومئ برأسه :

« انت جميلة بقوة ، يا للخسارة . يا للخسارة حقاً . »

ومد يده ولامس أذنها بسرعة .

— يا شيطاني الجميلة ! انك ترعجيني قليلاً ، انت جميلة جداً : وهذا ما ما يسليني . إذا لم يكن الأمر استعادة ... »

وتوقف ثم نظر الى إيها بدهشة وقال بوجه غامض :

— ليس بهذه الكلمة ... ها قد أتت ... ها قد أتت . كانت عندي الكلمة الأخرى على رأس لساني ... وتلك ... حلت في مكانها . ونسيت ما كنت أقوله لك .

وفكر لحظة ثم هز رأسه وقال :

— هلي ، أريد أن أنام ، وأجاب بصوت كصوت الطفل : « هل تعرفين يا أغاثا ، أنا متعب . لم أعد اجد افكاري » .

ورمى سيكارتته ونظر الى السجادة بوجه مضطرب . ووضعت ايضاً له مخدة تحت رأسه .

فقال لها وهو يغمض عينيه :
- بإمكانك ان تنامي أيضاً ، فلن تعود .

« استعادة » . كان بيار نائماً ، على وجهه نصف ابتسامة ساذجة . يحني رأسه : يقال أنه يريد ان يجعل خده يلامس كتفه . لم تكن ايفا راغبة في النوم ، كانت تفكر : « استعادة » . واتخذ بيار فجأة شكلاً حيوانياً وسالت الكلمة خارج فمه طويلة مائلة للبياض . كان قد تطلع أمامه بدهشة كما لو انه يرى الكلمة ولا يتعرف عليها . فمه مفتوح رخو فكأن شيئاً قد تحطم فيه . « لقد دندن بسرعة . هي المرة الأولى التي يحصل له فيها أمر كهذا وقد انتبه لذلك على كل حال . قال انه لم يعد يجد أفكاراً » . أرسل بيار زفرة شهوانية ، وقامت يده بحركة خفيفة . نظرت اليه إنفا بقساوة : « كيف سيستيقظ ؟ » كان هذا يعذبها . فيما ان ينام بيار حتى تضطر للتفكير به ، وليس بإمكانها ان تحول دون ذلك . انها تخشى ان يستيقظ بعينين مضطربتين وان يدندن . وفكرت في نفسها : « أنا بلهاء ، لن يبدأ الأمر قبل سنة هكذا قال فرانشو » . لكن القلق لم يفادرها ؛ عام ؛ فشتاء ، فربيع ، فصيف فبداية خريف آخر . ذات يوم ، ستتشوه هذه الملامح ، سيتهدل فكه ، وسيفتح عينيه الدامعتين قليلاً . واتخذت ايفا على يد بيار ووضعت شفتيهما فوقها : « سأقتلك قبل ان يتم ذلك » .

اروسنرات

البشر ينبغي ان نراهم من فوق . كنت اطفئ النور واجلس في النافذة : لم يكونوا ليشتبهوا بأن احداً ينظر اليهم من فوق . هم يعتقدون أحياناً بالواجبة ، وبالجهات الخلفية ، ولكن جميع تأثراتهم كانت محسوبة بعين المشاهدين من قياس مئة وسبعين . فمن فكر اذا بشكل القبة الصفراء ، كما تبدو من الطابق العاشر ؟ انهم يملون الدفاع عن أكتافهم وجانهم تحت الألوان الفاقعة والأقمشة البارزة اللون ، ليس بإمكانهم أن يقضوا على كل هذا العدد الكبير للانسانية : التطلع من فوق . وانحنيت واخذت اضحك : أين هي تلك « المحطة الواقفة » التي فضروا بها : كانوا ينسحقون على الرصيف وتخرج من بين أرجلهم سيقان طويلة ترحف تحت أكتافهم .

في شرفة الطابق السادس : هناك كان ينبغي أن أقضي كل حياتي . كما ينبغي أن نسند مجالات التفوق المعنوي بشعارات رمزية ، لأنها ستسقط بدون ذلك . اذاً ، ما هي بالضبط مجالات تفوقي على البشر ؟ تفوق في الوضعية ليس إلا : وضعت نفسي فوق الانسان ، الذي هو في داخلي وأصبحت اقفرج عليه . لهذا كنت احب ابراج نوتر دام ، وسطيحات برج إيفل ، والقلب الأقدس ، وطابقي السادس في شارع دلامبر . إنها رموز رائعة .

كان ينبغي في بعض الأحيان النزول الى الشوارع . للذهاب الى المكتب مثلاً . كنت اختنق . عندما تمضي مع البشر ، فمن الصعب كثيراً ان نعتبرهم كالنمل : إنهم « مؤثرون » . مرة ، شاهدت شخصاً ميتاً في الشارع . سقط على أنفه . قلبوه ، فرأوا الدماء تنزف منه . ورأيت عليه المفتوحتين ووجهه

الدميم ، وكل هذا الدم . وقلت في نفسي : « ليس هذا بذئ شأن ، فليس أكثر تأثيراً من الدهان الجديد . لطخوا أنفه بالأحمر ، هذا كل شيء » . لكنني احسست بعذوبة قدرة تتسرب الى رجلي ورقبتي ، فأغمي علي . اقتادوني الى صيدلية ، ووضعوا لزقات على كتفي وسقوني كحولاً . كنت سأقتلهم . أعرف انهم أعدائي ، ولكنهم لا يعرفون ذلك . كانوا يحبون بعضهم ، ويشدون على مرافق بعضهم البعض . لعلمهم ضربوني بقبضة يد من هنا وهناك لأنهم ظنوا بأنني شبيه لهم . غير انهم لو أدركوا أقل جزء من الحقيقة ، لقتلوا عليّ . ولقد قضاوا عليّ فيما بعد على كل حال . عندما القوا القبض عليّ وعرفوا من أنا ، ضربوني لمدة ساعتين في دائرة الشرطة ، وصفعوني ولكوني ، وجعلوا ذراعي تلتوي ، وانتزعوا سروالي ، ومن ثم ولكي ينتهوا رموا بنظاري على الأرض ، ولما هممت بتناولها على أربع ، أمعنوا بركلي من الخلف ضاحكين . توقعت دائماً انهم سينتهون الى القضاء عليّ : أنا لست قوياً وليس بإمكانني ان أدافع عن نفسي . كثيرون كانوا يتربصون بي منذ وقت طويل : الكبار . يدفعونني في الشوارع ليضحكوا او ليروا ما سأقوم به ، لم أقل شيئاً . وتظاهرت بعدم الفهم . ومع ذلك نالوا مني . كنت أخشاهم : وهذا شعور مسبق . ولكنكم تعتقدون تمام الاعتقاد ان لديّ اسباباً أخرى تدفعني الى أن اكراههم .

من هذه الجهة ، سار كل شيء على ما يرام بعد ان ان اشتريت مسدساً . يحس المرء بقوته عندما يحمل باستمرار شيئاً من تلك الأشياء التي تنفجر أو تحدث ضجة . كنت آخذهُ يوم الاحد ، وأضعه في جيب سروالي ثم أذهب لاتنزه — عادة في الشوارع العريضة . فأحس به ينطلق من جيب سروالي كالسرطان ، وأشعر به يضغط على فخذي ، ببرود كلي . لكنه يسخن شيئاً فشيئاً باحتكاكه بجسدي . ومشيت بنوع من الجمود ، مشية الشخص الذي يشد سرواله دائماً . ومددت يدي الى جيبي وتحسست « الغرض » . كنت ادخل من وقت لآخر الى المراض — وحتى في المراض كنت اتلبه فغالباً

ما يكون بجوارى أحد من الناس. كنت اخرج مسدسي وأروزه، واطلع الى قبضته ذات المربعات السوداء وزفاده الأسود الذي يشبه جفناً شبه مغمض. والآخرى، أولئك الذين يرون من الخارج ، رجلي المتباعدتين وقعر سروالي ، كانوا يظنون اني ابول . ولكنني لا ابول ابداً في المراحيض العامة .

ذات مساء اتتني فكرة اطلاق النار على البشر . كان ذلك في يوم السبت. مساء ، خرجت لكي ابحت عن ليا ، وهي شقراء تداوم على الوقوف أمام احد الفنادق في مونبارناس . لم اكن قد اقيمت علاقات وثيقة بامرأة قط : فأحسست بأنني 'سُرقت' . صحيح أننا نعتلين ، ولكنهن يفترسن أسفل بطنك بفهم الواسع المكسو بالشعر ، فهن اذاً على ما سمعت ، اللاتي يرجحن من هذه المبادلة . انا لا اطلب شيئاً الى أي انسان ، غير اني لا أريد ان اعطي شيئاً. أو انه ينبغي أن تكون لي امرأة باردة تقيمت تتقبلني بأشمتراز. في اول سبت من كل شهر كنت اصعد مع ليا الى غرفة في فندق دوكان. كانت تخلع ثيابها ، فأنظر اليها بدون ان ألامسها . في بعض الاحيان كنت ابلغ ذروة اللذة في سروالي ، واحياناً اخرى كان لدي الوقت الكافي للعودة الى منزلي حتى انتهي. هذا المساء ، لم أجدها في مكتبها . وانتظرت لحظة ، ولما لم تأت ، افترضت انها مصابة بالزكام . كان الوقت في بداية كانون الثاني والطقس شديد البرودة ، حزنتم كثيراً : فأننا خيالي ، وتمثلت اللذة التي توقعت ان اجتلبها في تلك الأمسية . في شارع أوديسا تقف احدى السراوات ، وكنت قد لاحظت وجودها في اكثر الأحيان ، انها شديدة النضوج ، لكنها صلبة وثمينة . أنا لا أكره النساء الناضجات : لكنهن عاريات ، او انهم يبدن كذلك فوق اللزوم . غير انها لم تكن تدري شيئاً عني ، وهذا ما كان يجعلني أخجل منها . ثم اني احذر المعلومات الجديدة : اذ ان بإمكان أولئك النسوة ان يخبئن لصاً وراء الباب ، لا يلبث ان يستولي على دراهمك . هذا اذا لم يرسل لك اللكيات . غير ان شيئاً ما كان يأخذني في تلك الأمسية فقررت ان امر بمنزلي لآخذ المسدس وأقوم بالمغامرة .

لما دخلت على المرأة ، وبعدها بربع ساعة ، كان مسدسي لا يزال في جيبى ، ولم أخش شيئاً. والناظر إليها من قريب يدرك أنها أقرب الى البؤس. انها تشبه جارتي في البيت المقابل ، اي زوجة نائب الضابط ، سررت لذلك لأنني تمنيت منذ وقت طويل ان اراها عارية . كانت ترتدي ثيابها والنافذة مفتوحة في غياب نائب الضابط ، وكنت ابقى وراء الستار كي اباغتها. لكنها تقوم بزيئتها في قعر الغرفة .

في فندق ستيل لم يبق سوى غرفة فارغة . وصعدنا . كانت المرأة ثقيلة تتوقف عند كل درجة ، لتتنفس. وكنت مرتاحاً جداً : لأن جسمي جاف رغم بطني الدافق ، إذ يلزمي أربعة طوابق لأتعب كثيراً . على درج الطابق الرابع توقفت ووضعت يدها اليمنى على قلبها وتنهدت بقوة . بيدها اليسرى كانت تحمل مفتاح غرفتها . وقالت محاولة ان تبتسم لي : « المكان شاق » . اخذت المفتاح من يدها بدون ان اجيب وفتحت الباب . كنت احمل مسدسي بيسراي ، مصوباً الى الامام في جيبى ، ولم اتركه الا بعد ان اضاءت النور . الغرفة خاوية . وعلى المغسلة وضعوا مربعاً صغيراً من الصابون الأخضر . وابتسمت : لم تكن قطعة الصابون مفيدة بالنسبة الي . لا تزال المرأة تلهث ورائي وهذا ما يهيجني . واستدرت ، فمدت لي شفتيها . فدفعتها عني وقلت لها :

— اخلي ثيابك .

كانت هناك كنبه عليها طنافس فجلست عليها مرتاحاً . في مثل تلك الأحوال لا اقدم على التدخين . وخلعت المرأة فستانها ثم توقفت وهي تنظر الى نظرة حذرة .

وسألتها وانا ارتقي الى الورااء :

— ما اسمك ؟

— رينيه .

— حسناً ، عجلي يا رينيه ، اني اذتظر

— ألا تتعري ؟

فقلت لها :

— اذهبي ، اذهبي ، لا تهتمي بي .

وانزلت سرواها حتى رجليها ثم التقطته ووضعت بهناية فوق فستانها الى جانب صدرتها .

وسألتني :

— انك مذنب صغير ، يا عزيزي ، وكسول صغير . هل تريد ان تقوم امرأك الصغيرة بالعمل كله ؟

وفي نفس الوقت ، اقتربت مني خطوة ، وحاولت ، وهي تسند يديها على جانبي الكتبة ، ان تركع بين فخذي . غير اني رفعتها بقساوة . وقلت :

— لا اريد شيئاً من هذا ، لا اريد شيئاً من هذا .

فنظرت اليّ بدهشة :

— ماذا تريد ان أفعل لك ؟

— لا شيء ، أمشي ، تنقلي ، لا أطلب منك أكثر من ذلك .

وبدأت تسير عرضاً وطولاً ، بوجه العاجز . لا شيء يزعج النساء قدر مسيرهن عاريات . فلم يألفن إهمال الكعب العالي . وقوست البغي ظهرها وجعلت ذراعيها يتهدلان . أما أنا ، فكنت مع الملائكة : أجلس بهدوء ، مرتدياً ملابسني حتى العنق ، ولا أزال واضعاً قفازي ، بينما راحت تلك المرأة الناضجة تدور قبالي ، عارية .

وأدارت رأسها نحوي ، وابتسمت لي بفننج لانقاذ المظاهر .

— هل تجدني جميلة ؟ هل تفرك عينك ؟

— لا تهتمي بهذا .

فسألتني بغضب مباغت :

— قل ، أتريد ان تجعلني أمشي كثيراً هكذا ؟
— اجلسي .

جلست على السرير ، وبدأنا نتبادل النظر بصمت . أقشعر بدننا . وسمعته
صوت الساعة الكبيرة من جانب الجدار الآخر ، وفجأة قلت لها :
— باعدي بين فخذيك .

فترددت لربع ثانية ثم انصاعت . فنظرت بين فخذيها وشخرت . ثم بدأت
أضحك بقوة حتى سالت الدموع من عيني . وقلت لها ببساطة :
— هل لاحظت ؟

وتابعت الضحك .
فنظرت اليّ مشدوهة ثم احمرت كثيراً وضمت فخذيها .
وقالت من بين اسنانها :
— يا للقدر .

لكنني استرسلت بالضحك ، عندها قفزت وراحت تأخذ صدريتها عن
الكرسي .

فقلت لها :
— هه ، لم أنته بعد . سأقذك خمسين فرنكاً في الحال ، لكنني أريد
مقابل دراهمي .

وتناولت سروالها بعصبية .

— ضقت ذرعاً ، هل تفهم . لا أعرف ماذا تريد . وإذا كنت جعلتني
أصعد لتنهزاً مني ...
عندها أخرجت مسدسي وأبديته لها .

فقطلعت الي بوجه رصين وأنزلت سروالها بدون أن تنبس بشقة .

فقلت لها :

- إمشي ، تنقلي .

ونمت خمس دقائق . ثم اعطيتها عصاي وجعلتها تقوم بالتمرن . ولما شعرت بأن مروالي قبل ، نهضت وناولتها ورقة الخسین فرنكا . فأخذتها .

وأضفت :

- الى اللقاء ، عساي لم أتعبك مقابل هذا الثمن .

وذهبت ، وتركتها عارية وسط الغرفة ، صدرتها بيد ، وورقة الخسین فرنكا في اليد الأخرى . لم آسف على دراھمي : لقد افزعته وهذا ليس عجيباً انها بنغي . وفكرت وأنا انزل الدرج :

- هذا كل ما أردته ، ان أدهشهم جميعاً . كنت جذلاً كالطفل . وحملت الصابون وعدت الى بيتي وفركته كثيراً تحت الماء الساخن حتى تحول الى قطعة رقيقة بين أصابعي تشبه حبة الملابس بالنعناع إذا وضعت في الفم وقتاً طويلاً . ولكن في الليل ، استيقظت مذعوراً ، ورأيت عينيها ، بينك النظرتين اللتين رسمتهما لما شهرت سلاحي ، وكذلك بطنها السمين الذي كان يقفز عند كل خطوة .

وقلت في نفسي : « كم كنت متوحشاً » . وأحسست بندم أليم : كانت علي أن اطلق النار عندئذ ، أن أبقر هذا البطن . في تلك الليلة ، ولثلاث ليال متتابعة حملت بستة ثقوب جراء بشكل دائرة .

بعد ذلك لم أعد اخرج بدون مسدسي . كنت انظر الى ظهور الناس وأنصت كيف سيسقطون قيا لو اطلقت النار . يوم الأحد ، تعودت على الذهاب الى أمام الشاتليه ، عند انتهاء حفلات الموسيقى الكلاسيكية . وفي الساعة السادسة ، كنت اسمع رنين جرس فتأني الحاجبات لاقفال الأبواب المزججة باحكام . إنها البداية : الجمهور يخرج على مهل ، والناس يسرون

بخطى متهدجة ، أعينهم لا تزال الاحلام تغمرها ، وقلوبهم مفعمة بالمعاطف .
كثيرون منهم كانوا يتطلعون حولهم بوجه مدهوش . لقد بدا لهم الشارع كلي
الزرقعة . عندها ، كانوا يتسمون بغرابة : إذ ينتقلون من عالم الى آخر . وفي
العالم الآخر كنت أنا بانتظارهم . وضعت يدي اليمنى في جيبي وضغطت بكل
قواي على قبضة مسدسي . وما هي إلا هنيهة ، حتى رأيتني اطلق النار
فوق رؤوسهم . جندلتهم كمجموعة من الغلابين ، فأخذوا يتساقطون بعضهم
فوق بعض ، والذين ظلوا على قيد الحياة استبد بهم الذعر ، ففروا الى
المسرح يحطمون الزجاج والأبواب . كانت لعبة شديدة الازعاج : فيداي
كانتا ترتجفان ، كما ألفتني مرغماً على احتساء الكونياك عند دراهير لأعود
الى صواني .

النساء لم يقتلن . بل اطلقت النار على كلياتهن وفي مؤخراتهن لأدفعن
الى الرقص . .

لم أكن قد صمت على شيء ولكنني ارتأيت أن افعل كل شيء ، كما لو
أن قراري توقف . وذهبت لأعثر في معرض (دانفر روشرو) . كانت الأهداف
واسعة . وأخيراً ، بت اهتم بدعايتي . اخترت يوماً كان فيه جميع أهواني
مجتمعين في المكتب . صباح يوم اثنين . كنت لطيفاً جداً معهم ، رغم اني
أجد رهبة في مصافحتهم .

كانوا ينزعون قفازاتهم ليصافحوا الناس ، ولهم طريقة خاصة في
تعرية أيديهم . أما أنا فكنت احتفظ بقفازي .

صباح الاثنين ، ليس هناك من شيء مهم يجب عمله . فقد أتت الضاربة على
الآلة الكاتبة بالأوراق . ومازحها لومارسييه بلطف وما إن خرجت حتى
تحدثوا عن صفاتها بلباقة . ثم تحدثوا عن لنديرخ . كان يحبون لنديرخ كثيراً .
فقلت لهم :

— أنا أحب الأبطال السود .

فسأل ماسيه :

— الزوج ؟

— كلا . الزوج ، كما يقال السحر الأسود . ولندبرغ هو بطل أبيض .
فهو لا مهمني .

وقال بركسان بخشونة :

— اذهبوا وانظروا إذا كان عبور الأطلسي ممكناً .

وعرضت لهم مفهومي عن البطل الأسود .

وقال لومارسييه مختصراً :

— انه فوضوي .

فقلت بهدوء :

— كلا ، ان الفوضويين يحبون الرجال على طريقتهم الخاصة .

— إذا فهو مجنون .

ولكن ماسيه الذي كانت بين يديه رسائل ، تدخل في تلك اللحظة
وقال لي :

— اني اعرفه صاحبك ، واسمه اروسترات . كان يريد ان يصبح عظيماً
ولم يجد شيئاً أفضل من احراق هيكل إيفاز ، احدى عجائب الدنيا السبع .

— وما كان اسم مهندس الهيكل ؟

فاعترف قائلاً :

— لم أعد اتذكر ، بل اعتقد بأن لا أحد يعرف اسمه .

— حقاً ؟ وتتذكر اسم اروسترات ؟ هل ترى انه لم يجر حساباً خاطئاً .

وانتهت المحادثة عند هذه الكلمات ، لكنني كنت مطمئناً ، فسيذكرونها
في اللحظة المناسبة . أما بالنسبة لي ، ولم أكن حتى ذلك الحين ، قد سمعت
بإروسترات ، فشجعتني تلك الحادثة . ها قد مضى ألفا سنة على وفاته ،

وفعلته لا تزال تشع ، كاللحمة السوداء . وبدأت اعتقد بأن مصيري سيكون قصيراً مؤلماً . وهذا ما جعلني أخاف في البداية ، ثم ألفت ذلك . فإذا اعتبر هذا الأمر من زاوية معينة ، فهو شديد العنف ، لكنه ، من جهة ثانية ، يعطي قوة وجمالاً لا يستهان بهما . وعندما نزلت الى الشارع ، أحسست ان في جسمي قوة غريبة . كنت احمل مسدسي ، ذلك الشيء الذي ينفجر ويحدث ضجيجاً . لكنني لم أعد آخذ ضمانتي منه ، بل من نفسي ! فأنا كائن من نوع المسدسات والمفرقات والقنابل . ذات يوم وفي نهاية حياتي القائمة ، سأنفجر واضيء العالم بلهب ساطع قصير ، كهريق المانيزيوم . وحدث لي في نفس الحقبة ان رأيت نفس الحلم في عدة ليال . كنت فوضوياً ، وألقيت بنفسي في طريق القصر وحملت معي آلة خبيثة . وفي الساعة المحددة ، مر الموكب وانفجرت القنبلة وقفزنا في الهواء ، أنا والقصر والضباط الثلاثة المشوون بالذهب ، تحت أعين الجمهور .

بقيت أسابيع كاملة أداوم في المكتب . كنت انزله في الشوارع الكبيرة ، وسط ضحايي في المستقبل ، أو كنت انزل في غرفتي وأعد الخطط . طردوني في بداية تشرين الأول . فملأت فراغي إذ سجلت الرسالة الآتية ، وجعلتها في مئة ونسختين :

أيها السيد

أنت شهير ، تطبع مؤلفاتك على ثلاثين ألف نسخة . سأقول لك لماذا : لأنك تحب البشر . انك تتفتح عندما تكون بصحبة احد : الانسانية تجري في دمك . فما أن ترى واحداً من أشباهك وحقى بدون أن تعرفه تشعر بعطف نحوه . وأنت تميل لمشاهدة جسمه ، من أجل الشكل الذي يتحرك فيه ، ومن أجل رجليه اللتين تتفرجان وتنضبان تبعاً لارادته ، ولا سياً ليديه : اذ يعجبك ان يكون له خمس أصابع ، وان يستطيع مقابلة الابهام بسائر اصابعه . تسر كثيراً عندما يتناول جارك كأساً عن الطاولة ، لأن هناك

طريقة وصفتها لي أكثر الأحيان في مؤلفاتك ، وهي أقل مرونة ومروعة من طريقة القرد . ولكن ليس انها أكثر ذكاء ؟ انت تحب ايضاً لحم الانسان ، وهيمته في مشيته ، ونظرة التي لا تستطيع الوحوش احتياها . يسهل عليك اذاً ان تجد اللهجة الملائمة لتحدث الانسان عن نفسه : لهجة محتشمة لكنها مشتمة . ويرتقي الناس على كتبك بنهم ، يقرأونها على مقاعد وثيرة ، ويفكرون بالحب التعيس والحفي الذي تحبته لهم ، وهذا ما يعزيمهم عن البشاعة والجبن أو عدم تلقي زيادة في أول كلون الثاني . ويقولون مختارين عن روايتك الاخيرة : انها عمل جيد .

كما افترض بأنه يملك ان تعرف ما يمكن ان يكون الانسان الذي لا يجب البشر . إنه انا ، أحبهم حباً ضيقاً جداً حتى انني اريد ان اقتل منهم نصف دزينة فقط ؟ لأن في مسدسي ست رصاصات فقط . انه لعمل اجرامي ليس كذلك ؟ وهو بالأخص عمل غير سياسي اطلاقاً ؟ ولكنني أقول لك ان ليس بإمكانني أن احبهم . انا أفهم تماماً ما تشعر به . لكن ما يجذبك اليهم يشير اشمئزازي رأيت مثلك البشر يصفون العلكة بمقدار ، محافظين على نظرتهم الوقحة ، وهم يقبلون باليد اليسرى مجلة اقتصادية . هل هي غلطتي اذا كنت افضل حضور وليمة الحيوانات القطبية ؟ ليس بإمكان الانسان ان يفعل شيئاً لوجهه بدون ان يتحول هذا الى تلاعب في ملامحه . وعندما يضع وهو مطبق فيه ، فترفع زوايا فمه وتنخفض ، يبدو أنه يريد الانتقال بلا تأخر من الصفاء الى المفاجأة المبكية . انت تحب هذا ، وأنا اعرف ذلك ، فأنت تسميه نباهة الروح . لكن هذا يقتلني . ولا أدري لماذا خلقت هكذا .

فإذا لم يكن بيننا سوى . فارق في الذوق ، فلن أتعبك . لكن كل شيء يجري كما لو ان لك الرحمة ، وأنا لا ألوي على شيء . انا حر في ان أحب الطبق الأميركي أو ألا أحبه ، ولكنني لا أحب البشر ، أنا بائس وليس بإمكانني ان اجد مكاناً تحت الشمس . لقد ارهقوا معنى الحياة . أمل ان تقم ما اريد

ان أقوله . ها قد مرت ثلاثون سنة وانا اصطدم بابواب مغلقة كتب فوقها :
 « لا يدخل أحد ما لم يكن انساني النزعة » . وكل ما فعلته هو انني هجرت
 المكان . كان ينبغي ان اختار : إما انها كانت محاولة مجنونة ، أو انها ينبغي
 ان تنقلب لمصلحتهم . والأفكار التي لم أكرسها لهم ، ليس بإمكانني ان انتزعها
 من نفسي ، وأن أصوغها : فستظل في كحركات عضوية خفيفة . والأدوات
 التي كنت استعملها ، أحس بأنها لهم . الكلمات مثلاً : وددت لو ان لي
 كلمات . لكن هذه الكلمات التي استعملها ، لا أدري عبر أي من العقول
 انتقلت . فهي تترقب في رأسي من تلقاء ذاتها بفضل عادات اكتسبتها عند
 الآخرين ، وليس استعمالها لها خلواً من الاشتمال . لكنني أقول لك ، ولآخر
 مرة : يجب ان نحب البشر . او اذا ما كانوا يسمحون لك بعمل إية صنعة ، فأنا
 لا اريد ان اقوم بأية صنعة . سأتناول مسدسي في الحال ، سأنزل الى الشارع
 وسأرى اذا كان بإمكانهم ان يفعلوا شيئاً ضدم . وداعاً يا سيدي قد تكون
 انت الذي سأصادفك . لن تعرف عندئذ بأي سرور سأطير دماغك . والا
 — وهذا مرجح - فاقراً صحف الغد . فسترى ان شخصاً يدعى بول هليبر
 صرع في سورة غضبه خمسة من المارة في جادة ادغار كيليه . وانت تعرف أفضل
 من اي شخص آخر ما قيمة النثر الذي تكتبه الصحف اليومية الكبرى . ستعرفه
 عندئذ بأني لم اكن في « سورة غضب » . بل انا هادئ ، وارجو ان تقبل
 يا سيدي افضل عواطفني .

« بول هريبر » .

وضعت الرسائل في مئة ومظروفين ، وكتبت على المظروفات عناون
 مئة واثنتين من الكتاب الفرنسيين . ثم وضعت الكل في درج الطاولة مع ثمانية
 دفاتر من ورق البول .

طيلة الأيام الخمسة عشر التالية ، نادراً ما كنت اغادر البيت ، اذ كنت
 أتلهي بجريمتي . وفي المرأة التي اتطلع من خلالها الى نفسي ، لاحظت بسرور

التعديل الذي طرأ على وجهي ، لقد اتسعت عيناوي ، حتى كادتا تقضيان على معظم وجهي ، بسوادهما الرقيق البادي من تحت النظارة ، كنت أدبرهما كاللكواكب . غير اني رغبت في التبدل كثيراً بعد المجزرة . رأيت صورة تينك الفتاتين الجميلتين ، صورة الحادمتين اللتين قتلتا خدوميهما . رأيت صورهما من قبل ومن بعد . من قبل ، كان وجهاهما يتأرجحان كالزهور العاقلة فوق العنق ، كما كانتا ترفلان بالصحة والشرف . لست أدري اية آلة جمعت شعريهما . وكانتا لشدة الشبه بينهما تبدوان كالاختين عند المصور ، الأمر الذي يضع صلات الدم والجذور الطبيعية والعائلية في المسكان الاول . ومن بعد ، كان وجهاهما يشتملان كالخريق . وتمرت عنقاها وكأنها سائرتان الى الشفق ، وغزتها التجاعيد ، تجاعيد مخيفة من الرهبة والكراهية ، تجاعيد وثقوب في اللحم كما لو أن وحشاً من الوحوش قد دار بأظافره فوق وجهيهما . وهاتان العينان ، هاتان العينان الواسعتان السوداوان اللتان لا قرار لهما — هما كعيني . على انها لم تعودا تتشابهان . إذ باتت كل منهما تحمل ذكرى الجريمة على طريقها الخاصة . وقلت في نفسي : « إذا كانت الجريمة التي ارتكبت بالصدفة من شأنها ان تشوه الوجه هكذا ، فكيف لجريمة عن سابق تصور وتصميم قمت بها ؟ » ستستولي عليّ ، وتشوه دماغي الانسانية ... الجريمة تقطع حياة مرتكبها الى شطرين . تمر لحظات تنمى فيها العودة الى الوراء فاذا بالجريمة تقف في الطريق تسده . لم اكن اطلب سوى ساعة واحدة لأعيش جريمتي ، وأحس بعينها القاتل . في هذه الساعة ، سأرتب كل شيء لأخذها انفسي : قررت أن اقوم بالتنفيذ في شارع أوديسا . سأفيد من الجنون لأفرّ تاركاً إياهم ورائي يجمعون الأموات . سأركض ، سأعبر جادة إدغار — كينيه وأدور سريعاً في شارع دولامبر . لن احتاج لأكثر من ثلاثين ثانية كي أبلغ باب البناية التي اسكن فيها ، وفي هذه اللحظة ، يكون من يطارديني لا يزال في جادة إدغار كينيه ، فيضيعون أثري ، إذ تلزمهم ساعة على الأقل حتى يحذوه . سأنتظرهم في بيتي ، وعندما أسمعهم يطرقون الباب ، سأحشو مسدسي.

واطلق النار في فمي .

كانت حياتي أوسع مما هي عليه . تقاهمت مع صاحب مطعم في شارع فافان كان يأتي لي بأطباق جميلة كل صباح ومساء ، ويطرق العميل الباب ، فلا أفتح له ، بل انتظر عدة دقائق ثم افتح الباب لأرى في سلة كبيرة على الأرض ، صحنوناً ملأى يتصاعد منها الدخان .

في ٢٧ تشرين الأول ، وفي السادسة مساء ، كان قد بقي معي سبعة عشر فرنكاً ونصف . فأخذت مسدسي ورزمة الرسائل ، وتزلت . تعمدت عدم اقفال الباب ، كي أتمكن من العودة بسرعة بعد ان أقوم بضريتي .

لم اكن على أحسن حال ، إذ ان يدي باردتان والدم صعد الى رأسي ، وكنت بحاجة لأفرك عيني . نظرت الى المخازن ، الى فندق المدارس ، والى دكان الورق حيث اشترى اقلام الرصاص قلم أعرفها . وقلت في نفسي : « ما هذا الشارع ! » كانت جادة مونبارناس تعجّ بالبشر ؛ يدفعونني الى الأمام والوراء ، ويلطمونني بمرافعهم أو بأكتافهم . كنت اتهاذى ذات اليمين وذات اليسار ، إذ لم تكن لديّ قوة الانزلاق بينهم . رأيتني فجأة وسط ذلك الجمهر ، شديد الوحشة والصغر . كم كان بإمكانهم ان يؤذوني لو شاؤوا ! كنت خائفاً بسبب السلاح الذي في جيبتي . فقد تهبأ لي انهم سيكتشفون مكانه . سيتطلعون اليّ بأعينهم القاسية وسيقولون : « ولكن ... ولكن ... » بغضب يصحبه الفرح ، وهم يدوسون عليّ بأرجلهم البشرية . ما ان يقضوا عليّ كلياً ، حتى يلقوا بي من فوق رؤوسهم ، فأقع فوق أيديهم كاللعبه الصغيرة فارتأيت تأجيل مشروعي حتى الغد . وذهبت لأتناول العشاء في الكوبرل بستة عشر فرنكاً وثمانين . كان قد بقي لي سبعون سنتيماً ألقيت بها في الساقية .

بقيت ثلاثة أيام في غرفتي ، بدون طعام أو نوم . واغلقت المنافذ ولم أعد أجروّ على الافتراب من النافذة او على إضاءة المصباح . يوم الاثنين طرق

جاءني أحدهم . فهدأت من روحي وانتظرت . وما هي سوى دقيقة حتى عادوا الى رن الجرس . رحلت على رؤوس اصابعي لأنظر من ثقب الباب ، فلم أر سوى قطعة قماش أسود وزر . رن الشخص الجرس ثانية ثم نزل . ولا أدري من هو . في الليل ، رأيت احلاماً عذبة وسعفاً ، ودماً جارياً ، وسماً بنفسجية فوق قبة . لم أكن ظمناً لاني كنت أشرب ساعة بعد ساعة من حنفية المغسلة لكنني كنت جائعاً . ورأيت البغي السمراء مرة ثانية . كان ذلك في قصر بنيته فوق الهضبة السوداء على بعد عشرين ميلاً من كل قرية . كانت السمراء عادية ، ووحيدة معي . أرغمتها على الركوع بقوة مسدسي ، وعلى الركض على أربع . ثم ربطتها بعمود ، وبعد ان شرحت لها مطوّلاً ما سأقوم به ، أمطرتها وابلاً من الرصاص . أثّرت في هذه الصور فاكثفت بها . وبعدها ، بقيت جامداً في الظلام ، فارغ الرأس تماماً . بدأت قطع الأثاث تترقع . كانت الساعة تشير الى الخامسة صباحاً . كنت أعطي أي شيء مقابل الخروج من غرفتي ، ولكن لم يكن بوسعي ان أنزل بسبب الناس الذين يسرون في الشارع .

وجاء النهار . لم أعد احس بالجوع ، بل ان العرق صار يتصبب مني : فتهلل قيصي . في الخارج ، كانت الشمس . عندها فكرت : « في الغرفة المقفلة ، في الظلام يحتبىء . فمنذ ثلاثة ايام لم يذق الطعام او النوم ، ذق بابسه ولم يفتح . والآن ، سينزل الى الشارع وسيقتل » . كنت اخيف نفسي . في السادسة مساء عاودني الجوع . كنت غاضباً حتى الجنون . تعثرت لحظة في الغرف ، ثم اضأت الكمبراء في الغرف والمطبخ والمراحيض . وبدأت أغني بأعلى صوتي ، وغسلت يدي وخرجت . كان يلزمني دقيقتان لأضع جميع رسائلي في علبة البريد . كنت أرميها عشرة عشرة . فجعدت بعض المظروفات .

ثم سرت في جادة المونبارناس وحتى شارع أوديسا . وتوقفت أمام

المرأة في إحدى محلات بيع القمصان ، ولما لحت وجهي فيها فكرت في نفسي : « هذا من أجل المساء » .

تمركزت في أعلى شارع أوديسا ، ليس بعيداً عن قناة الغاز ، وانتظرت .
ومرت امرأتان . كل منهما تمسك بذراع الأخرى ، وتقول الشقراء :

— لقد وضعوا السجادات في كل النوافذ ، وكان نبلاء البلاد هم الذين يقومون بالتصوير .

فسألت الأخرى :

— هل هم مفلسون ؟

— ليس ضرورياً أن يكون المرء مفلساً حتى يقبل بعمل يدر عليه خمس ليرات ذهبية في اليوم .

فقالَت السمرَاء مبهورة :

— خمس ليرات !

وأضافت وهي تمر من أمامي :

— ثم أنصوّر انهم يتسلون بارتداء ثياب أجدادهم .

وابتعدت الامرأتان . كنت أشعر بالبرد لكن العرق يتصبب مني بغزارة .
وما هي إلا لحظة ، حتى أتى ثلاثة رجال ، فتركهم يعبرون : إذ كانت يلزميني ستة . ونظر إلي من كان على اليسار وقرقشع بلسانه . فحولت نظري عنه .

في السابعة وخمس دقائق ، دخلت امرأتان تتبسع واحدهما الأخرى جادة ادغار كيليه . كان رجل وامرأة بصحبة ولدٍ في إحدى الفرقتين . ووراءهم تأتي ثلاث عجائز . خطوات خطوة الى الأمام . كانت المرأة غاضبة تهز الصبي بذراعه . ويقول الرجل بصوت متهدج :

— انه لا يطاق ، هذا الولد .

كان قلبي يخفق بقوة بما سبب لي ألك في ذراعي . وتقدمت ووقفت
قبالتهم ، لا حراك بي . واصابعي في جيبي ، كانت رخوة حول الزناد .
وقال الرجل اذ دفعني :
« عفواً » .

تذكرت انني اغلقت باب غرفتي وهذا ما جعلني متناقضاً : اذ يلزمني وقت
ثمين لفتحه . وابتعد الاشخاص . فهجمت عليهم اتبعهم بصورة آلية . لكنني
لم أعد ارجب في اطلاق النار عليهم . لقد ضاعوا في زحمة الجمهور في الشارع .
اما انا ، فاستندت الى الجدار . فسمعت الساعة الثامنة تدق ومن ثم التاسعة .
وكررت قائلاً في نفسي :

« لماذا ينبغي قتل هؤلاء الأشخاص الموتى » واعترتني رغبة بالضحك .
فجاء كلب وشم قدمي .

ولما تجاوزني الرجل السمين ، أرتعدت . كنت أرى تجاعيد عنقه الحمراء .
كان يروح ذات اليمين وذات اليسار ويتنفس بقوة ، فهو يبدو قوياً . اخرجت
مسدسي ؛ كان لماعاً بارداً ، يثير اشتغالي ، لم اتذكر تماماً ما كان يجب ان
افعل به . فتارة ما كنت انظر اليه ، وطوراً الى عنقه . تجاعيد عنقه
كانت تضحك لي ، كنم باسم مريب . وتساءلت في نفسي اذا كنت سأهم
بالقاء مسدسي في احد المجارير .

فجأة اتجه الرجل نحوني ونظر اليّ بحنق . فتراجعت خطوة الى الوراء .
« ذلك كي ... اسألك ... »

لم يبد عليه انه يريد الاستماع . كان ينظر الى يديّ . وانتهيت بصعوبة :
— هل بإمكانك ان ترشدني الى شارع « السرور » ؟

كان وجهه ضخماً ، وشفتاه ترتجفان . لم يقل شيئاً بل مدّ يده . فتراجعت
أكثر وقلت له :
— أريد ..

في تلك اللحظة عرفت اني سأبدأ بالصياح . ولما لم أرغب في ذلك ، افرغت له ثلاث رصاصات في بطنه . فسقط هيئته مضحكة على ركبتيه ، وتدرج رأسه على كتفه اليسرى . وقلت له :

— يا للقدر ، يا للقدر اللعين !

وهربت . وسميته يسعل . وسمعت أيضاً صياحاً وقع خطى تتبعني . وسأل أحدهم : « ما هذا ، انها يقتتلان ؟ ثم صاحوا بعد ذلك : « الى القاتل ! الى القاتل ! » لم أفكر بأن هذه الأصوات تتعلق بي . لكنها بدت مشؤومة ، كصفارة رجال الاطفاء كما كنت اسمعها في طفولتي . مشؤومة ومضحكة نوعاً . وركضت بكل ما أوتيت ساقي من قوة .

إلا اني ارتكبت خطيئة لا تغتفر : فبدلاً من ان اصعد نحو جادة ادغار كينييه ، نزلت نحو جادة المونبارناس . وعندما ادركت ذلك ، كان الوقت متأخراً : كنت وقتئذ في وسط الجمهور ، تتجه نحو الوجوه المدهوشة ، (اتذكر من بين تلك الوجوه وجه امرأة شديدة التبرج تغمز بقعة خضراء) وأسمع أصوات السخفاء في شارع أوديسا يصيحون : الى القاتل وراء ظهري . وأحسست بيد تقم الى كتفي ، عندها اضعت رشدي : لم أكن أريد ان أموت خنقاً على يد هذا الجمهور . اطلقت أيضاً عيارين تاريخين . فبدأ الأشخاص يهربون ويتفرقون . فدخلت راكضاً الى احد المقاهي . فوقف المستهلكون عند مروري ولكنهم لم يحاولوا إيقافني ، وعبرت المقهى بطوله واعتصمت في المغاسل . بقيت رصاصة واحدة في مسدسي .

ومرت لحظة . كنت منهوك القوى ، لاهثاً . كل شيء صامت صمتاً عجيبياً ، كما لو أن الناس تعمدوا السكوت . ورفعت سلاحي حتى عينيّ ورأيت ثقب الاسود المستدير : ستنتطلق الرصاصة من هنا : وسيحرق البارود وجهي . أرخيت ذراعي وانتظرت . ما هي إلا لحظة حتى وصلوا بخبط الذئاب ، لا بد وأن يكونوا قطعاً كاملاً ، على ما يتبادر الى الذهن من وقع

خطاهم . وتمتموا لحظة ثم سكتوا . أما انا فكنت لا أزال ألثت وفكرت
بأنهم سيمعونني وأنا ألثت ، من جهة الحاجز الأخرى . اقترب احدهم بهدوء
وشد على قبضة الباب . لعله أسند ظهره للجدار جانبياً ليتقي رصاصاتي .
ورغبت مع ذلك في اطلاق النار - لكن الرصاصة الأخيرة كانت لي .
وسألت في نفسي : « ماذا ينتظرون ؟ » فاذا انقضوا على الباب وخلعوه
« حالاً فلن يتركوا لي الوقت الكافي لقتل نفسي ، فيقبضون علي حياً » .
لكنهم لم يستمعوا ، فقد تركوا لي فرصة كي اموت . القذرون ، كانوا
خائفين .

وما هي إلا لحظة حتى ارتفع صوت « هيا افتح فلن نؤذيك » . وما هي
إلا لحظة صمت حتى تابع الصوت : « انت تعرف انه ليس بإمكانك الفرار » .

لم أحب ولكنني كنت لا أزال ألثت . وحتى اتشجع على اطلاق النار ،
قلت في نفسي : « اذا قبضوا علي فيضربونني ، سيحطمون أستاني ، سيفقأون
احدى عيني » . وودت أن أعرف اذا كان الرجل السمين قد مات . لعلي
جرحته فقط ... والرصاصتان التاليتان لعلهما لم تصيبا أحداً ... كانوا يعدون
أمرأ ما ، فهم يحرون شيئاً ثقيلاً على الأرض .

أمرعت بوضع فوهة مسدسي في فمي وعضضت عليها بقوة . غير اني لم استطع
اطلاق النار ، ولا حتى وضع اصبعي على الزناد . كل شيء عاد للعصمت .

عندها رميت المسدس وفتحت لهم الباب .

جبل الورد

- ١ -

كانت لولو تنام عارية لأنها تحب أن تداعب نفسها بالغطاء ، ولأن الغطاء كان ثميناً . اعترض هنري في البداية : فلا يجوز ان تنام عارية في السرير ، فهذا لا يمكن ، بل إنه قدر . لكنه انتهى مع ذلك الى النزول عند رأي زوجته لكن هذا كان نوعاً من المسايرة بالنسبة اليه ، كان جافاً تمام الجفاف عندما يكون بين الناس . وبالنسبة للأصناف (كان معجباً بأهل سويسرا لا سيما سكان جنيف ، انه يعجب بهم لأنهم من خشب) غير انه كان يهمل نفسه في الأشياء البسيطة ، فليس شديد النظافة مثلاً ، إذ لم يكن يغير سرواله كثيراً . فحين تضع لولو سراويله للتنظيف ، كانت تلاحظ عليها البقع الصفراء : لم تكن لولو شخصياً تكره القذارة : فهي تجعل الشخص اقرب الى القلب ، وهي تضيف ظلالاً عذبة بين المرافق مثلاً . فلم تكن تحب أولئك الانكليز ، تلك الأجساد غير البشرية التي ليس لها رائحة . لكنها كانت تخشى اهمال زوجها ، لأنه سبيل للميوعة . في الصباح ، حين يستيقظ ، يكون شديد الرقة أمام نفسه ، فرأسه مليء بالأحلام . كان الماء البارد وشعيرات الفرشاة تحدث له انعكاسات سيئة .

كانت لولو نائمة على ظهرها ، كما أدخلت اصبع رجلها اليسرى الكبيرة في شق الغطاء . لم يكن هذا شقاً ، بل أن الغطاء مزق . انه يزعجها . وعليها ان تحيطه غداً ، كانت مع ذلك تشد على الحيطان لتتقطع . لم يكن هنري قد

نام ، لكنه انفك عن الازعاج . لطالما قال هذا للولو : ما ان يغمض عينيه حتى يشعر بأنه قد ربط تماماً بحيث لا يستطيع ان يحرك حتى اصبعه . الذبابة عالقة في خيوط العنكبوت . ولولو تحب ان تشم هذا الجسد السجين . فلو ان بإمكانه ان يظل هكذا مشلولاً لاعتنيت به انا ، ولنظفته كولد ولقلبته أحياناً على ظهره وضربته على مؤخرة وازحت الغطاء حتى اذا أتت أمه ورأته عارياً ، أظن انها ستجمد في مكانها . منذ خمسة عشر عاماً لم تشاهده على هذه الحال . مرت لولو بيدها الخفيفة على خاصرة زوجها وقرصته قليلاً . فهمهم هنري لكنه لم يقم بأية حركة . أصبح « عاجزاً » . وابتسمت لولو : كلمة « العجز » كانت تضحكها دائماً . ففي الوقت الذي كانت لا تزال فيه تحب هنري ، تخيلته وكأنه « جلفر » ، وهنري يحب ذلك فهذا اسم انكليزي ولولو تبدو مثقفة ، لكنه كان يفضل ان تلفظه لولو باللهجة الانكليزية . كم كانوا قادرين على ازعاجي : فلو رغب في الثقافة لم يكن عليه سوى الاقتران بجان بدير ، فهي وان حملت نهدين بارزين ، تتقن خمس لغات وعندما كنا نذهب الى « سو » يوم الأحد ، كنت شديد الازعاج بين اسرتها حتى اني كنت آخذ اي كتاب لأقرأ فيه . وغالباً ما كان هناك من يأتي لينظر الى ما أقرأ وتسألني أختها الصغيرة : « هل تفهم لوسيا؟ » انها لا تجدني مبرزاً . السويسريون نعم هم الاشخاص المميزون ، لأن اختها البكر قد تزوجت من رجل سويسري انجبت منه خمسة أولاد . أما أنا فلا يمكن ان يكون لي أولاد . انه أمر مشروع ، غير اني لم ار ان ما يقوم به ، من زيارة المراحيض عدة مرات عندما يكون برفقتي ، شيئاً مبرزاً . اذ اصبح مرغمة على النظر في الواجهات وأنا بانتظاره . ويخرج وهو يشد سرواله ويقوس ساقه كالعجوز .

وسحبت لولو اصبعها من شق الغطاء وحركت رجلها قليلاً ، حتى تشعر بلذة تنبها . الى جانب تلك الكتلة الرخوة من اللحم . وسمعت غرغرة ، انها بطن تغني ، وهذا يزعجني ، فليس بإمكانني أن اعرف هل كانت بطني ام بطنه .

وأغمضت عينيها : انها سوائل يسمع خريرها في الاقنية الرخوة ، فالجميع عندهم منها ، عند بريرات وعندني (لا أحب أن أفكر بذلك ، فهذا ما يسبب لي ألماً في بطني) انه يحبني ولا يحب امعائي ، فلو قدمت له زائدي الدودية فلن يعرفها ، سيظل طيلة الوقت يقلبني ولكن اذا وضعنا الاناء في يديه فلن يشعر بشيء . فلن يفكر بأن هذا الذي في الداخل « هوها » . من الواجب أن نحب كل شيء في الشخص ، بلعومه وكبدته وامعائه . لعلنا لا نحب هذه الأعضاء بحكم عدم التعود عليها ، فلو رأيناها كما نرى أيدينا وأذرعنا لأحبيناها على ما اعتقد . فنجوم البحر إذا تفوقنا في محبة بعضها . فهي تتمدد على الشاطئ في الشمس وتخرج معدتها لتتنشق الهواء ، والجميع يرون هذه المعدة . أتساءل كيف بإمكاننا أن نخرج معدتنا ؟ كانت قد اغمضت عينيها ، أخذت الصحنون السوداء بالدوران ، كما كنت أمس في المعرض ، اطلق النار على الصحنون بأسهم من المطاط . كانت هناك حروف تشع ، يشع الحرف عند اطلاق النار ، فتؤلف الحروف اسم مدينة ، لقد حرمني من رؤية حروف ديجون كاملة لفرط ما كان يلتصق بي من الخلف ، أكره كثيراً أن يلامسني أحد ، أود لو لم يكن لي ظهر ، لا أريد أن يفعل لي الناس شيئاً عندما لا اكون منتبهة . فبإمكانهم أن يحركوا أيديهم فوق ظهرك فلا تدري الى أية جهة ستلتقل الأيدي ، وهم يتطلعون اليك بكل أعينهم بدون أن تراهم ، وهنري يحب هذا حتى العبادة . لم يفكر هنري قط بذلك ، لكنه يفكر بالوقوف ورائي ، وأنا متأكدة من انه يفعل هذا عمداً ، ويلامسني من خلف ، فأنا اخجل من مؤخرتي ، وهو يعرف ذلك ، لكن هذا يهيجه . لكنني لا أريد أن أفكر فيه (كانت خائفة) . أريد أن أفكر بريرات . كانت تفكر بريرات في جميع الأمسيات وفي نفس الساعة . في نفس اللحظة التي يبدأ فيها هنري بالشخير . لكن المقاومة موجودة ، فالآخر أراد أن يظهر نفسه ، ورأى للحظة الشعر الأسود ، وارتعش لأن المرء لا يدري ماذا سيحصل له . فلو انه الوجه لسكانت الحال على ما يرام ، لكن هناك ليالي قضائها بدون

أن يغمض عينيه بسبب الذكريات القذرة التي طغت عليه ، فمن الأمور
الرهيبة أن نعرف كل شيء عن انسان ما وخاصة هذا . وهنري لا يمثل
الشيء ذاته ، فبإمكانني أن اتصوره من الرأس حتى الرجلين ، فهو يجعل قلبي
رقيقاً ، لأنه رخو ، ولحمه رمادي إلا بطنه فهي وردية ويقول ان الرجل
الحسن القوام هو الذي اذا جلس تتجمع بطنه ثلاث تجمعات ، بينما هو فتتجمع
بطنه ست تجمعات . الا انه يعدها اثنتين بعد اثنتين ولا يريد أن يرى
الآخرين . وأبدت امتعاضها وهي تفكر بـ بريرات : « لولو ، انت لا تدركين
كيف يكون جسم الرجل الجميل ، هذا مضحك بالطبع ، نعم أنا اعرف ما الجسم
الجميل ، تريد أن تقول انه جسم قاس كالخجر ، جسم ذو عضلات ، أنا لا
أحب هذا الجسم ، باترسون كان له جسم مشابه ، وأنا كنت احسني رخوة
كاللودة عندما كان يضمني اليه . وتزوجت من هنري لأنه رخو ، ولأنه
يشبه الكاهن . والكهنة كالنساء على جانب من العذوبة بقلنسواتهم ، كما يبدو
أن لهم جوارب . في الخامسة عشرة ، كنت احب أن أرفع فساتينهم برفق
لأرى سيقان الرجال عندهم وكذلك سراويلهم ، كان يضحكني أن يكون
لهم شيء بين الساقين . كنت أريد أن أمسك الفستان بيد وأزلق الأخرى
على طول سيقانهم ، صاعدة الى حيث أفكر ، وليس مرد ذلك الى اني احب
النساء الى هذا الحد ، لكن عضو الرجل عندما يكون تحت الفستان ، طريء
كالوردة الكبيرة . ان ما هنالك انه ليس بالإمكان أن يمسك هذا باليد فيظل
سائكاً ، بل هو يبدأ بالتحرك كالحيوان ، ويصبح قاسياً عتيقاً . الحب ، كم هو
قدر . أنا كنت احب هنري لأن غرضه الصغير لا ينتصب أبداً ولا يرفع رأسه ،
كنت اضحك ، وأقبله أحياناً ، لم أعد أخشاه كثيراً . في المساء ، آخذ شيئاً
العذب الصغير بين أصابعي ، فكان يحمر ويدبر رأسه جانباً وهو يتنهد ،
ولكن الشيء لم يتحرك ، بل يظل عاقلاً في يدي ، لم أكن اضغط عليه ،
فنظل طويلاً على هذه الحال ، وكان ينام . عندها استلقي على ظهري وأفكر
بالكهنة ، والأشياء الطاهرة والنساء ، وادغدغ بطني أولاً ، بطني الجميلة

المسطحة ، وأزل يدي ، انزلها ، وها هي اللذة . اللذة التي لا يستطيع أحد غيري أن يحتلبها لنفسه .

الشعر مجعد كشعر الزنجي . والقلق في الحجرة ككتلة مستديرة . لكنها وضعت على جفنيها بقوة ، و أخيراً ظهرت اذن ريرات ، وهي اذن صغيرة محمرة ومذهبة كالسكر المذاب . وإذا رأيت لولو لن تجدها بمثل سرورها المعتاد لانها تسمع صوت ريرات ، وهو صوت حاد دقيق لا تحبه لولو . « عليك ان تذهبي مع بيار يا لولو العزيرة ، فهذا هو العمل الذكي الوحيد الذي بإمكانك ان تقومي به . اشعر بكثير من العاطفة تجاه ريرات ، لكنها تزعجني قليلاً عندما تتظاهر بالأهمية وتفتخر بما تقوله . انحن ريرات عند العشية في الكوبول ، وكانت عليها ملامح التعقل المصحوب بالخوف : « ليس بإمكانك ان تظلي مع هنري ، لانك لا تحبينه ، فهذا عمل اجرامي » . إنها لا تضع أية فرصة دون أن تتناوله بسوء ؛ أرى ان هذا ليس من اللياقة بشيء ، فهو شديد الحبة لها ان اكون لا احبه ، امر ممكن ، ولكن ليس من واجب ريرات ان تقوله لي . اذ انه يبدو معها كل شيء بسيطاً سهلاً : فالمرء إما ان يحب ، واما الا يستمر في هذا الحب . أما انا فلست بسيطة . أولاً ، إن لي عاداتي الخاصة ، ومن ثم اني احبه ، فهو زوجي . كنت أود ان اضربها ، ولا زلت أرغب في إيذاها لانها وقحة . « انه لعمل اجرامي » . لقد رفعت ذراعها ، فرأيت ما تحت أبطها . لا أزال أحبها حين تكون ذراعها عاريتين . تحت الابط ، يفتح نصف فتحة ، فقد يتبادر الى الذهن انه فم ، وترى لولو لها بنفسجياً ، قليل التجاعيد ، تحت شعيرات مجعدة كأنها الشعر . يطلق بيار عليها اسم « مينرفا السمينة » وهي لا تحب هذا الاسم إطلاقاً . وابتسمت لولو لأنها فكرت بأخيها روبير الذي قال لها ذات يوم وكانت بالغلالة الرقيقة : « لماذا لك شعر تحت الذراع ؟ » وأجابته : « انه مرض » . كانت تحب كثيراً ان ترتدي ثيابها أمام اخيها الصغير ، لأنه كان لديه دائماً ملاحظات طريفة ، ويتساءل المرء أين تريد ان تبحث عن هذا . كان يلامس جميع أغراض لولو ،

فيطوي الفساتين بعناية بيدين حاذقتين؛ سيصبح يوماً ما « خياطاً » . انها مهنة مغرية ، وانا ، سأرسم له على قطع القماش . إنه لغريب ان يحلم الصبي بأن يصبح خياطاً . يتهاى لي لو كنت صبياً ، انني أتمنى عندئذ ان اصبح مغامراً أو ممثلاً ، وليس خياطاً . لكنه حالم طيلة الوقت ، فهو لا يتكلم كثيراً ، ويتابع فكرته . وأنا كنت أريد ان أصبح اختاً صالحة للاستجداء ، في البنائيات الكبرى . أحس بعذوبة عيني وكأنها اللحم البشري ، اريد ان انام ، وجهي الجميل الشاحب تحت التسمية . كانت ملاحي مميزة . رأيت مئات من الردهات المعتمة . غير ان الخادمة أضاعت النور في الحال ، عندها أبصرت لوحات العائلة ، وتماثيل البرونز على المنضدات . وكذلك المشاجب . وتأتي السيدة بدفتر صغير وورقة من فئة الخمسين فرنكاً :

« خذي يا اختي - شكراً يا سيدي وليبارك الله والى المرة القادمة »
 لكنني لم اكن أختاً حقيقية . في السيارة ، أمأت بعيني لأحد الأشخاص ، ففرع أولاً ، ثم تبعتي وهو يتحدثني عن أشياء فسلمته للشرطي . دراهم الاستجداء كنت احتفظ بها لنفسي . ماذا اشترى لنفسي أشتري سماً . يا للبلاهة . وارتحت عينايا ، فهذا يعجبني ، إذ يقال انها قد قبلت الماء ، فجسمي مريح بمجمله . والتاج الجميل المرصع بالزمرد . ودار التاج ، ثم دار ، فتحول لرأس ثور مخيف ، لكن لولو لم تكن خائفة ، وقالت : « يا لعصافير الكانتال » . وجرى نهر احمر عبر الحقول المجدبة . وفكرت لولو بفأسها الآلية .

« إنها الجريمة » . وارتعدت فرائصها واستيقظت في ذللك الليل ، بعينين قاسيتين ! انهم يعذبوني ، أفلا يشعرون ، بذلك ؟ انا أعرف ان ريرات تتحدث عن نية حسنة ، لكنها وهي العاقلة بالنسبة للآخرين ، ينبغي ان تفهم انني بحاجة للتفكير . قال لي : « ستأتين ! » وقد احمرت عيناها اشد الاحمرار . « ستأتين الى بيتي انا ، أريدك ان تكوني لي » . اني اخشى عينيه حين يريد ان يلعب دور المنوم المغناطيسي ، كانت يخدر ذراعي . فلا أرى

عينيه على تلك الحال حتى افكر بالشعر الذي على صدره . ستأتين ، أريدك .
ان تكوني لي : كيف للمرء ان يقول أشياء كهذه ؟ أنا لست كلباً .

عندها جلست وابتسمت له ، وغيرت المسحوق من أجله وكحلت عيني
لانه يحب ذلك ، لكنه لم ير شيئاً ، فهو لا ينظر الى وجهي ، كان يتطلع الى .
نهدي ، فوددت لو انها يخفان فوق صدري لازعجه ، على كل حال فلست غنية
بالنهود ، فيها صغيران جداً . ستأتين الى دارتي في نيس . قال انها بيضاء ،
درجها من الممر ، وهي مشرفة على البحر ، وأنا سنعيش عاريين طيلة اليوم ،
سيكون الأمر طريفاً عندما يصعد الانسان الدرج بغير ثياب . سأرغمه على
الصعود قبلي ، حتى لا ينظر الي . والا فلن استطيع ان احرك رجلي ، بل
سأظل مستمرة في مكاني متمنية من كل قلبي أن يصبح أعمى ، لكن هذا لن
يبدلني . اذ أنه عندما يكون موجوداً أحس دائماً بعربي . أخذني بذراعي ،
يبدو انه خبيث وقال لي : « انت في جلدي ! » وأنا كنت خائفة فقلت :
« نعم » . اريد ان اصنع سعادتك ، سندهب للزهوة في السيارة ، وفي المركب ،
سنذهب الى ايطاليا وسأعطيك كل ما تريدن . لكن دارته ليست غنية بالاثاث
فسلنم على الارض في فراش . يريدني أن اناهم بين ذراعيه ، سأشم رائحته ؛
احب صدره كثيراً لانه صدر اسمر عريض ، لكن هناك كثيراً من الشعر
فوقه ، أريد ان يكون الرجال بدون شعر ، شعره هو أسود ناعم كالزبد ،
فلاطالما دغدغتها ولطالما فزعت منها ، أترجع قدر الامكان لكنه يشدني
اليه . يريد ان اناهم بين ذراعيه وأشم رائحته . وعندما يأتي الليل ، نسمع
ضجيج البحر ، وبإمكانه أن يوقظني في منتصف الليل اذا اراد ان يفعل هذا :
لن استطيع ان اناهم مطمئنة ما لم تكن حوائجي لدي ، اذ يتركني وشأني
وقئتد ، ثم ان هناك رجالاً يقومون بهذا مع نسوة في دورتهن ، فتتلطخ بطونهم
بالدم ، بدم ليس لهم ، سبلطخ الدم أيضاً الاغطية ، وكل مكان ، هذا شيء
يدعو للاشمئزاز ، لماذا ينبغي أن يكون لنا أجسام ؟

وفتحت لولو عينيها ، كانت الستائر ملونة بالاحمر ، يلونها النور الآتي من الشارع ،

وفي المرأة كان خيال أحمر ، والكنبة انشطرت الى ظل على الحائط .
 على ذراع الكنبة ، كان هنري قد ألقى سرواله ، وقميصه كان يتدلى في الفراغ .
 علي ان اشترى له حزاماً للقميص . أوه لا اريد . لا اريد ان اذهب . سيقبلني
 طيلة اليوم ، « وسأكون له » ، اصنع لذته ، وسينظر اليّ . سينكر « انها
 لذتي » ، لامستها هنا وهناك ، وبماكاني ان اعيد الكرة عندما يروق الامر لي .
 في بور رويال ، رفست لولو الاغطية برجلها ، كانت تمقت بيار عندما تتذكر ما
 جرى لها في بوررويال . كانت وراء السياج ، تظن ان بيار لا يزال في
 السيارة ، يتفحص الخريطة ، وفجأة ابصرته ، ركض وراءها بخطى
 الذئب ، كان ينظر اليها . رفست لولو هنري ، سيسيظ .
 لكن هنري شخر « هوم ف . ف . ف . ف . » . ولم يستيقظ . اريد
 ان أتعرف على شاب وسيم ، طاهر كالفتاة ، فلا يلامس أحداً الآخر ،
 وتنتزه على شاطئ البحر ، امسك بيده ويمسك بيدي . وفي المساء نسام كل في
 سرير منفصل ، نظل كأخ واخت غارقين في حديث حتى الصباح . أو انني
 أحب ان اضحك مع ريرات ، فما أحلى النساء فيما بينهن . كتفاها عريضتان
 وسمينتان . كنت سعيدة جداً عندما كانت تحب فرسني ، لكن فكرة
 دغدغته لها كان تهزني ، وكذلك يهزني ان يمر بيديه على كتفيها وعلى خصرتها
 وان تتنهد . أتساءل كيف يمكن لوجهها ان يكون عندما تكون مددة على
 هذا الشكل ، عارية ، تحت رجل ، تحس بيدين تتنقلان على لحمها . لن ألامسها
 مقابل ذهب العالم كله ، فلن اعرف ما أفعله بها ، حتى ولو رغبت في ذلك
 وقالت لي :

« حقاً انني اريد » . فلن اعرف ، لكنني لو كنت غير منظورة ، لأحببت
 ان أراه يفعل هكذا معها ، ينظر الى وجهها (يدهشي ان تكون كمينفا) ،
 ويدغدغ يده رشيقة ساقها المنفرجتين ، وركبتيها الموردين ، ويسمعها تتنهد .
 وضحكت مينرفا ضحكة جافة : اذ يعترني المرء احياناً مثل هذه الافكار .

مرة أدعت بأن بيار يريد ان يقتصب ريرات . وساعدها ، اخذت ريرات بين ذراعي . امس . كان خداها شديدي الاحرار ، كنا جالستين على ديوان ، الواحدة قبالة الاخرى ، كانت ساقاها مضمومتين ، لكننا لم نقل شيئاً ، ولن نقول شيئاً . بدأ هنري بالشخير وصفرت لولو . أنا هنا ، ليس بإمكانني ان أنام ، سأفسد دمي ، وهو كان يشخر ، ذاك السمع . فلو أخذني بين ذراعيه ولو رجاني ، ولو قال لي : « أنت لي بأكملك . لولو ، أنا احبك ، لا تذهبي ! » سأقدم له هذه التضحية ، سأبقى نعم ، سأظل طيلة حياتي معه ، طلباً لرضاه .

- ٢ -

جلست ريرات على شرفة القبة وطلبت كأساً من البورتو . كانت متعبة ، غاضبة من لولو .

« ... البورتو الذي قدموه فيه طعم الفلين ، ولولو لا يهمها الأمر فهي تشرب القهوة ، لكنه ليس من المناسب أن تشرب القهوة في وقت المقبلات . إنهم يشربون القهوة هنا طيلة اليوم أو القهوة مع الكريما لأنهم مفلسون ، كم يزعجهم هذا الأمر ، أما أنا فلا أستطيع ، بل اضرب جميع الخوانيت برؤوس الزبائن ، فهم أناس لا يريدون الاستمرار . لا ادري لماذا تحدد لي المواعيد في المونبارناس دائماً ، لا سيما وأنا لو حددت لي مواعيدها في مقهى السلام أو البام بام ، لكان اقرب اليها ، وأبعد عن مكان عملي . لا أستطيع أن أقول كم يحزنني ان ارى دائماً هذه الرؤوس ، ففي كل دقيقة لدي ، علي أن آتي الى هذا المكان . لو كنت في الشرفة فلا بأس ، ولكن في الداخل تفوح رائحة الثياب القذرة . وحتى على الشرفة احس بأني غريبة بين رجال لا يحملون ذقونهم ونساء لست أدري كيف هن . قد يقول أحدهم : « ما تراها تفعل هنا ؟ » أعرف ان الاميركيات المثریات يؤمن المسكان في الصيف ، ولكن يبدو أنهن قد توقفن الآن في انكلترا مع حكومتنا ، لهذا فان تجارة الكماليات ليست على ما يرام ، فقد بعث حتى الآن نصف ما بعته في السنة الماضية . « واتساءل ماذا يفعل الآخرون ، لانني أنا البائعة الفضلى ، والسيدة

«دوباش هي التي قالت لي هذا ،
فهي لم تكسب درهماً واحداً ،
يقضي المرء نهاره واقفاً على رج
يسمع فيه الموسيقى ، وليس الذ
لكن الخدم وقحون ، ، فهم يعاء
فهو لطيف . أظن ان لولو تسرّ عند
الذهاب الى مكان راق ، فهي ليست شديدة الثقة
كل رجل ذي عادات جميلة ، ولم تكن تحب لويس .
والرجال هنا فقراء يضعون غلايينهم في أفواههم ، ولا
الشرهة ، وإن كانت يبدو عليهم أنهم لا يستطيعون دفع اجرة النس
لأنهم يتطلعون بشراهة ، وليسوا قادرين على أن يقولوا للمرأة بأسلوب لطيف
بأنهم يرغبون فيها » .

واقترب الخادم :

- تريدان البورتو الصرف يا آنستي ؟

- نعم . شكراً .

- يا له من وقت جميل .

فقالت ريرات :

- ليس الوقت مبكراً !

- حقاً ، حتى انه بإمكاننا ان نقول ان الشتاء لن ينتهي أبداً .

وذهب ، فتمتعه ريرات بعينيهما . وقالت في نفسها « أحب هذا الصبي
كثيراً ، انه يحسن الوقوف في مكانه ، ولا يتعدى حدوده ، لكن له دائماً
كلمة يقوّلها لي ، ليعيرني انتباهاً خاصاً » .

كان رجل نحيل مقوس الظهر ينظر اليها بامعان . فهزت ريرات كتفها وأدارت ظهرها : « إذا أراد الرجل ان يغازل المرأة ، فعليه على الأقل ان ينظف ثيابه . سأجيبه بهذا اذا وجه لي الكلام . واتساءل لماذا لا تذهب . إنها لا تريد أن تؤذي هنري ، هذا جميل جداً : فليس للمرأة الحق بأن تقسد حياتها من أجل رجل عاجز » . كانت ريرات تحتقر الرجال العاجزين . وقررت في نفسها : « عليها ان تذهب ، فإن مسألة سعادتها في الميدان ، سأقول لها بأنه لا يجب ان تضع سعادتها على كف عفريت . لولو ، ليس لديك الحق بأن تتلاعبي بسعادتك . سوف لا أقول لها شيئاً ، لقد انتهت القضية ، وقلت لها مرة انه ليس بالإمكان اسعاد الآخرين رغماً عن إرادتهم » . واحست ريرات بفراغ كبير في رأسها ، كانت شديدة الاعياء ، تنظر الى شراب البورتو المائع في كأسها ، وكأنه نوع من الحلوى السائلة ، ويتردد في ذهنها صوت يقول : « السعادة ، السعادة » لقد كانت كلمة عذبة رصينة وفكرت بأنه لو طلب اليها رأيها في مباراة باريس سوار ، لقاتلت ان تلك الكلمة هي أجمل ما في اللغة الفرنسية . « فهل فكر فيها أحد ؟ » ذكروا : الطاقة ، والشجاعة ، ذلك لأنهم رجال ، أما لو كانت هناك امرأة ، فهي التي تستطيع ان تأتي بتلك الكلمة . كان من الواجب تخصيص جائزتين ، واحدة للرجال فتكون كلمة « شرف » ، وأخرى للنساء فأربح اذ اقول : « سعادة » . فالشرف والسعادة يتلاءمان ، واسم كهذا تمتع . سأقول لها : « لولو لا يمكنك ان تتخلي عن سعادتك . سعادتك يا لولو . « سعادتك » . انا شخصياً اجد بيار ممتازاً ، فهو انسان طيب أولاً ثم انه ذكي ، وهذا لا يفسد شيئاً ، ولديه دراهم ، وسيظل دائم الاهتمام بها . إنه من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يذللون صعوبات الحياة ، وهذا ما يلائم المرأة . احب حسن القيادة كثيراً ؛ لكنه يحسن الكلام مع الخدم وموظفي الفنادق ، فهم يطيعونه ولعل هذا ما ينقص هنري . ثم ان هناك اعتبارات صحية ، فلولو عليها ان تلتبه ، فإن كان جميلاً ان تظل المرأة رقيقة شفافة والا تشعر بالجوع او

النعاس . لكن هذا امر لا وع ، اذا انها بحاجة لاتباعد نظام غذائي ، فلا بأس اذا أكلت قليلا في المرة الواحدة ولكن عليها أن تقوم بهذا عدة مرات . ستتحسن صحتها لو أرسلت الى المصح طيلة عشر سنوات .

وثبتت نظرها حائرة على ساعة جادة مونبارناس الكبيرة ، التي تشير عقاربها الى الحادية عشرة وعشرين دقيقة .

« أنا لا افهم لولو ، فهي ذات مزاج غريب ، لم استطع ابداً ان اعرف ما اذا كانت تحب الرجال ، او انهم يشيرون اشمزازها : ومن الواجب مع ذلك ، ان تكون على وفاق مع بيار ، وهذا ما يغيرها قليلا عما كانت عليه في السنة الماضية » .

لقد تمتعت بهذه الذكرى ، لكنها كتمت ابتسامتها لأن الشاب النحيل كان لا يزال ينظر اليها ، إذ انها فاجأته وهو ينظر اليها وهي تدير رأسها .

كانت راو ذات وجه مثقوب بنقط سوداء ، وكانت لولو تعبت بهذه البثور اذ تضغط على جلدها بالأظافر . « هذا مؤلم ، ولكن ليست هذه غلطتها ، فلولا لا تعرف ما هو الرجل الجميل ، اما انا فأعبد الرجال المتحذلقين ، وقضايهم تبعث في النفس السرور ، قمصانهم ، أحذيتهم ، ربطات أعناقهم . إنه شيء قاس ، لكنه لذيق وقوي ، له قوة عذبة . كرائحة التبغ الانكليزي الذي يدخنونه ، وكرائحة العطر ، ورائحة جلدهم عندما يحلقون ذقونهم . ليس ... ليس جلدهم كجلد المرأة ، فكأنه جلد من قرطبة . وتنقض عليك أذرعهم القوية ؛ نضع الرأس على صدورهم ، فنحس برائحتنا ، رائحة الرجولة . ويتمتعون لك كلنا عذبة . لديهم اشياء جميلة ، أحذية قاسية من جلد البقر ، ويهمسون في أذنك : « يا عزيزتي ، يا عزيزتي الرقيقة » . فنحس بأجسامنا تنهد ؛ وفكرت ربرات بلويس الذي هجرها في العام الماضي فانصر قلبها : « رجل يجب نفسه ولديه الكثير من العادات الصغيرة . وافضل من ذلك رجل في الأربعين ، رجل يعتني بنفسه ، رد الى الوراثة ، شعره الذي

غراه الشيب في الصدغين ، يكون عريض المنكبين ، رياضياً ، لكنه يعرف الحياة حق المعرفة ، وله قلب طيب لأنه أجرى تجربة الألم . ليست لولو سوى صبية صغيرة ، حالفها الحظ فكانت لها صديقة مثلي ، لأن بيار بدأ يميل . فلو ان واحدة كانت في مكانها لعرفت كيف تستفيد . وعندما يكون رقيقاً . معي اظهر بعدم الانتباه ، وابدأ بالحديث عن لولو ، فأجد دائماً كلاماً يرفع من شأنها ، غير انها لا تستحق ما لها من حظ ، انها لاتعي ، أننى لها ان تعيش قليلاً بمفردها كما عشت منذ ان ذهب لويس ، فسأرى ما تعني عودتها وحيدة الى البيت في المساء ، بعد عشاء اليوم ، لترى الغرفة خاوية ، فتموت من شدة رغبتها في الارتقاء على ذراع رجل . ولعلنا نتساءل اين نجد الشجاعة على النهوض صبيحة اليوم التالي ، بغية العودة الى العمل ، مع المحافظة على الاغراء والفرح . في الوقت الذي نفضل فيه الموت على حياة كهذه ... »

ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف . كانت ريرات تفكر بالسعادة ، بالصيف الأزرق ، بصيف السعادة ، بصيف الحب الشائر . وقفزت من مكانها : « تأخرت لولو ثلاثين دقيقة ، وهذا أمر عادي . فهي لن تهجر زوجها قط ، وهي لا تملك إرادة الإقدام على عمل كهذا . في الواقع انها تبقى مع هنري بدافع الاحترام : انها تخوفه ولكن ذلك لا يهم طالما ان الناس ينادونها بقولهم « سيدتي » . لقد فعلت كل شيء من أجلها ، وقلت لها كل ما يجب ان أقوله ، فقباً لها » .

وتوقفت سيارة أمام القبة ، وترجلت لولو منها . كانت تحمل حقيبة ضخمة ، على وجهها مسحة الوقار . وصاحت من بعيد :

— لقد هجرت هنري .

واقتربت ، مقوسة الظهر تحت عبء حقيبتها . وكانت تبسم . فقالت ريرات مدهوثة :

— كيف يا لولو ؟ الا تريد ان تقولي ... ؟

فقلت لولو :

— نعم ، انتهى كل شيء ، لقد رميته .

فقلت ريرات وهي لا تزال على سذاجتها :

— وهل عرف هذا ؟ هل قلت له ؟

فبدا الغضب في عيني لولو وقالت :

— وكيف !

— حسناً ، يا لولو الصغيرة !

وافترضت ريرات ان لولو كانت بحاجة للتشجيع فقلت لها :

— يا له من فعل حسن لقد كنت في غاية الشجاعة .

وأردت ان تضيف قائلة : أرأيت ان هذا لم يكن صعباً . لكنها تماثلت نفسها . بينما كانت لولو تتلقى الأعجاب : كان خداهما محمرين ، وعيناها متأججتين . جلست ووضعت حقيبتها الى جانبها ، كانت ترتدي معطفاً من الصوف الرمادي يشده قشاط جلدي وكنزة صفراء فاتحة ذات عنق مبروم وكانت مكشوفة الرأس : لقد أدركت في الحال هذا المزيج من الملامة والتسليّة ، هذا المزيج الذي عرفت به . كانت لولو توحى لها دائماً بهذا الأثر . وصممت ريرات على القول : « ان ما احبه فيها هي حيويتها » .

وقالت لولو : لقد قلت له كل ما شعرت به .

فقلت ريرات :

— لن اعود عنه ، ولكن ما هو الذي حدا بك الى هذا يا عزيزتي لولو ؟ هل اكلت من لحم الأسد ، مساء امس . كنت مستعدة لأن اقطع رأسي لو لم تتركه .

— ذلك بسبب أخي الصغير . أريد ان يكون عليّ رئيساً ، ولكنني لا

أقبل بأن يس عائلتي ابدأ .

— ولكن كيف تم ذلك ؟

فقلت لولو وهي ترتعد فوق كرسيا :

— أين الصبي . إن صبيان مقهى القبة ليسوا دائما حاضرين عندما ينادونهم .
انه الأسمر الصغير الذي يخدمنا ؟

فقلت ريرات :

— نعم ؟ هل تعرفين انني سيطرت عليه .

— كيف ؟ عليك ان تحذري من امرأة المغاسل ، فهو يعيش دائما الى جانبها . يغازلها ، ولكن هذا ان هو الادعاء ليرى النساء تدخل الغرف الصغيرة . وعندما يخرجن ، ينظر الى اعينهن حتى تحمر وجوههن . وبالمناسبة ، انني اعطيكم مهلة دقيقة ينبغي ان انزل واتصل ببيار ، لأنه سيغضب ! واذا رأيت الصبي ، اطلبي لي فنجانا من القهوة مع الكريما . سأغيب دقيقة ثم أعود واخبركم بكل شيء .

ونفضت ، ثم خطت عدة خطوات وعادت الى ريرات .

— انا سعيدة جداً يا عزيزتي ريرات .

فقلت ريرات وهي تمسك بيدها :

— يا لولو العزيزة .

وافلتت لولو يدها واجتازت الشرفة بخطى وثيدة ونظرت اليها ريرات وهي تتبسم . « لم اكن لأظن انها قادرة على مثل هذه الأمور . وفكرت في نفسها : كم هي سعيدة . وإن كانت تؤاخذ نفسها قليلا . ولو سمعت مني لأقدمت على ذلك منذ مدة طويلة . على كل حال فان لي فضلا في ذلك . في الواقع ، انني أؤثر عليها أشد التأثير .

وعادت لولو بعد لحظات وقالت :

ببار كان جالساً ، يريد تفاصيل حسنة ، وسأعطيه هذه التفاصيل في الحال ، سأتناول طعام الغداء معه . قال إنه بالامكان أن نذهب غداً مساء .

فقال ريرات :

— كم أنا سعيدة يا لولو . اخبريني بسرعة . هل قررت ذلك هذه الليلة بالذات ؟

فقال لولو بتواضع :

— أنا لم اقرر شيئاً ، فالأمر تقرر تلقائياً . ونفرت على الطاولة بعصبية :
« يا صبي ! يا صبي ! انه ليزعجني هذا الصبي » أريد فنجان قهوة مع الكريما .

دهشت ريرات : فلو كانت في مكانها ، تواجه أشياء خطيرة لما اضاعت وقتها في الركض وراء القهوة مع الكريما . لولو امرأة جذابة ، ولكن كم هي نافهة في بعض الأحيان . انها عصفور .

وضحكت لولو :

— لو رأيت هيئة هنري !

فقال ريرات برصانة :

— اتساءل ما يمكن ان تقول والدتك .

فقال لولو باطمئنان :

— امي ؟ ستكون سعيداً جداً . كان سيء الخلق معها ، وقد ضاقت ذرعاً به حتى الآن . كانت تنهيه بأنه أساء تهذيبي ، وانني كنت كذا وكذا ، وانني تعلمت ثقافة من الدرجة الأخيرة . هل تدرين ان كل ما فعلته هو بسببها ؟

— ولكن ماذا جرى بالفعل ؟

— لقد صفع روبير .

— اذاً فروبير أنى الى بيتك .

— نعم . عندما مرّ بنا هذا الصباح ، اذان والنقي تريد أن تعلمه عند غومبين . اظن إنني اخبرتك بذلك . لذا مرّ بيتنا وكنا نتناول طعام الفطور ، فصفعه هنري .

وسألت ريرات بانزعاج ، لأنها كانت تكره الشكل الذي كانت لولو تسرد به قصتها :

— ولكن لماذا ؟

فقالت لولو بغموض :

— تبادل بعض الكلمات ، ولم يسكت الصغير عنها لقد. قابله بعناد. وقال له في وجهه « أيها الوسخ العجوز . وذلك لأن هنري قد نعمته بقصة الأدب طبعاً ، فهو لا يعرف سوى التفوه بهذه الكلمات . عندها نهض هنري ، وكنا نتناول طعام الفطور في الستوديو ، وصفعه صفقة واحدة ، فوددت لو اقتله.

— عندها ، ذهبت ؟

فقالت لولو مدهوثة :

— ذهبت ؟ الى اين ؟

— ظننت بأنك تركته في تلك اللحظة بالذات . اصغي ، يا لولو الصغيرة ، عليك ان تخبريني القصة بالتسلسل ، وإلا فلن أفهم منها شيئاً .

وأضافت وقد ساورها الشك :

— قولي ، هل هجرته فعلاً ، هل هذا صحيح ؟

— أجل ، وها أنا اشرح لك القصة منذ ساعة .

— حسناً . صفع هنري روبير ؟ وبعدها ؟

فقال لولو :

— وبعدها : احتجزته :

يرتدي ثياب النوم ، وهو ينقر
كالقملة ، أما ، اتأقو كنت موجود
بالدم . وتحاصنا . وابتسم لي

ويمر الصبي ، فتمسكه لولو

— إذا ، ها انك اتيت اخيرا ايها الصبي ؟ هلا
فنجانا من القهوة مع الكريما !

كانت ريرات مزعوجة لكنها ابتسمت للصبي ابتسامة مسامرة
الصبي فظل مكفهر الوجه وانحنى الخنائة ملؤها اللوم ، ريرات كرهت
بعض الكره . لم تكن لتستطيع أبدا ان تحسن لهجتها مع من هو دونها ،
فتارة ما تكون شديدة المسامرة ، وطورا جافة جداً .
وبدأت لولو بالضحك .

« اضحك لاني أرى هنري بشباب النوم على الشرفة ، كان يرتجف من البرد .
هل تدرين ماذا فعلت حتى اطبقت عليه ؟ كان في طريق الستوديو ، وروبير
يبكي ، ويقسم . وفتحت النافذة وقلت : « انظر يا هنري ! هنالك سيارة
صدمت بائعة الزهور » . فجاء بالقرب مني : انه يحب بائعة الزهور كثيراً
لانه قالت له انها سويسرية ويظن انها تعشقه . « اين حدث هذا ؟ أين ؟ »
وانسحبت على مهل ، وعدت الى الغرفة واقفلت النافذة . وصحت فيه من
وراء الزجاج :

« ستعلم ألا تكون متوحشاً مع اخي » . تركته اكثر من ساعة على
الشرفة ، كان ينظر الينا بعينين مدورتين ، وقد أزرق لونه من الغضب . أما أنا
فعددت له لسانني واعطيت روبير ملبساً ، وبعدها ، حملت اشياي الى الستوديو

وارتديت ثيابي أمام روبري لاني اعلم أن هنري يكره هذا : كان روبري يقبل ذراعي وعنقي وكأنه رجل ، انه جذاب . تصرفنا كما لو أن هنري كان غائبا . ولسيت أن اغتسل .

فقال ريرات وقد انفجرت ضاحكة :

— هذا مضحك جداً .

وانقطعت لولر عن الضحك وقالت بحدية :

— اخشى أن يكون قد برد كثيراً ، فالمرء لا يلتبه في حالات غضبه . وتابعت بسرور : كان يد لنا قبضة يده ويتكلم طيلة الوقت ، لكنني لم أفهم نصف ما كان يقوله . ثم ذهب روبري وجاء من يراه على تلك الحال فقلت لهم : انظروا الى زوجي ، زوجي العزيز الكبير ، إذا كان يشبه سمكة في مسبح ؟ فحياه هؤلاء من خلال الزجاج مدهوشين .

فقال ريرات ضاحكة :

زوجك في الشرفة والناس في الستوديو . أرادت ان تبحث عن كلمات مضحكة وملونة لكي تشرح المشهد للولو ، وفكرت بأن لولو لا تعرف معنى الضحك . ولكن الكلمات لم تأت .

فقال لولر :

— وفتحت النافذة فدخل هنري . وقبلني على مرأى منهم . وأخذ يمازحني ، انه يريد ان يمثل معي دوراً ، وابتسمت . وابتسم الجميع . لكنهم عندما ذهبوا ، لطمني بقبضة يده على أذني . عندها اتيت بفرشاة وألقيت بها على زاوية فمه . فانشقت شفتاه .

فقال ريرات بحنو :

— يا لولو المسكينة .

لكن لولو دفعت بمركنها كل مسارية . وانتصبت وعلى سبائها الغضب ،
بينما راحت عيناها تشعان كالبرق :

— عندها افصحنا عن كل شيء . غسلت شفتيه بنشفة ، وقلت له انني ضقت
به ذرعاً ، وبأنتي لا أحبه ، وأريد الذهاب . فأجش بالبقاء وقال انه
سيقتل نفسه . لكن احابيله لم تعد تنطلي عليّ : هل تذكرين يا ريرات ، في
السنة الماضية أثناء المناوشات مع الريناني ، كان يقول لي في كل يوم : ستقع
الحرب . لولو ، سأذهب وأموت ، وستأسفين عليّ ، وستندمين على كل
ما أقدمت عليه تجاهي . ما « بهم لو قلت له انك عاجز » . ومع ذلك ،
هدأت من روعه ، لأنه فكر بأن يقفل عليّ الباب في الاستوديو ، فاقسمت له
بأنني لن اذهب قبل شهر . بعدها ، حضر الى مكتبه ، وكانت عيناها حراوين ،
ولم يكن جميلاً . أما انا ، فقممت بأعمال البيت ، وضعت العدس على النار
وأحضرت حقيقتي . وتركت له خطاباً على طاولة المطبخ :

— ماذا كنت تكتنين له ؟

فقال لولو بفخر :

— كتبت قائمة : العدس على النار . تناول طعامك واطفئ الغاز . لحم
الخنزير المحفف في البراد . اما انا فضقت ذرعاً . الوداع .

وضحكت الاثنان معاً بقوة حتى التفت صوبها المارة . وفكرت ريرات
بأن منظرهما سيكون جذاباً وندمت على عدم جلوسها في شرفة الفيل او في مقهى
السلام . ولما فرغت من الضحك ، سكتتا ، ورأت ريرات انه لم يبق شيء
يستحق الذكر . فاحست ببعض الحيرة .

فقال لولو وهي تنهض :

— علي أن انقذ نفسي . سألاقي بيار ظهراً . ماذا ينبغي ان افعله
بحقيقتي ؟

فقلت ريرات :

- اتركها لي ، سأسلمتها في الحال الى امرأة المغاسل . متى أراك ثانية ؟
- سأاتي لآخذك من بيتك في الساعة الثانية ، فلدي الكثير من الأعمال
بصحبتك : فانا لم آخذ سوى نصف أغراضي ، يجب على بيار أن يعطيني
نقوداً .

وذهبت لولو ، فنادت ريرات الخادم . أحست بأنها شديدة الوقار
والحزن . وأسرع الصبي : لاحظت ريرات بأنه يأتي مسرعاً عندما تناديه هي .
وقال لها :

- خمسة فرنكات . وأضاف بهيئة جافة :

كنتا مسرورتين معاً ، فقد سمع ضحكنا الى تحت .
وفكرت ريرات بتأن :
« لعل لولو مست شعوره » .

وقالت بعد ان احمر وجهها :

- صديقتي عصبية المزاج هذا الصباح فقال الصبي :
- انها جذابة . اشكرك يا آنستي .

ووضع في جيبه الفرنكات الستة وذهب . ودهشت ريرات بعض الدهشة
وفكرت بأن هنري سيعود الى بيته ويعثر على خطاب لولو : كانت لحظة
مقعمة بالسعادة بالنسبة اليها .

قالت لولو لأمانة الصندوق :

- أريد ان يرسل كل هذا قبل مساء الغد الى فندق المسرح في شارع
فاندام . ثم اتجهت نحو ريرات :
- كفى يا ريرات فسنضعها هنا .
فقالت امينة الصندوق :

— ما هو الاسم ؟

— مدام لوسيان كرسبان .

وألقت لولو معطفها على ذراعها وراحت تركض . ونزلت راكضة درج الساماراتان . كانت ريرات تتبعها . كادت تقع عدة مرات لأنها لم تكن تنظر الى رجلها . لم تكن تنظر لسوى الطيف الأزرق والاصفر الهادئ الذي كان يرقص أمامها ! « صحيح أن لها جسماً بعيداً عن الحشمة » . في كل مرة كانت ريرات ترى فيها لولو من الخلف أو جانبياً ، تقف مشدودة أمام جسمها غير المحتشم بدون ان تشرح لنفسها السبب . انه انطباع . « انها رقيقة لينة » لكن فيها شيئاً بعيداً عن الحشمة ، فلن اتحلى عن هذه الفكرة . تقول انها تخجل من مؤخرتها وهي ترتدي « التنورة » الضيقة التي تبرز تلك المؤخرة . إن مؤخرتها صغيرة ، اصفر من مؤخرتي بكثير ، لكنها بارزة أكثر . فهي مستديرة من تحت كليتيها الهزيلتين ، وهي تملأ التنورة تماماً . ثم إنها تحسن الرقص .

واستدارت لولو ، وتبادلنا الابلسام . فكرت ريرات يحسم صديقتها الفاضح بنوع من عدم الرضى : نهذان ناهضان ، ولحم مصقول احمر — حين يلامس يظن انه صنع من المطاط وساقان طويلتان ، وقامة مديدة ، وأطراف طويلة . وفكرت ريرات في نفسها : « انه جسم زنجية » فهي تشبه زنجية رقص الرمبا . قرب الباب لاحظت ريرات صورتها تنعكس ، وفكرت في نفسها ، وهي تمسك بذراع لولو : « انا رياضية أكثر من لولو » لكنها ابلغ أثراً عندما نكون لابستين ثيابنا ، ولكنني اجمل منها عارية .

وظلنا للحظة صامتتين ، ثم قالت لولو :

— بيار كان جذاباً . انت أيضاً كنت جذابة يا ريرات ، فانا اشكركما اننا الاثنتين .

قالت هذا بلهجة المتضايقة ، لكن ريرات لم تنتبه لها ، لم تعرف لولو قط .

ان تشكر ، فقد كانت شديدة الحجل .

واضافت لولو فجأة : « هذا يزعجني ، ولكن عليّ ان اشترى صدرية » .

فقال ربرات : — من هنا ؟ فقد كانتا قرآن امام دكان لبيع الثياب
— كلا . تذكرت لانني رأيت . وبالنسبة للمصداري فأنا اقصد محل

فيشر . وهتفت ربرات :

— من جادة مونبارناس ؟ وتابعت كلامها بحدية :

— اصغي يا لولو ، عليك الا تترددي كثيراً على جادة المونبارناس خصوصاً

في هذه الساعة : سيقع نظرنا على هنري ، وهذا أمر مزعج .

وقالت لولو وهي تهز كتفها .

— على هنري . كلا . لماذا ؟

واستبد الغضب ربرات فاحمر خداهما وصدغاهما :

— انت لا تزالين على حالك يا لولو الصغيرة ، فحين لا يروق الأمر لك ، تعمدين

الى نفيه ، بكل سهولة . ألست ترغبين في الذهاب الى محل فيشر ، فتؤكدين لي

ان هنري لا يمر في جادة المونبارناس . وانت تعرفين حق المعرفة انه يمر من

هناك ، كل يوم في السادسة ، فهذا هو طريقه . وانت التي قلت لي ذلك

ينفسك : فهو يصعد في شارع الرين وينتظر في زاوية جادة رسباي .

فقال لولو :

— أولاً ، ليست الساعة الخامسة الآن ثم انه ، قد يكون غائباً عن

مكتبه : فبعد الكلمة التي وجهتها اليه لا بد وان يعتمد للراحة .

فقال ربرات فجأة :

— ولكن يا لولو ، هناك محل آخر لفيشر ، ليس بعيداً عن الأوبرا في

شارع الرابع من ايلول .

فقال لولو بوجه عديم الارادة :

- نعم يا لولو ، ولكن علينا ان نذهب الى المحل الاول .
 - آه ! كم انني احبك يا صغيرتي لولو ؟ ينبغي ان نذهب الى المحل الاول ؟
 ولكن هذا المحل على بعد خطوتين ، فهو اقرب بكثير من جادة المونبارناس .
 - لا احب ما يبيعونه هنا .

وفكرت ريرات في نفسها بأن جميع محلات فيشر تبيع الاصناف نفسها .
 لكن لولو كانت تصر اصراراً لا يفهم . فهنري هو آخر من ترغب في رؤيته في
 الدنيا في هذا الوقت ، ومع ذلك فهي تتصرف وكأنها تريد ان ترمي
 عند رجله .

وقالت باصرار :
 - حسناً ، فلنذهب الى مونبارناس ، وعلى كل حال فان هنري فارح الطول
 وسنراه قبل ان يرانا .

وتابعت لولو :
 - ثم ماذا ؟ اذا صادفناه ، نكون قد صادفناه وكفى ، فلن يأكلنا .
 اصررت لولو على بلوغ مونبارناس مشياً ، قالت إنها بحاجة لتنشق الهواء .
 أخذتا طريق السين ، ثم شارع الأوديون وشارع فوجيرار . وامتدحت ريرات
 صفات بيار وبينت للولو كيف انه كان رائعاً في هذه الفرصة .

فقال لولو :
 - كم احب باريس ، سأسف عليها كثيراً .
 - اسكتي يا لولو ، سنحت لك الفرصة بالذهاب الى نيس وتندمين على
 ايام باريس .
 لم تجب لولو بشيء ، بل أخذت تنظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة
 حزينة تأثمة .

وعندما خرجتا من محل فيشر كانت الساعة تشير الى السادسة .

اخذت ريرات لولو بكتفها وأرادت ان تسير بها بأقصى سرعة . لكن لولو توقفت أمام محل بومان بائع الورود .

— انظري الى هذه النباتات الصحراوية يا صغيرتي ريرات . فلو كانت عندي قاعة استقبال كبيرة ، لوضعت هذه النباتات في كل مكان فيها .

فقالته ريرات :

— أنا لا احب الورود في الحزف . كانت ساخطة . وأدارت وجهها ناحية شارع الرين ، فرأت بالطبع ، طيف هنري الطويل . كانت مكشوف الرأس يرتدي سترة عادية بلون كستنائي . وريرات تكره هذا اللون .

وقالته على عجل :

— ها هو يا لولو . ها هو .

فقالته لولو :

— أين ؟ أين هو ؟

لم تكن أكثر هدوءاً من ريرات .

— انه وراءنا على الرصيف الآخر . فلنذهب ولا نتطلمي الى الورا .

واستدارت لولو رغم ذلك الى الورا وقالته :

— ها انني أراه .

حاولت ريرات أن تجرّها لكنها تجمدت ، واخذت تنظر بامعان نحو

هنري . وقالته أخيراً :

— أظن انه رآنا .

وظهر عليها الخوف فأطاعت ريرات وتابعت طريقها .

فقالته ريرات لاهثة :

— والآن بحق الساء يا لولو ، لا تنظري الى الورا . سندور في الشارع

التالي نحو اليمين ، انه شارع دلامبر .

كانتا تسيران على عجل وتدفعان المارة . كانت لولو تتباطأ حيناً ، وتجبر

ريرات حينئذ آخر . وقبل ان تصلا الى زاوية شارع دلامبر حتى أبصرت ريرات ظلاً اسمر وراء لولو . ففهمت أنه هنري كان وبدأت ترتجف من الغضب . أما لولو فظل جفناها منخفذين ، وعليها سماء الممالة . « انها تأسف لقلة درايتهما لكن الوقت متأخر ، فلتحسن النتائج » .

وحشنا الخطى . فتبعها هنري بدارن ان يقول كلمة واحدة . وقطعتا شارع دلامبر وتابعتا المسير في اتجاه المرصد . كانت ريرات تسمع قرقرة حذاء هنري ، كما تسمع نوعاً من الحشرة المتقطعة . كان لهاث هنري . (هنري لهائه قوي منذ البداية ولكن ليس الى هذا الحد : إذ انه ركض حتى لحق بها او انه اثر الانفعال) .

وفكرت ريرات . ينبغي أن تنصرف كما لو انه ليس هنا . وان تتجاهل وجوده . لكنها لم تستطع عدم النظر اليه بطرف بصرها . كان أبيض كقطعة القماش البيضاء ، يخفض حاجبيه الى الأرض وكأنه يغمض عينيه . وفكرت ريرات في نفسها بنوع من الخوف : « لعله مروبص » كانت شفتا هنري ترتجفان ، وعلى شفته اليمنى قطعة من القماش الناعم ترتجف معه أيضاً . ولهائه ، لهائه الذي ظل على حاله مبجوحاً ، بات ينتهي الآن بنوع من الموسيقى التي تنبعث من المنخرين . احسست ريرات بالضيق : لم تكن لتخشى هنري لكن المرض والعاطفة يخيفانها الى حد ما . وما هي اللحظة ، حتى قرب هنري يده برفق وبدون ان يتطلع وأمسك بذراع لولو . فقلبت لولو نفسها وكأنها تهم بالبكاء وافتلت منه مرتعشة فقال هنري :

- يوف ه

واعترت ريرات رغبة جاعحة في التوقف . لكن لولو كانت تركض . فهي أيضاً تبدو وكأنها مروبصة . وفكرت ريرات انها لو افلقت ذراع لولو وتوقفت لاستمرا في مسيرها جنباً الى جنب ، ابكين ، شاحبي اللون كأموات مغمضي الأعين .

بدأ هنري بالكلام ،
قال بصوت مضحك مبجوح :
— عودي معي .
لم تردّ لولو عليه . فتابع هنري بنفس الصوت المبجوح :
— انت زوجتي . عودي معي .
فقال ريرات من بين اسنانها :
— انت ترى تماماً انها لا تريد العودة . فدعها وشأنها .
ولم يبد انه سمعها . بل اخذ يكرر :
— انا زوجك وأريد ان تعود معي .
فقال ريرات بصوت حاد :
— أرجوك ان تتركها وشأنها ، فلن تكسب شيئاً بازعاجها على هذه
الصورة . اذهب من هنا .
فأدار نحو ريرات وجهاً مدهوشاً وقال :
— انها زوجتي ؟ انها لي ، وأريد ان تعود معي .
تمسك بذراع لولو ، ولولو لم تفلت هذه المرة . فقامت ريرات :
— اذهب من هنا .
— لن اذهب . سأتبعها الى اي مكان ، اريد ان تعود الى المنزل .
كان يتكلم بعناء . وفجأة كثر عن اسنانه وصرخ بكل قواه :
— انك لي أ
فاستدار بعض الناس نحوه ضاحكين . بينما كان هنري يمز ذراع لولو
مهمباً كحيوان وهو يزم شفثيه . ومن حسن الحظ ، مرت سيارة فارغة .
أشارت لها ريرات بالوقوف . فوقف هنري ايضاً . وأرادت لولو ان تتابع
مشيتها فشدّها كل منها بذراع .
فقال ريرات وهي تجر لولو نحو الطريق :
— ينبغي ان تفهم انه ليس بالامكان ان تعود اليك بوسائل العنف هذه

فقال هنري وهو يحيرها باتجاه معاكس :

— اتركها ! اترك زوجتي .

كانت لولو رخوة كحزمة القماش .

وصاح السائق :

— هل تريدون الصعود أم لا ؟

وتركت ريرات ذراع لولو وامطرت يد هنري برابل من الضربات . غير انه لم يكن يحس بها . وما هي إلا هنية حتى تركها وراح ينظر نحو ريرات كالمعتوه . نظرت اليه ريرات ايضاً . كانت تجد صعوبة في استجماع افكارها ، كما اجتاحتها ألم عميق . بقيا على هذه الحال لعدة ثوان . كان كلاهما يلهث . ثم عادت ريرات لتتالك نفسها ، فامسكت لولو وجرتها الى السيارة .

فسأل السائق :

— الى اين نذهب ؟

وتبعها هنري . كان ينبغي ان يستقل السيارة معها .

لكن ريرات دفعته عنها بكل قواها واغلقت الباب بعنف . وقالت للسائق :

— هيا اذهب ، سندلك على العنوان فيما بعد .

وسارت السيارة ، فتراخت ريرات في وسطها . وفكرت في نفسها :

« يا للدناءة ! كانت تكره لولو » .

وسألت بمذوبة :

— الى اين تريدن الذهاب ، يا صغيرتي لولو ؟

ولم تجب لولو . فأحاطتها ريرات بذراعا وقالت بلهجة مقنعة :

— عليك ان تجيبيني . أتريدن ان اضعك عند بيار ؟

وقامت لولو بحركة اعتبرتها ريرات دالة على الازعان . وانحنى الى الامام :

— ١١ شارع الماسين .

ولما عادت ريرات الى وضعها السابق ، كانت لولو تنظر اليها بوجه

غريب .

وبدأت ريرات .

— ما الذي ...

فصاحت اولو :

— انني اكرهك . وأكره بيار ، وأكره هنري . ماذا تريدون مني جميعاً؟
أنكم تعذبونني .

وتوقفت على عجل واضطربت جميع ملاحظاتها . فقالت ريرات بوقار
هاديء :

— ابكي ، ابكي ، فسينفعلك البكاء .

وانطوت لولو على نفسها واخذت تبكي . فأخذتها ريرات بذراعيها
وضمتها الى صدرها . كانت تداعب شعرها من وقت لآخر . لكنها كانت تحس
في داخلها بالبرود والاحتقار . ولما توقفت السيارة ، كانت لولو هادئة ، فمسحت
عينها ووضعت المسحوق على وجهها . وقالت بلطف :

— اعذريني ، كنت متوترة الأعصاب . لم أكن اطيع رؤيته على تلك الحال ،
لقد كان يؤذيني .

فقالت ريرات وقد عاودتها البشاشة :

— كان يشبه الأورانج أوتانج .

وابتسمت لولو .

وسألتها ريرات :

— متى أراك ثانية ؟

— أوه ، ليس قبل الغد . أنت تعرفين ان بيار لا يستطيع ايوائي بسبب
أمه ؟ فأنا في فندق المسرح . بإمكانك ان تأتي في وقت مبكر ، نحو الساعة
التاسعة ، اذا كان هذا لا يزعجك ، لأنني ذاهبة لمقابلة أمي بعد ذلك .

كانت بيضاء شاحبة ، وفكرت ريرات بكآبة بالسهولة التي تتفكك بها
ريرات وقالت :

— لا تشغلي بالك كثيراً هذا المساء .

فقلت لولو :

— أنا متعبة جداً ، وأتمنى ان يتركني بيار لأعود في ساعة مبكرة . لكنه
لا يفهم هذه الأمور .

وأبقت ريرات السيارة بانتظارها لتقتادها الى بيتها . وفكرت للحظة بأنها ستذهب
الى السينما لكنها لم تعد تتحمل ذلك . فألقت قبعتها على كرسي ومشت خطوة
نحو النافذة . لكن السرير كان يجتذبا ، ببياضه ، وعذوبته ، وليونته . فمل
تقفز فوقه لتستمتع بمداعبة الوسادة على خديها المحترقين . « انا قوية » ، فأنا التي
فعلت كل شيء من اجل لولو والآن أراني وحيدة ليس يوسع احد ان
يفعل شيئاً من أجلي . كانت تشفق على نفسها كثيراً ، ولشدة شفقتها تصاعدت
الى حنجرتها زحمة الدموع . « سيذهبان الى نيس وسوف لا أراهما بعد الآن . فأنا
الذي صنعت سعادتهما ، لكنها لن يفكرا بي . وأنا اظل هنا اعمل ثماني ساعات
في اليوم ، في بيع اللآلئ المزيفة عند بورما » . ولما انحدرت أوائل الدموع على
خديها ، ارتجت برفق فوق سريرها ، وكررت وهي تبكي بمرارة :

— الى نيس ... الى نيس ... الى الشمس ... على الريفيرا .

- ٣ -

« بواه ! »

ليل أسود . فكان أحداً كان يمشي في الغرفة : إنه رجل يضع في رجله خفين . كان يقدم بعناية قدمه الأولى ويتبعها بالثانية ، بدون أن يتمكن من تجنب القرقعة على الأرض . يتوقف ، فيعمّ الصمت ، ثم لا يلبث أن يطير الى جانب الغرفة الآخر متابعاً مشيته كالمعتوه . وكانت لولو تشعر بالبرد ، إذ ان الأغشية خفيفة جداً . وقالت « بواه ! » بصوت عال فخافت من صدى صوتها .

بواه ! أنا متأكدة من أنه يتطلع الآن الى السماء والنجوم ، ويشعل سيكارة ، وهو في الخارج . وقال إنه يحب اللون البنفسجي في سماء باريس . ويعود الى بيته بخطى وثيدة ، ويحسّ بأنه شاعري عندما يقوم بهذا العمل ، كما قال لي وبأنه رشيق كبقرة يجلبونها ؛ لم يعد يفكر بهذا وأنا أشعر انني تلتطخت . ولا يعني أن يكون طاهراً في هذه اللحظة ، فقد ترك قذارته هنا في الظلام ، وهذه منشقة اتسخت ، والغطاء رطب وسط السرير ، فليس بإمكانني أن امد رجلي لأنني سأشعر بالرطوبة تحت جلدي ، يا للقدارة ، لكنه جاف هو ، سمعته يصفر تحت نافذتي عندما خرج . كان تحت النافذة ، جافاً ونشطاً في ثيابه الزاهية ، بسترته نصف الفصلية ، وينبغي أن نعتز أنه يحسن هندامه ، ويمكن للمرأة ان تفخر بالخروج معه . كان تحت نافذتي ، وأنا عارية

في الظلام ، أشعر بالبرد ، وأفرك بطني بيديّ لأنني كنت احس بالرطوبة .
 « سأصعد دقيقة لأرى غرفتك » . ظل ساعتين ، والسرير يحدث صريراً .
 يا له من سرير حديدي قذر . اتساءل في نفسي ما الذي جعله يعثر على هذا
 الفندق ، قال لي انه امضى فيه خمسة عشر يوماً في الماضي ، وبأنني سأرتاح
 فيه ، إنها غرف مضحكة ، رأيت منها اثنتين ، لم أرقط غرفاً بهذا الصغر ،
 تعج بالآثاث ، فيها طنافس وكنبات وطاولات صغيرة ، هذا يجعل الحب منتناً ،
 لا أدري اذا أمضى فيه خمسة عشر يوماً ؛ لكنه لم يمض هذه الأيام بفروده .
 ينبغي ألا يفرط في احترامي لأنه ألتصق بي في الداخل . كان صبي الفندق يهذر
 عندما سعدنا ، انه جزائري ، انني أكره هذا الشخص وامثاله ، لقد نظر الى
 ساقي ، وبعدها عاد الى المكتب ، وقال في نفسه : « حصل الأمر ، انهم
 يقومون بهذا » وتخليل أشياء قذرة ، يبدو أن ما يفعلونه هناك مع النساء ،
 خفيف . فاذا وقعت امرأة تحت ايديهم لا بد وأن تظل عرجاء طيلة حياتها .
 وفي الوقت الذي كان يبار يزعجني فيه فكرت بهذا الجزائري الذي فكر بما
 أقوم به ، وتصور قذارات تفوق القذارات التي حصلت فعلاً . هناك شخص
 ما في الغرفة !

وضبطت لولو تنففسها ، لكن القرعة انقطعت فجأة . أشعر بألم بين
 فخذي ، يتأكلني ويحرقني ، لدي رغبة بالبكاء ، هكذا طيلة ليلالي إلا في
 الليلة القادمة لأننا نكون آنئذ على متن القطار . وعضت لولو على شفتها
 لأنها تذكرت انها تنهدت . ليس صحيحاً ، انا لم اتنهد ، بل تنفست بقوة ،
 ولأنه ضعيف السمع بحيث انه حين يكون فوق يقطع لي نفسي . قال لي :
 « تتنهدين ، تلتذنين ! » ، أكره الكلام كثيراً عند القيام بهذا العمل ، أريد
 ان انسى نفسي ، لكنه لا ينفك عن سرد سفاهاته . انا لم اتنهد في البدء ،
 وان كنت لا استطيع ان آخذ اللذة ، وهذا أمر واقع ، فالطبيب هو الذي
 قال لي ذلك ، إلا اذا اجتلبتها لنفسي . إنه لا يريد ان يصدق ، وهم جميعاً لا
 يريدون ان يصدقوا ، كانوا يقولون لي : « ذلك لأن البداية سيئة ، انا

سأعلمك اللذة » . وكنت اسمح لهم بذلك ، فأنا اعرف القصة حق المعرفة ، وهذا سبب طيب ؛ لكن هذا يثير أعصابهم .

كان أحدهم يصعد الدرج، ذاك الذي يهجم بالدخول، إلا اذا كان هو نفسه قد عاد. فهو مستعد لذلك إذا دفعته الرغبة. ليس هو، إذ ليست هذه خطى ثقيلة - أو لعله - وهنا قفز قلب لولو في صدرها - الجزائري ، فهو يعلم انني وحدي ، سيأتي ويدفع الباب ، انا لا استطيع احتمال هذا . انه في الطابق الاسفل ، انه شخص يعود الى غرفته ، يضع مفتاحه في ثقب الباب ، يلزمه بعض الوقت ، انه ثمل ، أتساءل من يسكن هذا الفندق ، فيه شيء خاص . صادفت بعد الظهر شقراء على الدرج ، عيناها كميني المدمن على المخدرات . لم أتهدأ إلا انه جعلني اضرب بأشياءه تلك ، انه يحسن العمل . وانا أخاف الأشخاص الذين يحسنون العمل فأنا افضل ان أنام مع رجل طاهر . فاليدان اللتان تذهبان توأ الى المكان المطلوب ، اليدين اللتان تلامسان وتشدان قليلا، وليس كثيرا جداً... يدان تعتبرانك آلة يفخرون بأنهم يحسنون اللعب بها . انا أكره ان يهزني احد ، إن بلعومي قد جف ، كما انني خائفة وفي فمي طعم ، وأشعر بالذل لأنهم يعتقدون بأنهم يسيطرون عليّ . بيار ، سأصفعه عندما يقول مفاخرأ : « عندي اسلوب فني » . رباه ، أن نقول ان هذه هي الحياة ، ومن اجل هذا نفعل وتنجعل . وكل الروايات كتبت من اجل هذا ، ويفكر الناس بهذا طيلة الوقت ، واخيراً ليس هذا سوى أمر بسيط ، ان نذهب مع شخص الى غرفة ، شخص يخنقك نصف اختناق ويبلل جوفك في النهاية . أريد ان أنام ، أود لو استطيع فقط ان انام قليلا ، وغداً سأسافر الليل بطوله ، سأكون محطمة . أود مع ذلك ان أحافظ على بعض نشاطي لالتجول في نيس . يبدو انها جميلة ، فيها شوارع إيطالية صغيرة وغسيل ملون يحف في الشمس ، سأقيم مع الركيزة وأرسم ، وستأتي الفتيات الصغيرات ليرين ما اصنعه . يا للقدارة ! (كانت قد تقدمت قليلا فلامست خاصرتها بقعة الغطاء المبللة) . من اجل هذا هو يصطحبني . لا ،

لا احد يحبني . كان يسير بجوارى ، وكانت قواي خائرة انتظر كلمة من كلمات الحب ، فلو قال : « احبك » . لما عدت بالطبع اليه ، غير انني أقول له أنتذ قولاً لطيفاً ، وهكذا نفترق كأصدقاء طيبين ، وانتظرت ، وانتظرت ، فأخذ ذراعي فتركها له . ففغضبت ريرات ، اذليس صحيحاً انه يشبه الأورانج أوتانج ، لكنني كنت أعرف انها تفكر بشيء كهذا ، اذ تنظر اليه شذراً بعينين قدرتين ؛ انه لمدھش جداً ان تكون قادرة على الشرائى هذا الحد ؛ ورغم هذا ، حين أخذ ذراعي لم أقاوم ولكن لست « أنا » التي كنت أريد ، فهو يريد « أمراة » لأنه اقترن بي وهو زوجي ؛ كان ينقص دائماً من قدري ويقول إنه اكثر مني ذكاء ، وكل ما حصل انما حصل بسببه ، فلو عالممني من غير تكبر لبقيت معه حتى الآن . أنا متأكدة من انه لا يأسف عليّ في هذه اللحظة فهو لا يبكي بل يشخر ، وهذا كل ما يعمل ؛ انه مسرور لأن السرير أصبح له وحده ؛ وبماكانه ان يمدّ عليه ساقيه الضخمتين . أريد ان أموت . لم يكن بوسعي ان اشرح له شيئاً لأن ريرات كانت بيننا ، تتحدث وتتحدث ، وكأنها هستيرية . انها مسرورة في الوقت الحاضر ، راضية عن نفسها لما أبدته من شجاعة ، يا للخبث ، تجاه هنري الوديع كالحمل . سأذهب . فليس بإمكانهم ان يرغموني على هجره كالكلب . وقفزت خارج السرير وأدارت الزر . جورباي وغلاطي تكفي . ولم تكلف نفسها عناء تسريح شعرها ، فهي مستعجلة من جهة ؛ والناس الذين سيرونها لن يدركوا انها تحت معطفها الرمادي ، الذي ينزل حتى القدمين . والجزائري - وهنا توقفت وقلبها تحفق بشدة - عليّ ان أوقظه ليفتح لي الباب . ونزلت بخطى خشيئة لكن الدرجات أخذت تقرقع واحدة واحدة ؛ ونفرت على زجاج المكتب . فقال الجزائري : « ما هذا ؟ » كانت عيناه مائلتين للأحمرار وشعره مبعثراً ، ولم يكن يبدو عليه سياء الرهبة .

فأقلت لولو يجفاف : « افتح لي الباب » .

وما هي إلا ربع ساعة حتى طرقت باب هنري . فسال هنري من

وراء الباب :

- من هنا ؟

- أنا .

لم يجب بشيء ، فهو لا يريد ان يسمح لي بالدخول الى بيتي . لكنني سأضرب على الباب حتى يفتحه ، سيعود عن اصراره بسبب الجبرات . وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب قليلا وبدأ فية هنري ، شاحب اللون على أنفه نقطة احمرار بسيط ، كان بلباس النوم .

وفكرت لولو بخنو : « انه لم يئم » .

« لم اكن أريد الذهاب على هذا الشكل ، أردت أن أقابلك » .

لم يقل هنري شيئا . قدخلت لولو بعد أن دفعته قليلا . ونظر الي بعينين مدورتين وذراعين خائرتين وهو لا يدري ما عليه أن يفعل بجسمه . اسكت ، اذهب ، اسكت ، أرى تماما أنك متأثر وبأنك لا تستطيع الكلام . وأجهد نفسه ليلعب ، واقفلت لولو الباب . وقالت :

- أريد ان نهجر بعضنا ونظل اصدقاء .

وفتح فمه وكأنه يريد الكلام ، ودار فجأة حول نفسه وهرب . ماذا يصنع ؟ لم تجرؤ على اللحاق به . هل انه يبكي ؟ سمعته فجأة يسعل : انه في المراض . وسحين عاد ، تعلقت بعنقه وألصقت فمها بفمه : كانت تفوح منه رائحة القيء . وأجهشت لولو بالبكاء . وقال هنري :

- اني اشعر بالبرد .

فاقترحت عليه باكية :

- فلنئم ، بإمكانني ان ابقى الى صبيحة الغد .

وتاما ، وهزّت لولو الدموع المنهمرة لأنها عادت الى غرفتها والى سريرها

الجميل التنظيف والضوء الأحمر في الزجاج . وفكرت بأن هنري سيأخذها بين ذراعيه . لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، كان ينام على طول السرير وكان فيه وتدأ . كما انه جامد وكأنه يتحدث الى سويسري . أمسكته برأسه بكلتا يديها ونظرت إليه بامعان . « انت طاهر انت ، انت طاهر » . فأخذ يبكي . وقال :

— كم انا بائس ، لم اكن قط بائساً الى هذا الحد .

فالتت لولو :

— وأنا كذلك .

وبكيا طويلا . وما هي إلا هنية حتى اطفأت النور ووضعت رأسها على كتفه . لو كان باستطاعتنا البقاء على هذه الحال الى الأبد طاهرين كشيئين كالآيتام . لكن هذا مستحيل ، لأنه لا يجري في الحياة . كانت الحياة ، كانت الحياة كهوجة ضخمة تدوب فوق لولو وتنتزعها من بين ذراعي هنري . يدك . يدك الكبيرة . انه فخور بيديه لانها كبيرتان ، يقول ان المتحدرين من الامر العريقة لهم دائما أطراف كبيرة . لم يأخذ قامتي بين يديه — كان يدغدغني قليلا لكنني فخورة لانه أصبح بإمكانه ان يضم أصابعه الى بعضها . وليس صحيحاً انه عاجز ، انه طاهر ، طاهر — وخامل نوعاً ما . وابتمت من خلال دموعها وقبلته على ذقنه . وقال هنري :

— ما ينبغي ان اقوله لأهلي . سموت والدتي من هول الخبر .

لن تموت مدام كرسبان من الخبر ، بل بالعكس ستتصر . سيتحدثان عني عندما يجلسان الى المائدة في الخامسة ، وعليها سياء الملامة ، كالناس الذين يريدون ان يقولوا اشياء كثيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك ، بسبب وجود تلك الفتاة الصغيرة ، وهي في السادسة عشرة ، وليس بالامكان أن يتحدثوا أمامها عن بعض الأمور . ستضحك لأنها ستعرف كل شيء ، وهي تعرف

دائماً كل شيء وتمقتني . كل هذا الوحل ! والظواهر ليست الى جانبي -
ورجته لولو :

- لا تخبرهم في الحال ، تدلهم انني ذهبت الى نيس من أجل صحي .
- لن يصدقوني .

وقبلت هنري قبيلات صغيرة على طول وجهه .

- هنري لم تكن لطيفاً ما فيه الكفاية معي .. فقال هنري :

- هذا صحيح ، لم اكن لطيفاً ما فيه الكفاية .

وأضاف معلقاً :

- ولا انت ، كنت لطيفة بما فيه الكفاية .

فقال لولو :

-- وأنا كذلك ! هو ؟ يا لنا من تعيين !

وبكت بقوة الى حد انها كادت تحتنق : سويغات ويطلع النهار ، وستذهب
ليس بالامكان ان يفعل المرء ما يريد ، بل انه مساق .

وقال هنري :

- لم يكن ينبغي ان تذهبي على هذه الصورة .

وتنهدت لولو :

- كنت أحبك كثيراً يا هنري .

- والآن ، اقلعت عن حبك لي ؟

- ليس كما في السابق .

- وبصحبة من مستهبين .

- مع اشخاص لا تعرفهم .

فقال هنري بغضب :

— كيف انك تعرفين أشخاصاً لا أعرفهم ، فأين قابلتهم ؟
— دع عنك هذا يا عزيزي ، يا جلف الصغير ، فما عليك ان تقوم بدور
الزوج في هذه اللحظة !

فقال هنري باكياً :

— تذهبن مع رجل !

— اصغ يا هنري ، اقسم لك ، انني لا أذهب ، اقسم لك على رأس امي ،
فالرجال يشيرون اشمئزازي كثيراً هذه الايام . فانا أذهب مع اصدقاء ريرات ،
وهم متقدمون في السن . اريد ان اعيش وحيدة ، سيجدون لي عملاً . أوه
يا هنري ؟ لو تدري كم انا بحاجة للعيش بغفدي ، ولسم يشيرون اشمئزازي
بكل هذا .

فقال هنري :

— ماذا ؟ ما هو الذي يشيرون اشمئزازك ؟
— كل شيء !

وقبلته :

— انت وحدك الذي لا تثير اشمئزازي يا عزيزي .

وأنزلت يدها تحت بيجاما هنري وداعبت جسمه بجميع انحاءة . فارتعش
تحت يديها الباردتين لكنه قبل بذلك ، إلا انه قال :

— ساصاب بإذى .

— كان فيك ولا شك شيء منكر .

في الساعة السابعة ، نهضت لولو ، وقد تورمت عيناها من شدة البكاء ،
وقالت بأعياء :

— عليّ أن اعود الى هناك .

— اين هناك ؟

— انا في فندق المسرح في شارع فاندام . انه فندق قذر .

— ابقني معي .

— كلا يا هنري ارجوك ، لا تلح عليّ ، قلت لك ان هذا مستحيل .

— ان الامواج هي التي تحملك ، انها الحياة . وليس بإمكاننا ان نطلق

الاحكام ، ولا ان نفهم الامور ، وما علينا الا ان ندع الامور تجري . وغداً سأذهب الى نيس .

ودخلت الى المغسلة لتغسل عينيها بالماء الساخن . وارتدت معطفها وهي ترتجف . « لكأنه مصير محتوم . شريطة ان اتمكن من النوم في القطار هذه الليلة ، والا فستخور قواي حال وصولي الى نيس . آمل ان يكون قد حجز في الدرجة الاولى . انها المرة الاولى التي اسافر فيها بالدرجة الاولى . هكذا دائماً تكون الامور: ما قد مرت سنوات وانا ارغب في القيام برحلة طويلة بالدرجة الاولى وما ان تحقق هذا الحلم حتى لم أعد اجد لذة فيه . »

كانت تستعجل ذهابها ، في الوقت الحاضر ، لان هذه اللحظات الاخيرة كانت من الامور التي لا تطاق . وسألته :

— ماذا ستفعله مع غالوا ؟

كان غالوا قد طلب اعلاناً من هنري ، ولما قام هنري بتنفيذ الطلب في الوقت الحاضر ، رفضه غالوا .

وقال هنري :

— لا أدري .

كان قد انطوى على نفسه تحت الاغطية ، ولم يعد يرى سوى شعره ووطرف اذنه . وقال بصوت بطيء رخو :

— أريد ان انام طيلة ثمانية ايام .

فقالت لولو :

— وداعاً يا عزيزي .

— وداعاً .

وانحنت قليلا فوقه ، وازاحت الاغطية عنه وقبلته في جبينه . مكثت
حويلا على الدرج ، بدون ان تصمم على اغلاق باب الشقة . وما هي إلا
لحظة ، حتى أدارت عينها وجرت القبضة بقوة . وسمعت ضجة جافة وكاد
ان يغمي عليها : لقد اعترأها نفس الانطباع الذي احست به عندما ألقوا
برفش من التراب فوق نعش أبيها .

« لم يكن هنري لطيفاً . كان ينبغي ان يقف ويرافقني حتى الباب .
يبدو لي ان حزني كان اقل لو انه اغلق الباب بنفسه »

- ٤ -

قالت ريرات وهي تنظر الى البعيد .

- لقد أقدمت على هذا العمل ! اقدمت على هذا !

الوقت مساء . نحو الساعة السادسة كان بيار قد اتصل هاتفياً بريرات
فجاءت لمقابلته في مقهى القبة .

وقال بيار :

- ولكن أنت ، أما كان ينبغي ألا تذهبي لمقابلتها في الساعة التاسعة ؟

- لقد قابلتها .

- لم تكن هيئتها غريبة ؟

فقالت ريرات :

- كلا . لم ألاحظ شيئاً . كانت متعبة نوعاً ما ، لكنها قالت لي انها
نامت نوماً سيئاً بعد ذهابك لأنها كانت شديدة التأثر أمام فكرة السفر الى
نيس ولأنها كانت تخشى الصبي الجزائري .. كما أنها سألتني اذا كنت أعرف
هل انك اخترت المكان في الدرجة الأولى ، اذ ان هذا حلم حياتها .

وأضافت ريرات بتصميم :

— كلا أنا متأكدة من ان شيئاً من هذا القبيل لم يبد على وجهها ، طيلة وجودي معها على الأقل . لقد مكثت ساعتين معها ، وانني شديدة الملاحظة لأشياء كهذه ، ويدهشني ان يفوتني منها أمر ما . ستقول لي انها كتومة جداً ، لكنني أعرفها منذ أربع سنوات ورأيتها في زحمة المناسبات ، انني أضع لولو على طرف اصبعي .

— اذا ان هناك من دفعها الى ذلك .

— فيا له من أمر مضحك ...

وحلم لبضع ثوان وأضاف فجأة :

— أود ان أعرف من الذي أعطاهم عنوان لولو : فأنا الذي اخترت الفندق ولم تكن قد سمعت به مسبقاً .

كان يعث برسالة لولو ، وريرات يبدو عليها الانزعاج لأنها تريد قراءة الرسالة ، لكن بيار لم يقترح عليها ذلك . وسألت أخيراً :

— متى تلقيتها ؟

— الرسالة ؟

فأعطاهما إياها ببساطة :

— خذي ، بإمكانك قراءتها . لعلمهم وضعوها عند الحاجب نحو الساعة الواحدة .

كانت ورقة بنفسجية رقيقة ، كالأوراق التي تباع في مخازن التبغ :

» عزيزي الكبير .

» جاء آل تكزي (لست ادري من أرشدهم الى العنوان) . سأسبب

لك متعبة ، لن أذهب يا حبيبي ، يا عزيزي بيار . سأظل مع هنري لأنه تيسر جداً . جاؤوا لزيارته هذا الصباح ، لم يكن يريد أن يفتح ، وقالت السيدة تكزني ان صورته لم تعد كصورة الانسان . كانوا لطفاء جداً وفهموا جميع مبرراتي ، وقالت انه مصدر الاخطاء كلها ، وانه دب ، ولكنه ليس شريراً في جوهره . وقالت انه يستحق هذا التصرف ليدرك الى اي حد يتمسك بي . لا أدري من الذي سلمهم عنواني ، لم يقولوا ذلك لي ، لعلهم شاهدوني صدفة حين خرجت من الفندق بصحبة ريرات . وقالت لي السيدة تكزني انها تدرك تماماً قيمة التضحية التي تطلب اليّ القيام بها ، لكنها تدرك انني لن اتخلف عن القيام بالتضحية . انني آسف كثيراً على رحلتنا الجميلة الى نيس ، يا حبيبي . أنا لك من كل قلبي وبكل جسمي ، وستقابل أكثر مما كنا نتقابل في الماضي . لكن هنري سينتحر بدوني ، فأنا بالنسبة اليه لا يمكن الاستغناء عني وأؤكد لك بأنني لا أجد متعة في تحمل مسؤولية كهذه . وأمل ألا تفضب كثيراً كعادتك فتخيفني فأنت لا تريد ان يعتريني عذاب الضمير . سأعود الى بيت هنري في الحال . ولا بد وان أكون مزعوجة حين ألقاه على هذه الحال لكنه ستكون لدي الشجاعة حتى أفرض شروطي . أولاً أريد مزيداً من الحرية لانني أحبك ، وأريد ان يترك روبر وشأنه والا يتفوه بكلمة بحق والدتي . عزيزي ، أنا حزينة جداً ، أريدك ان تبقى هنا ، فأنا راغبة بك ، وأضمّ صدري اليك وأشعر بدغدغتك في جميع أنحاء جسمي . سأكون غداً في الخامسة في مقهى القبة -

لولو »

- يا لك من مسكين يا بيار .

أخذته ريرات بيده . فقال بيار :

- أقول لك انني اندم من أجلها هي فقط ! كانت بحاجة للهواء وللشمس .

لكنها إذ تقدم على هذا القرار ...

وأضاف :

— كانت أمي تسبب لي متاعب شديدة . فالدارة هي ملكها ، ولم تكن
تريد ان أقود اليها أية امرأة .

فقال ريرات بصوت شبه مقطوع :

— آه ! آه ! حسناً جداً ، فان الجميع مسرورون !

وتركت يد يسار وأحست بدون ان تعرف السبب ، بالأسف المرير
يحتاجها .

طفره فادر

« أنا رائع في بذلة الملك هذه » . قالت السيدة بوتييه لأمي :

— ولذلك الصغير يلذأ كله . فهو رائع في بذلة الملك . وجذب السيد بونارديه لوسيان الى ما بين ساقيه وداعب ذراعه وقال مبتسماً :

— حقاً إن هذه الفتاة صغيرة .

— ما اسمك ؟ جاكلين أولوسيانه أو مارغو ؟

ولم يكن متأكداً من انه ليس فتاة صغيرة : فكثير من الناس قبلوه وهم يدعونه بالآنسة ، ووجده الجميع جذاباً میناحيه الملائکین ، وبثوبه الأبيض الطویل ، وبذراعيه المكشوفتين ومجدائله الشقراء . كان يخشى ان يقرر الناس فجأة انه لم يعد صبياً . ولطالما احتج ، ولكن أحداً لم يصغ اليه ، ولم يسمح له بخلع فستانه إلا حين يريد ان ينام ، وفي الصباح عندما يستيقظ يجد الفستان على طرف السرير ، وعندما يريد ان يبول أثناء النهار ، كانت عليه أن يشمر فستانه مثل نانيت ، وأن يجلس القرفصاء على رجله . كانت الجميع ينادونه : يا عزيزتي الصغيرة ، لعل الامر قد انتهى « واصبحت » فتاة صغيرة . كان يحس بأنه شديد الرقة من الداخل ، كما ان فمه يخرج من بين شفتيه بمقدار ، وهو يقدم الزهور لجميع الناس بمركات دائرية . وفكر . ليس هذا حسناً . كان بودة ألا يكون هذا حسناً ، لكنه تسلى كثيراً يوم الثلاثاء من ايام الفصح ، ارتدى ثياباً على طريقة بيارو ، وركض وقفز وهو يضحك مع ريري ، كما اختبأ تحت الطاولة . وضربته أمه ضربة خفيفة

وقالت : « أنا فخورة بولدي الصغير ». كانت قوية الشخصية جميلة ، وهي أكثر النساء سمته . وعندما مر أمام الطاولة الكبيرة المغطاة بغطاء أبيض رفعه أبوه وكان يحتسي قدح الشبانيا وقال له : « يا رجلي الطيب ! » وأراد لوسيان أن يبكي ران يقول « نا ! » وطلب عصير البرتقال المثلج وكان قد منع عنه . لكنهم صبوا له قدر إصبعين في كأس صغير . كل طعمه كريهاً وليس شديد البرودة : أخذ لوسيان يفكر بالعصير المزوج بالخروج ، وكان قد شربه أثناء مرضه . وأجهش بالبكاء ووجد تعزية لنفسه في الجلوس بين أمه وأبيه في السيارة . كانت الوالدة تضم لوسيان إليها ، وهي معطرة دافئة ، ترتدي لباساً حريرياً . وكان داخل السيارة يتحول من وقت لآخر الى لون أبيض كالطبشور ، فيحرك لوسيان عينيه ، إن الزهور التي كانت موجودة على صدرية أمه ، كانت تخرج من الظل فيتشوق لوسيان رائحتها . وبكى قليلاً بعد ذلك لكنه أحس بأنه مبلل ، وكره نوعاً ما كذاك المصير . إنه يفضل ان يتخبط في المغطس وتغسله أمه بالاسفنج . وسمح له بأن ينام في غرفة أبيه وأمه كما لو كان صغيراً . فصار يضحك ويحرك حديد السرير فيقول والده « هذا الولد شديد الهيجان » . وشرب قليلاً من ماء الورد ورأى أباه بالقميص .

وفي صبيحة الغد كان لوسيان متأكداً من أنه نسي شيئاً ما . انه يتذكر تماماً الحلم الذي رآه : أبوه وأمه يرتدي كلاهما ثوب الملائكة ، ولوسيان جالس بدون ثياب فوق مبولته ، يضرب على الطبل ، وأبوه وأموه يدوران حوله . كان ذلك كابوساً . ولكن هناك شيئاً ما حدث قبل الحلم ولما حاول التذكر ، رأى نفقاً طويلاً مضاء بمصباح أزرق شبيه بالمصباح الذي يضيئونه مساء في غرفة أبيه . وفي قعر هذا الليل المعتم الأزرق ، قد حصل شيء ما - شيء ما أبيض اللون . وجلس على الأرض عند قدمي أمه وأمسك طبله . فقالت له أمه : « لماذا تنظر بهاتين العينين يا جوهرتي ؟ » فأخفض عينيه وضرب على طبله وهو يصيح : « يوم ، يوم ، ترا را يوم » . لكنها لما اشاحت بوجهها

بدأ ينظر إليها بامعان وكأنه يراها للمرة الأولى . الفستان الأزرق كان يعرفه ، والوجه أيضاً . إلا أنه بات مختلفاً . وظن فجأة بأن الأمر قد تم . فلو فكر قليلاً لتوصل الى ما يريد . وأضيء النفق بنور داكن ، كان شيء ما يتحرك . وخاف لوسيان وأطلق صيحة : لقد اختفى النفق . وقالت أمه : « ما بك يا عزيزي الصغير ؟ » لقد ركعت على مقربة منه وعليها سياء القلق . فقال لوسيان : « انني اتسلى » . كانت رائحة والدته لذيذة ، لكنه خشي ان تمد يدها اليه . كانت تبدو مضحكة وكذلك أبوه . وقرر الا ينام بعد اليوم في غرفتها .

في الأيام التالية ، لم تلاحظ الوالدة شيئاً فهو دائماً في حضنها يتحدث كالرجل الكبير . وطلب إليها ان تقص عليه قصة الفتاة والذئب ، ووضعته والدته على ساقها . وأخبرته عن الذئب وعن جدة الفتاة . ولوسيان ينظر إليها ويقول : « وبعدها ؟ » وكان يداعب في بعض الأحيان الأقرط التي في عنقها ، لكنه لم يكن يصغي إليها بل يتساءل اذا كانت هي أمه الحقيقية . وعندما تفرغ من قصتها يقول لها : « أمي » ، أخبريني عندما كنت فتاة صغيرة . وأخبرته أمه : ولعلها تكذب عليه . لعلها كانت في الماضي صبياً صغيراً ألبسوها فساتين - كما فعلوا مع لوسيان في تلك الأمسية - وأنها لا تزال ترتديها للتظاهر بأنها فتاة . وجسّ برفق ذراعها الجميلتين اللتين كانتا ناعمتين كالزبدة تحت الحرير . ماذا يحدث لو خلعت أمه فستانها وارتدت سروال ابيه ؟ لعل شارين اسودين ينبتان في وجهها . وشد على ذراع أمه بكل قواه . ونهيا له انها ستتحول امام عينيه الى وحش رهيب أو ان تصبح امرأة ذات لحية كأمرأة المعرض . وضحكت فاتحة فمها الواسع ، فأبصر لوسيان بلسانها الوردي وبآخر بلعومها : كان قدراً ، واعترفته رغبة في ان يبصق فيه . وتقول أمه ، « ها ها ها ! كم انك تشدني يا رجلي الصغير ! شدني بقوة . بقدر ما تحبني » . وتناول لوسيان إحدى اليدين الجميلتين ذات الحواتم الفضية وأمعن فيها تقبيلاً . ولكن ، في صبيحة اليوم التالي ، وبينما كانت

تجلس بجواره تمسك بيديه بينا هو قاعد فوق المبولة ، تقول له : « اضغط يا لوسيان ، اضغط ، يا جوهري الصغيرة » . وتوقف فجأة عن الضغط وسألها لاهثاً : « هل أنك امي الحقيقية على الأقل ؟ » وقالت له « أيها المغفل الصغير » . وسألته اذا كان سيتم الشيء بسرعة . منذ ذلك اليوم بات لوسيان مقتنعاً من انها تقوم بالتمثيل أمام عينيهِ ، ولن يقول لها انه سيتزوجها عندما يصبح كبيراً . لكنه لم يكن يعرف كثيراً ما هي تلك المهزلة : إذ من الممكن ان يكون اللصوص قد جاؤوا في الليل فسرَقوا أمي وأبي ووضعوا هذين في مكانها . او انها ابوابي الطيبان ، لكنهما يلعبان دوراً في النهار ، بينما هما يختلفان في الليل . لم يندهش لوسيان كثيراً عشية الميلاد حين استفاق مذعوراً ورأهما يضعان الألعاب في المدخنة . وفي الصباح تحدثا الى البابا نويل ، وتظاهر لوسيان بأنه يصدقها . فظن ان ذلك من ضمن أدوارها . ولعلها سرقت الألعاب . في شهر شباط اصيب بالحمى الحصية وتسلت كثيراً .

ولما شفي ، اعتاد على تمثيل دور اليتيم . كان يجلس وسط المرج ، تحت شجرة الكستناء ، يملأ يديه بالتراب ويفكر : « سأصبح يتيماً وسأدعى لويس . ولن أتناول طعاماً قبل ستة أيام » . وناذته الخادمة جرمين ليتناول طعام الغداء ، جلس الى المائدة وتابع اللعبة . ولم يلاحظ أمه وأبوه شيئاً . لقد التقطه لصوص يريدون ان يجعلوا منه نشالاً . وحين ينتهي من تناول الطعام ، سيرب ليشكوهم . أكل وشرب قليلاً جداً . كان قد قرأ كتاب فندق الملاك الحارس ، ان الوجبة الأولى التي يتناولها الرجل الجائع تكون خفيفة . كان شيئاً ممتعاً لأن الجميع يلعبون . فأمه وأبوه يلعبان دور الأب والأم . والأم تلعب دور المعذبة لأن جوهريها لا تأكل كفاية ، وأبوه يلعب دور قارئ الجريدة وهز من وقت لآخر اصبعه في وجه لوسيان قائلاً : « بدأ يوم » . أيها الرجل الطيب » . ولوسيان كان يلعب أيضاً ، ولكنه خلس في النهاية الى عدم تمييز الشيء الذي كان يلعب به . أهو يلعب دور اليتيم ؟ أو دور لوسيان ؟ ونظر الى القنينة . كان هناك ضوء احمر خافت يتراقص في قعر

المياه ، ولعله بالإمكان ان نقسم بأن يد أبيه كانت في القنينة ، وهي كبيرة مشعة ، على أصابعها شعيرات سوداء . وتهياً للوسيان ان القنينة تلعب دور القنينة . واخيراً ، لم يكن يده الى الأطباق وقت الطعام ، وبعد الظهر جاع كثيراً مما اضطره الى سرقة اثني عشرة خوخة وكاد أن يصاب بعسر الهضم . وفكر بأنه اكتفى من لعب دور لوسيان .

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن ذلك وبدا له طيلة الوقت انه يلعب . كان بوده أن يكون مثل السيد بوناردية الدمع الحلقة والرصين معاً . كان السيد بوناردية حين يريد ان يأكل ، ينحني على يد الوالدة قائلاً لها : « تحياي ، يا سيدتي العزيزة » . ويقف لوسيان وسط قاعة الاستقبال متطلعاً باعجاب . ولكن لم يكن يحصل للوسيان اي امر هام . فحين يقع ويتورم ، يتوقف عن البكاء ويتساءل : « هل صحيح أنني تورمت ؟ » عندها يشعر بأنه أكثر كآبة وتنهزم الدموع من عينيه . ولما قبل يدي الوالدة وهو يقول لها : « تحياي يا سيدتي العزيزة » . وبعثرت الوالدة شعره قائلة له :

« ليس هذا مناسباً ، يا فأرتي الصغيرة ، فلا ينبغي ان تهزأ من الاشخاص الكبار » . وأحس بأن همته قد تبطت . ولم يكن يتوصل لايحاد بعض الأهمية لنفسه الا اول جمعة وثالث جمعة من الشهر . ففي هذين اليومين ، كان كثير من النساء يأتين لزيارة أمه ، من بينهن اثنتان أو ثلاثة في ثياب الحداد . كان لوسيان يحب النساء الملتشحة بالسواد خصوصاً إذا كانت أرجلهن كبيرة . كان يستمتع بوجود الأشخاص الكبار بصورة عامة ، لأنهم شديدي الوقار ، ولا يمكن ان يغفلوا أنفسهم فوق الأسرة عابثين كالأولاد ، ولا يمكن ان نتصور ما يوجد تحت ثيابهم لكثرة تلك الثياب وتنوعها . وعندما يكونون معاً ، فهم يأكلون من كل شيء ويتحدثون ، حتى ضحكاتهم فهي رزينة ، وجيلة كوقت القداس . كانوا يعاملون لوسيان وكأنه إحدى الشخصيات . كانت مدام كوفان تأخذ لوسيان في حضنها وتحس مؤخرته قائلة : « انه اجمل

ظريف رأيته » . عندها ، سأله عن أذواقه ، وتقبله وتستفسر عما يريد ان يفعله في المستقبل . وثارة ما كانت يجيب بأنه سيصبح قائداً كبيراً على غرار جان دارك وبأنه سيستعيد الأكراس واللورين من الألمان ، وطوراً يفكر بأن يكون بشراً . كان يصدق نفسه ، طيلة الوقت الذي يتكلم فيه . كانت السيدة بيس امرأة طويلة قوية ذات شاربين صغيرين . تغلب لوسيان وتدغدغه قائلة : « يا لعبيتي الصغيرة » . ولوسيان يشعر بلذة ويرتفع تحت يديها اللتين تداعبانها . وفكر بأنه لعبة صغيرة ، لعبة صغيرة جذابة للأشخاص الكبار وتمنى لو ان السيدة بيس تنزع ثيابه ، وتفسله وتضعه في سرير صغير لينام كجسم من المطاط . وكانت مدام بيس تقول أحياناً : « هل تنطق لعبيتي ؟ » وتضغط على معدته فجأة . عندها ، يتظاهر لوسيان بأنه لعبة آلية ويقول : « كويك » بصوت غنوق ، مما يضحك الاثنين معاً .

كان يسأله الكاهن الذي يأتي لزيارتهم نهار السبت إذا كان يحب والدته . ولوسيان يحب والدته الجميلة حتى العبادة وكذلك أباه القوي الطيب . فيجيب : « نعم » وهو ينظر الى الكاهن في عينيه ، هيئة تضحك الجميع . كانت رأس الكاهن كثرة التوت . وقال للوسيان ان هذا حسن ، وان على المرء ان يحب امه دائماً . ثم سأله إذا كان يفضل والدته على الله او بالعكس . ولم يستطع لوسيان ان يعثر على الاجابة بسهولة فراح يضرب الأرض صائحاً : « يوم » ترا را يوم » . وتابع الأشخاص الكبار حديثهم وكأنه ليس موجوداً . وركض الى الحديقة وتسلل الى الخارج من البوابة الخلفية . وحمل عصاه الصغيرة المصنوعة من الخيزران . لم يكن لوسيان بالطبع يريد الخروج من الحديقة ، فهذا ممنوع . ومن عادة لوسيان ان يكون مطيعاً لكنه قرر هذه المرة ان يعمد الى العصيان ونظر الى العوسجة نظرة ملؤها التحدي . من الواضح انه مكان ممنوع . كان الجدار محمراً ، والعوسجات نباتات خبيثة ضارة ، وقد قضى كلب من الكلاب حاجته على جذع العوسجة . كانت تفوح رائحة العوسجة ، وبعرة الكلب والتبئذ الساخن . وضرب لوسيان العوسجة بعصاه صائحاً : « أنا أحب أمي »

أنا أحب أمي » . ورأى أغصان العوسج تنكسر وتزاح عنها قشورها .
 وسمع صوتاً صغيراً منفرداً يصيح : « أحب امي . أحب امي » . كانت هناك
 ذبابة كبيرة تثر : كانت ذبابة من تلك التي تحوم على الأقدار ، فزع لوسيان
 منها ولمأت منخريه رائحة عفنة . وكرر بقوله : « أحب امي » . لكن
 صوته بدا غريباً ، فاعتراه خوف شديد ففرّ لتوه الى قاعة الاستقبال . منذ
 ذلك اليوم ، فهم لوسيان انه لا يجب أمه . ولم يكن يشعر بالذنب بسبب ذلك ،
 لكنه ضاعف من دماثته لأنه فكر بأن من الواجب ان يتظاهر الانسان طيلة
 حياته بأنه يحب أهله وإلا فيكون ولدأ شريراً . كانت السيدة فلوريه تجد
 لوسيان شديد الرقة . واندلعت الحرب في هذا الصيف ، وذهب الأب الى
 القتال ، ورأت الأم نفسها سعيدة ، وسط أحزانها ، باهتمام لوسيان بها . ففي
 كل مرة تذهب فيها الى الحديقة ، يعتمد لوسيان الى حمل نخدة يضعها تحت
 رأسها او أنه يحمل غطاء ويضعه فوق ساقها فتقول له : « لكن هذا سيجعلني
 أشعر بشدة الحر ، كم انت لطيف يا رجلي الصغير » . وكان بدوره يقبلها بعنف
 قائلاً لها :

« يا أمي أنا ! » . ويذهب ليجلس في ظل شجرة الكستناء .

ويقول « شجرة الكستناء » و ينتظر . لكن أي شيء لم يحصل . كانت
 الوالدة مستلقية تحت الشرفة ، وسط سكون خافت . وكانت تفوح رائحة
 العشب الساخن ، والجو ملائم لتقليد المغامرين في الغابة العذراء . لكن لوسيان
 لم يعد يرغب باللعب ، والهواء يرتجف فوق الجدار ، والشمس تصنع بقعاً
 محرقة على الأرض وعلى يدي لوسيان . « شجرة الكستناء ! » كانت أمراً
 مثيراً ، حين يقول لوسيان لأمه « يا امي الجميلة ، يا امي أنا » . تضحك أمه ،
 وحين ينادي جرمان بالبندقية القديمة ، تبكي جرمين وتشكوه الى الوالدة .
 ولكنهم حين يلفظون كلمة شجرة الكستناء ، لم يكن يحصل شيء . وتتم من
 بين أسنانه « يا لها من شجرة قدرة » . ولم يكن مطعمناً ، ولكن بما أن

الشجرة لا تتحرك ، لذا يضيف بصوت أكثر ارتفاعاً : « يا للشجرة القدره ، يا لشجرة الكستناء القدره ! انتظري وسترين ، انتظري قليلاً ! » وكان يرفسها برجله مرات عديدة . وتظل الشجرة هادئة ، هادئة - كما لو انها من خشب . وفي المساء ساعة العشاء يقول لوسيان لأمه : « هل تدرين يا أمي ، الأشجار هي من الخشب » . يقول ذلك بوجه المدهوش الذي تحبه الأم كثيراً . غير ان السيدة فلورييه لم تتلق رسالة في بريد الظهر . فقالت بحيف : « لا تكن سمجاً » . صار لوسيان يكسر كل شيء . كسر جميع لعبه ليرى كيف صنعت ، وقطع ذراع الكنبه بسكين أبيه القديم . وعندما يتزدهج كان يقطع النباتات والأزهار بعصاه : كما كان في كل مرة يصاب بحية أمل ، فالأشياء ليست مصنوعة صنماً حسناً . وغالباً ما تسأله أمه وهي تدله على الأزهار أو الأشجار : « ما اسم هذه ؟ » لكن لوسيان يمز رأسه ويقول : « ليس هذا شيئاً ، واسمها لا شيء » . كل هذا ليس جديراً بأن يسترعي الانتباه ، إذ كان من الأسهل قطع رجل جرادة ، لأنها تهتز بين الأصابع كالدوامة وإذا ضغطنا على بطنها ، خرج منه سائل اصفر . لكن الجرادات لم تكن لتصرخ مع ذلك . كان بود لوسيان أن يؤذي الحيوانات التي تصرخ عند ايذائها ، كالدجاجة مثلاً ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من تلك الحيوانات وعاد السيد فلورييه في شهر آذار لأنه كان ربّ عمل ، وقال له القائد بأن من الأفضل ان يظل في مصنعه على أن يعضي وقته في الحنادق كأبي كان . ووجد لوسيان قد تغير كثيراً ولم يعد يرى فيه رجله الطيب . وقع لوسيان في نوع من الروبصه : كان يحب برخاوة ، ويحشو اصبعه في انفه أو ينفخ في يديه ثم يشمها ، وكان عليهم أن يرجوه ليقتضي حاجته . وهو يذهب الآن تلقائياً الى المكان الصغير ، كما كان من الضروري فقط أن يظل الباب مفتوحاً نصف فتحة وان تأتي لتشجيعه أمه أو جرمين . كان يبقى ساعات عديدة على العرش كما كان بنام في بعض الأحيان . قال الطبيب انه ينمو بسرعة ووصف له دواء يساعد على بناء الجسم . وأرادت الوالدة أن تعلم لوسيان ألعاباً جديدة ، لكن لوسيان وجد

آن ما يعرفه من ألعاب يكفيه وأن جميع الألعاب سواء . كان يبدي استياءه أكثر الأحيان ، وهذا أيضاً نوع من انواع اللعب ولكنه أكثر تسليمة . إن الوالدة تتعذب ، أصبح الجميع حزينين حاقدين ، كما أصبحوا مكرومي الافواه متجهمي الوجوه ، والطقس حار في الداخل كما لو كان المرء في فراشه تحت الغطاء يشم رائحة نفسه ، ولم يعد لوسيان يستطيع تجنب الامتلاء ، وعندما يقول له ابوه « انت تقلد معي الخنزير » يرتقي لوسيان على الأرض ويبيكي كثيراً . لا يزال يذهب كثيراً الى قاعة الاستقبال حين تستقبل والدته الزائرين ، ولكن اهتمام الناس به قد تضائل منذ أن قصوا له جدائله . أو إذا ما التفتوا اليه ، فلسكي يشرحوا له درساً في الأخلاق أو يقصوا عليه قصة للإرشاده . عندما أتى ابن خالته ريري الى فيرول ، بسبب اللقاء القنابل ، برفقة خالته برت الجميلة ، سرّ لوسيان كثيراً وحاول ان يعلمه اللعب . لكن ريري كان مهتم أكثر بكرة الألمان ، ثم إنه لا يزال يشعر بأنه طفل رغم انه أسن من لوسيان بستة أشهر . وكانت على وجهه بقع صفراء ، كما انه لا يفهم الامور في جميع الاوقات . لكن لوسيان أفضى اليه بالسّر ، انه مروبص . بعض الاشخاص يفيقون في الليل ، فيتكلمون ويتنقلون وهم نيام : قرأ لوسيان هذا في كتاب المغامر الصغير وفكر بأنه من الواجب أن يوجد شخص حقيقي اسمه لوسيان يمشي ويتحدث ويحب ابويه حباً صادقاً في الليل . لكنه بمجيء النهار ، كان ينسى كل شيء ويعود الى التظاهر بأنه لوسيان . في البدء لم يكن لوسيان يؤمن كثيراً بهذه القصة ، لكنه ذهب في احد الايام مع ابن خالته الى العوسجات ، واطهر ريري عضوه للوسيان وقال له : « كم هو كبير ، أنا صبي كبير . وعندما يصبح كبيراً جداً ، عندها أصير رجلاً وأذهب لاقاتل الألمان في الخنادق » . وجد لوسيان ريري مضحكاً جداً واخذ يقهقه بقوة . وقال ريري : « أرني الذي لك » . واجريا المقاتلة فكان عضو لوسيان أصغر ، لكن ريري غشه : اذ شد على عضوه ليزيد في طوله . وقال ريري : أنا الذي أملك عضواً اكبر . فقال لوسيان بهدوء :

- نعم ، ولكنني أنا المروص . لم يكن يرري يعرف ما هو المروص ،
وشرح له لوسيان ذلك . وعندما انتهى فكر في نفسه : « إذا فصحيح أني
مروص » . واعترفته رغبة شديدة في البكاء . وبما انها كانا نياما في فراش
واحد ، اتفقا على ان يبقى يرري مستيقظا طيلة الليل ويراقب لوسيان عندما
ينهض ، ويحفظ كل ما يتفوه به لوسيان .

وقال لوسيان :

- ستوقظني بعد هنيهة ، لأرى اذا كنت أتذكر ما فعلته؟ . وفي المساء
سمع لوسيان الذي عجز عن النوم الشخير الحاد وأيقظ يرري . وقال يرري :
« زنجبار » .

- استيقظ يا يرري فعليك ان تراقبني حين استيقظ .

فقال يرري بصوت رخو :

- دعني أتم .

فهبه لوسيان وقرصه تحت قميصه ، فأخذ يرري يلطب برجليه وظل
مستيقظاً ، مفتوح العينين ، وعلى شفتيه ابتسامة طريفة . وفكر لوسيان
بدراجة كان على أبيه ان يشتريها له ، وسمع صفير القطار ، وفجأة دخلت
الخادمة وأزاحت الستار ، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحاً . لم يدر
لوسيان قط ما اقدم عليه طيلة الليل . أما الله فكان يعرف ، هو ، لأن الله
يرى كل شيء . كان لوسيان يركع في مكان العبادة ويحبد نفسه لكي يكون
عاقلاً ، حتى تهنته والدته عند انتهاء القداس ، لكنه كان يمتق الله : لأن الله
يعرف عن لوسيان اكثر مما يعرف لوسيان عن نفسه . يعرف الله ان لوسيان
لا يجب أمه ولا أباه ، وأنه يتظاهر بأنه عاقل ، وأنه يلامس عضوه عند
المساء في السرير . ولحسن الحظ ، ليس بإمكان الله ان يتذكر كل شيء ، لأن
في العالم كثير من الصبيان الصغار . فحين يضرب لوسيان على جبينه قائلًا :

« بيكوتان » كان الله ينسى لتوّه ما يراه . وألقى لوسيان على عاتقه مهمة اقناع الله بحبه لأمه . « لكم أحب أمي العزيزة » لكن فيه زاوية صغيرة لم تكن مقنعة ، والله بالطبع يرى هذه الزاوية الصغيرة . وفي هذه الحال يكون « هو » الرابع . لكن بإمكان المرء أحياناً ان يؤخذ تماماً بكل ما يقوله . إذ يقول : « أوه ! كم احب والدتي » ، بلفظ جميل ، فيحس بأنسه يرق ، ويفكر تفكيراً مبهماً ، بأن الله ينظر اليه ثم لا يعود يفكر ، اذ يصبح مأخوذاً بالحنو . ثم ان هناك كلمات تتراقص في الأذن : « أمي . أمي . أمي » ولا يستمر هذا سوى لحظة بلا ريب ، وكأن لوسيان يريد أن يوقف الكرسي على رجلين اثنين . وفي هذه اللحظة يقول : « باكوتا » فيصنع الله من جديد : فهو لم ير سوى الخير ، وما رآه يعلق في ذاكرته نهائياً . بيد ان لوسيان قد سمى هذه اللعبة لأنها تستوجب جهوداً عنيفة ، ولا ندري في النهاية إذا كان الله قد ربح أم خسر . ولم يعد لوسيان يتم بالله . ولما تناول للمرة الاولى ، قال عنه الكاهن إنه أعقل وأتقى صبي في التعليم المسيحي . كان لوسيان يفهم بسرعة كما ان ذاكرته قوية ، لكن رأسه مليء بالضباب .

يوم الأحد انقشع الضباب ، وتمزق عندما كان لوسيان يتنزه برفقة والده على طريق باريس . كان يرتدي بذلته الصغيرة الزرقاء ويصادف عمال أبيه الذين كانوا يقدمون التحية له ولأبيه . كان الأب يقترب منهم فيقولون : مرحباً أيها السيد فلورييه . ولوسيان يحب العمال كثيراً فهم أشخاص كبار ، لكنهم ليسوا كسائر الناس . في البدء كانوا ينادونه يا سيد . ثم انهم كانوا يعتبرون القبعات وأيديهم الضخمة ذات الأظافر القصيرة يبدو عليها الألم . انهم مسؤولون ووقورون . لا ينبغي ان يشد شاربي الأب بوليفو : لأن والد لوسيان يزجره . لكن الأب بوليفو عندما يحدث أباه : يخلع خوذته ، بينما يبقى كل من لوسيان وأبيه قبعتهما على رأسيهما ، وكلت ابوه يتحدث بصوت بام غليظ :

— حسناً أيها الاب بوليفو ، اننا ننتظر ولده ، حتى يحين موعد فرصته ؟

— في آخر الشهر اياها السيد فلورييه ، شكراً يا سيد فلورييه .

الاب بوليفو كان سعيداً ولم يكن يسمح لنفسه بأن يضرب على مؤخرة
لوسيان ملقباً إياه بالصفدع ، كما يفعل السيد بوناردية ، لانه كان دميماً جداً .
لكنه حين يرى الاب بوليفو ، يشعر بأنه رقيق وتعتريه رغبة بأن يكون
صالحاً . ومرة ، بعد العودة من النزهة ، اخذ الاب لوسيان على ركبتيه وشرح
له ما هو الرئيس . أراد لوسيان ان يعرف كيف كان أبوه يتحدث الى العمال
عندما يكون في المصنع ، وبين له الوالد الطريقة وقد تبدل صوته تماماً .
فسأله لوسيان : « هل سأصبح رئيساً بدوري ؟ »

— بكل تأكيد ، يا رجلي الطيب ، فلهذا صنعتك .

— ولئن سأعطي الاوامر ؟

— حسناً ، عندما أموت ، ستصبح رب العمل في المصنع وستأمر
على عمالي .

— لكنهم سيموتون هم أيضاً .

— حسناً ، ستأمر على ابنائهم ، وينبغي أن تعرف كيف يطعمونك
ويحبونك .

— وما ينبغي ان اعمل ليحبوني يا أبي ؟

وفكر الاب قليلاً ثم قال :

— اولاً ، عليك أن تتعرف عليهم كل باسمه .

لقد تأثر لوسيان كثيراً ، ولما اتى ابن المعلم موريل الى البيت ليعلن ان
اباه فقد اصبعين ، تحدث اليه لوسيان بهدوء ورفق ، ناظراً اليه في وجهه وهو
يناديه باسمه ، موريل . وقالت الام انها فخورة بأن يكون لها ولد صغير
طيب وحساس الى هذا الحد . وبعد ذلك ، جاءت الهدنة ، وصار الاب يقرأ

الجريدة بصوت عال كل مساء . والجميع يتحدثون عن الروس ، وعن الحكومة الألمانية والإصلاحات ، وأخذ الأب يدل لوسيان على البلدان الواقعة على الخريطة ؛ أمضى لوسيان أكثر سنواته ضجراً ، كان يفضل زمن الحرب . أما الآن فيبدو أن الجميع ليس لهم عمل ، كما انطفأ البريق الذي كان يرى في عيني السيدة كوفان . وفي تشرين أول ١٩١٩ ، وضعت السيدة فلورييه في مدرسة القديس يوسف كتلميذ في القسم الخارجي .

كان الطقس حاراً في مكتب الأب جروميه . ووقف لوسيان قرب مقعد الأب واضعاً يديه خلف ظهره ، متضجراً أكثر ما يكون عليه الضجر . « ألا تريد أُمي أن تذهب في الحال ؟ » . لكن السيدة فلورييه لم تكن تفكر بالذهاب . بل انها جلست على طرف الكنبه الحضراء مائة صدرها الواسع نحو الأب . كانت تتكلم بسرعة فائقة ، بصوت ذي جرس موسيقي ، مثلما كانت عليه عندما غضبت وأرادت الا تظهر غضبها . اما الأب فكان يتكلم على مهل ، وبدأت الكلمات في فمه أطول مما كانت عليه عند سائر الأشخاص ، حتى وكأنه يمتص الكلمات كالسكر قبل ان يدعها تمر . كانت يشرح للوالدة أن لوسيان صبي صغير مذهب نشيط لكنه عديم المبالاة بشكل قاطع ، فتقول السيدة فلورييه إنها أصيبت بخيبة أمل لأنها ظنت ان تغير المحيط سيكون له اثره الحسن . وسألت ما اذا كان يلعب اثناء الفرس على الاقل . فاجاب الأب :

— للأسف يا سيدي . فحتى الألعاب يبدو أنها لا تهتم . انه طائش في بعض الاحيان الى حد العنف لكنه يتعب بسرعة . أظن ان المثابرة تنقصه .

وفكر لوسيان :

— انها يتحدثان عني .

هما شخصان كبيران ، يصنعان موضوع حديثها ، تماماً وكأنها يتحدثان عن

الحرب أو عن الحكومة الألمانية أو السيد بونكاريه . كانت تبدو عليها مظاهر الرصانة وهما يفكران بحالته . لكن هذا التفكير لم يكن ليرتد له . وقد امتلأت أذناه بكلمات امه ذات الجرس ، وبكلمات الأب اللزجة الدائبة ، واعتارته رغبة بالبكاء . ولحسن الحظ ، دق الجرس ، فأعيدت اليه حريته . ولكن في درس الجغرافيا ، ظل منفصلاً وطلب الى الأب جاكين ان يسمح له بالذهاب الى الزاوية لأنه يريد ان يتحرك .

في البدء ، هدأت من روعه برودة الزاوية والرائحة العطرة فضلاً عن العزلة . ورفع رأسه وأخذ يقرأ ما كتب على الباب . لقد كتب بالقلم الأزرق : « باراتو هو بقعة » . فابتسم لوسيان : كان هذا صحيحاً ، فباراتو هو بقعة ، اذ انه صغير الحجم ، ولعله سيكبر قليلاً ، ولكن لا ، لأن أباه شديد القصر فهو أقرب الى القزم . وتساءل لوسيان إذا كان باراتو قد قرأ هذه الكتابة وظن بأنه لم يقرأها : وإلا لكانوا أزالوها . إذ أن باراتو لا بد وان يضع يده في فمه ويفرك الحروف حتى تختفي . وسر لوسيان بعض الشيء عندما تصور ان باراتو سيذهب في الساعة الرابعة الى الزاوية الصغيرة وسينزل سرورالته الخمي الصغير ويقرأ : « باراتو هو بقعة » لعله لم يفكر قط بأنه شديد القصر . ووعد لوسيان نفسه بأن يدعوه بالبقعة ابتداء من صباح الغد عند الفرصة . ثم نهض وقرأ على جدار اليمين خطاً مكتوباً بالقلم الأزرق ايضاً : « لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة » . فمحا الحظ بعناية وعاد الى الصف . وفكر في نفسه وهو ينظر الى رفاقه :

— حقاً انهم جميعاً اقصر مني .

وأحس بأنه غير مرتاح . « هليونة كبيرة » . وجلس الى مكتبه الصغير . كانت جرمين في المطبخ ، والدته لم تعد بعد . وكتب « هليونة كبيرة » على ورقة بيضاء لكي يصحح خطأ الاملاء لأن رفاقه أخطأوا في كتابة الكلمة . لكن الكلمات لم تبد جديدة أمامه ولم تحدث فيه أي أثر .

ونادى : جرمين ، يا جرمين !

فسأله جرمين :

— ماذا تريد أيضاً ؟

— جرمين ، أريد ان تكتبي على هذه الورقة « لوسيان فلورييه هو هليونة كبيرة » .

وأحاط عنقها بذراعيه :

— جرمين ، يا جرمين الصغيرة كوني لطيفة .

— انت مجنون يا سيد لوسيان !

أخذت جرمين تضحك ومسحت يديها بمبروها . وبينما كانت تكتب ، لم يكن لا ينظر اليها ، لكنه أخذ الورقة الى غرفته ونظر اليها طويلاً . كان خط جرمين دقيقاً ، وخيل الى لوسيان انه يسمع صوتاً جافاً يرن في اذنه : « ابتها الهليونة الكبيرة » . وفكر في نفسه : « أنا كبير » . لقد سحقه الخجل : كبير مثلما أن باراقو صغير — وكان الآخرون يضحكون من خلف ظهره . وبدا وكأنه قد رمي بمصيره رمياً :

إن رؤية رفاقه من فوق تبدو له طبيعية الى هذا الحد . ولكن في الوقت الحاضر ، يبدو انه حكم عليه بالبقاء كبيراً طيلة حياته . وفي المساء سأل اياه اذا كان بالامكان تصغيره اذا شاء . وقال السيد فلورييه أن لا : ان جميع افراد عائلة فلورييه كانوا طوالاً أقوياء ، وسيكبر لوسيان ايضاً . فيس لوسيان . ولما لامسته امه نهض وذهب ليرى نفسه في المرآة . « أنا طويل » . لكنه مهما تطلع ، فلم يرى شيئاً ، فلم يكن يبدو عليه انه طويل او قصير . وشم قميصه قليلاً ونظر الى ساقيه . عندها تصور أن كوستيل يقول لهبرار :

— انظر ، انظر ساقى الهليونة الطويلتين ، وكان هذا يضحكه . الطقس

بارد . ارتجف لوسيان وقال احدهم : « إقشعر بدن الهليوننة » . وشمر قميصه أيضاً ورأى سرّته ، وكلّ دكانه ثم ركض الى سريره وانزلق فيه . وعندما وضع يده تحت قميصه ، فكر بأن كوستيل يراه ويقول :

— انظروا قليلاً ما تفعله «الهليوننة الكبيرة !» وارتعش ودار في سريره وهو يلث : « الهليوننة الكبيرة ! الهليوننة الكبيرة ! » حتى وجد تحت اصابه مكاناً يتأكله .

في الأيام التالية ، رغب في ان يطلب الى الاب ان يسمح له بالجلوس في آخر الصف . كان ذلك بسبب بواسيه وونكلمات وكوستيل الذين كانوا وراءه وبامكانهم ان ينظروا الى رقبته ، كان لوسيان يحس رقبته ، ولكن بدون ان يراها وغالباً ما كان ينساها . لكنه عندما كان يحسن الاجابة على سؤال الأب ، ويجيد اللقاء كلام دون دياغ ، كان الآخرون وراءه ينظرون الى رقبته وبامكانهم ان يسخروا منه قائلين : « يا لها من نحلة ، ففي عنقه حبلان » . ويجهد لوسيان نفسه لكي يضخم صوته ويعبر عن إهانة دون دياغ . كان يستطيع ان يفعل بصوته ما يشاء . لكن رقبته لا تزال في مكانها ، هادئة غير معبرة وكأنها شخص يرتاح ، فيراها باسيه . ولم يجرؤ على تغيير مكانه ، لأن المقعد الأخير كان مخصصاً للكسالى ، لكن رقبته وكتفيه كانتا تتأكلانه طيلة الوقت وكان مرغماً على حركتها بلا انقطاع . واخترع لوسيان لعبة جديدة : أن يفتسل عند الصباح بمفرده كالأشخاص الكبار ، كان يتصور أن أحداً يتطلع اليه من ثقب الباب . نارة ما يكون هذا الشخص كوستيل ، وطوراً الأب بوليفو ، وطوراً آخر جرمين . وعندها دار في جميع الجهات حتى يراه الجميع من جميع وجوهه ، وكان يدير قفاه أحياناً نحو الباب ويقف على أربع حتى يقع فيضحك الناس . في أحد الأيام ، وكان في المكان الصغير ، سمع بعض القرقعة ، انه جرمين تريد أن تمسح طاولة المرمر . وتوقف قلبه عن الحركة ، وفتح الباب بثؤدة وخرج ، ولا يزال سرواله عند قدميه ، وقميصه مشمرة عند

خاصرته . كان مرغماً على القيام بقفزات صغيرة لكي يتقدم بدون ان يضع توازنه . ونظرت جرمين اليه وتساءلت في نفسها هل هو في حلبة السباق . ورفع بنطلونه بغضب وراح يرتقي فوق سريره . كانت السيدة فلوريه متأثرة ، وغالباً ما كانت تقول لزوجها : « هو الذي كان رائعاً في طفولته ، انظر كيف اصبح الآن ؟ ويا للأسف » . وينظر السيد فلوريه نظرة ضائعة نحو لوسيان ويقول :

« انه عامل السن ! » لم يكن لوسيان يدري ما يجب ان يفعله بجسمه ، وتنبأ له ان هذا الجسم يفرض وجوده من جميع النواحي بدون ان يستشيره ، وتصور لوسيان انه غير منظور ، ثم اتخذ لنفسه عادة النظر الى الآخرين من خلال ثقب الأبواب ليعرف كيف يكون وجود الآخرين حين لا يشعرون به . رأى أمه عندما تستحم . كانت جالسة على مقعد الحمام ، يدر عليها النعاس ، ولا شك انها نسيت جسمها ، وحتى وجهها لأنها لا تظن بأن أحداً يراها . والأسفجة تروح ونجيء تلقائياً على هذا اللحم المجبور . وتقوم بحركات خاملة ، الأمر الذي يبعث على الظن بأنها ستوقف في منتصف الطريق . وفركت الأم شيئاً بالصابون ثم اختفت يدها بين ساقها . كان وجهها مرتاحاً ، حزناً بعض الحزن ، لا شك انها تفكر في أمر آخر ، بتربية لوسيان أو بالسيد بوانكاريه . لكنها ليست ، في هذا الوقت سوى هذا الجسم الوردي الضخم الجالس على مقعد الحمام . ثم راح لوسيان ينظر من خلال ثقب آخر . فرأى جرمين بقميص أخضر طويل ، تسرح شعرها أمام امرأة صغيرة مستديرة وتبتسم لصورتها برخاوة . واعتارت لوسيان ضحكة مجنونة ومالبت ان ابتعد بسرعة . بعد ذلك أخذ يبتسم ويكشر أيضاً في قاعة الاستقبال ، وما هي إلا لحظة حتى اعتراه خوف شديد .

وما لبث لوسيان أن استسلم للنوم ؛ ولكن ، لم يقع عليه نظر أحد ، سوى السيدة كوفان . إن كتلة من الهواء كبيرة كانت تقف في حلقه فلا يستطيع

أن يبتلعها أو أن يبصقها: تلك كانت طريقته في التناوب. وعندما يكون وحده تكبر الكنتلة كثيراً حتى تصل إلى أسفل حلقه . فيفتح فمه على أشده ، وتتدرج الدموع من عينيه : إنها لحظات عذبة . لم يكن يتسلى قدر تلك التسلية حينما يكون في غرف الفسيل ، لكنه كان يحب أن يعطس ، وهذا ما يوقظه ، فيتطلع حوله بنظرة تألمة . وتعرف على النوم بجميع أنواعه . في الشتاء كان يجلس أمام الموقد ويمد رأسه نحو النار . حين تكون النار شديدة الاحمرار، تحترق بسرعة . وهذا ما كان يسميه « النوم عن طريق الرأس » . صباح الأحد كان على العكس ينام عن طريق القدمين : كان يدخل الحمام ، وينحني قليلاً فيصعد النعاس على طول ساقيه وخاصرتيه . ومن فوق جسمه النائم كان يظهر رأسه الأشقر زاخراً بالأفكار . وفي الصف كانت النعاس أبيض ، تتخلله البروق : « ماذا تريد أن يفعل تجاه ثلاثة ؟ » الأول: لوسيان فلورييه ، الثاني: وونكلمان . أما بليرو فكان الأول في مسادة الجبر . لم يكن لديه سوى خصية واحدة أما الثانية فلم تنزل . كان يفرض قرشين اثنين على النظر ، وعشرة قروش على اللمس . ونقده لوسيان القروش العشرة ، وتردده ومدّ يده بدون أن يلامس ، لكنه ندم على عمله هذا إلى حدّ أنه ظل مستيقظاً بعد موعده بساعة . لم يكن ماهراً في علم الجيولوجيا بقدر ما كان عليه في التاريخ . إنه الأول ، وونكلمن ثاني فلورييه . يوم الأحد كان يذهب للزهوة على الدراجة ، برفقة كوستيل وونكلمن . والدراجة تجوب الحقول فوق الغبار الناعم في طقس شديد الحرارة . كانت ساقا لوسيان مفعمتين بالحيوية ، مليئتين بالعضلات لكن رائحة الطرقات كانت تصعد إلى رأسه فينحني فوق مقوده ، وتحمّر عيناه ، ويفمضها شبه اغماضة . حاز ثلاث مرات على درجة الشرف . وقدموا له « فايولا أو كنيسة الداميس » ، و« عبقرية المسيحية » وحياة « الكاردينال لافيغري » . وكوستيل علمهم جميعاً بعد العطلة على « الذي بروغونديس موريونيديوس » . وعلى نشيد المدفع في متز . وقرر لوسيان أن يبحث في قاموس أبيه الطبي عن الفصل المتعلق « بالرحم » . وبعدها

شرح لهم كيف تكون النساء. حتى انه رسم لهم صورة على اللوح، وصرح كوستيل بأن ذلك مؤسف ، وبعد ذلك لم يعد بإمكانه ان يتحدث عن الاقنية بدون أن يتفجر بالضحك . وفكر لوسيان بأنه ما من طالب في الصف الثاني أو حتى في صف البكالوريا يتقن معرفة أعضاء المرأة كما يتقنها هو .

ولما أقامت عائلة فاورييه في باريس ، كان ذلك بمثابة بريق من المانيزيوم . لم يعد يوسع لوسيان أن ينام بسبب صالات السينما والسيارات والشوارع . وتعلم كيف يميز بين سيارة الفوازين والبيكار ، وبين الاسبانو سوزا والروزل . منذ أكثر من سنة بات يرتدي السروال الطويل . وأرسله ابوه الى انكلترا مكافأة له على فوزه بشهادة البكالوريا . ورأى لوسيان مروجاً تزخر بالمياه ، ومنحدرات بيضاء ، وتعلم الملاكمة عند جون لاتيير ، ولكنه في احدى الليالي استيقظ في نومه ، لقد عاوده الرواص فعاد مروبصاً الى باريس : كانت صف الرياضيات في اللبسيه كوندورسيه يعد سبعة وثلاثين طالباً ، بعضهم يحتقر لوسيان ، وظلوا يحتقرونه حتى أول تشرين الثاني، وهو عيد جميع القديسين . وذهب لوسيان للنزهة مع صديقه غاري ، وأبدى له معلوماته في التشریح الأمر الذي بهر الرفيق . ولم ينضم لوسيان لتلك الجماعة من الطلاب لأن أهله منعه من الخروج صباحاً .

يوم الخميس جاءت العمه برت ، لتتناول طعام الغداء مع ريري . في شارع رنواه . لقد اصبحت ضخمة الجثة حزينة ، أمضت وقتها في التئيد . ولكن بما أن جسمها ظل طريئاً ناعماً ، فقد تمنى لوسيان أن يراها عارية . كان يفكر فيها مساء في سريره : سيعثر عليها في يوم من أيام الشتاء ، عارية في غابة بولونيا ، تضع يديها فوق صدرها وقد اقشعر جسدها . وتصور أن احد المارة ، وهو قصير النظر ، لامسها بعصاه قائلاً :

« ولكن ما هذا ؟ »

لم يكن لوسيان يتفق كثيراً مع ابن خالته : أصبح ريري شاباً جليلاً شديداً

الاناقة ، يدرس صف الفلسفة في لا كانال ولا يفقه شيئاً عن الرياضيات . ولم يكن لوسيان ليستطيع ان يمنع نفسه عن التفكير بريري . قبل سبع سنوات فقط كان يوسفي في سرواله ، فيمشي بعدها منفرج الساقين كالبطة ، وينظر الى امه قائلاً :

— كلا يا أمي ، لم أفعل هذا . وأعدك بذلك . كان يشعر ببعض الاستمزاز عندما يلامس ريري . لكنه ، رغم ذلك ، كان لطيفاً جداً معه وهو يشرح له دروس الرياضيات . وكان عليه ان يبذل مجهوداً قوياً لأن ريري لم يكن ذكياً . غير أنه لم يثر قط ، بل انه حافظ على صوته الهادىء . ووجدت السيدة فلوريه ان لوسيان كان على جانب كبير من الدماثة ، لكن العمة برت لم تجد له أية حسنة . ولما كان لوسيان يقترح على ريري ان يعطيه الدرس ، تحمر السيدة برت وتهتز فوق كرسيها وتقول :

— كلا ، انت لطيف جداً يا لوسيان الصغير ، لكن ريري كبير جداً . فبماكانه ان يتعلم لو أراد ، فلا ينبغي ان تعود الاعتماد على الآخرين . وذات مساء قالت السيدة فلوريه فجأةً للوسيان :

« أو تظن ان ريري شاكر لك صنيعك معه ؟ كلا عد عن خطئك يا ولدي العزيز . »

تكلمت بصوتها ذي الجرس وبسياء حسنة . وفهم لوسيان أنها تستشيط غيظاً . واحس بانزعاجه ولم يجد شيئاً للإجابة . وفي الغد وبعده ، حدثت له مشاغل كثيرة فخرجت هذه القصة من ذهنه .

ويوم الأحد صباحاً ، ألقى ريشته فجأةً وقال : « اصحيح انني لا أمين .

كانت الساعة الحادية عشرة . ولوسيان جالس الى مكتبه ينظر الى صور الأشخاص المعلقة على الجدار ، وأحس خده بحرارة نيسان الجافة القبراء .

— أصحيح انني لا أمين ؟

كانت الاجابة عسيرة . وحاول لوسيان ان يتذكر محادثته الأولى مع ريري وان يحكم على موقفه بلا تحيز . كانت قد انحنى فوق ريري وسأله باسم :

— انت تفعل ذلك ؟ ان كنت لا تفعل يا عزيزي فاعترف بذلك ؟

وبعدها بقليل ارتكب خطأ في الحلّ فردد تعبيراً اخذه عن أبيه . ولكن هل كنت اهذر عندما قلت هذا ؟ ولشدة ما بحث توصل الى معرفة شيء غامض في ذهنه يشبه قطعة الغمام : إنها فكرته في ذلك اليوم ؛ قال : انت تفعل هذا ؟ لقد حصل هذا في رأسه ، لكنه لم يكن يوصف . وبذل لوسيان جهوداً « يائسة » لينظر الى هذه الغمامة ، وأحس فجأة بأنه وقع فيها ، ابتداء من الرأس . وقد تحول هو نفسه الى غبار ، ولم يعد بعد الآن سوى حرارة بيضاء رطبة ، تقفح منها رائحة الغسيل . وأراد أن يتجنب هذا الغبار بتراجعاً قليلاً ، لكن الغبار كان يأتي معه . وفكر في نفسه : « أنا لوسيان فلورييه ، أجلس في غرفتي ، أحل مسألة في الطبيعيات ، واليوم يوم أحد » . لكن افكاره تحولت الى ضباب ، يبيض على يابض . وارتعش قليلاً وجعل يحلل شخصيات اللوحات الموجودة على الجدار ، راعيان وراعيّتان و« الحب » ثم قال في نفسه فجأة : « أنا ، اني ... »

وحدثت ضجة خفيفة : فاستيقظ من روبا صه الطويل .

لم يكن هذا شيئاً اذ قفز الرعيان الى الراء ، وبدا للوسيان انه ينظر اليه من خلف نظارة . وحل مكان الدهشة التي استبدت به ، نوع من الحيرة البقطة وتساءل :

« من أنا ؟ »

« من أنا ؟ » أنا أنظر الى المكتب ، الى الدفتر . اسمي لوسيان فلورييه وليس هذا سوى اسم . اني اهذر ، أو لا اهذر . لست أدري . فليس لهذا

أي معنى .

« أنا تلميذ نشيط : ولكن التلميذ النشط يحب العمل - وأنا لا أحبه العمل . كما أنني لا أكره العمل ، غير أنه لا يهمني . لا شيء يهمني . لن أصبح قط رئيساً » . وفكر بنفسه قلقاً : « ولكن ماذا سأصبح يوماً ما » ومرت هنيهة . وحك خده وغمز بعينه اليسرى لأن الشمس بهرتته : « من أكون » أنا ؟ » . إنها غمامة غامضة : « الأنا » . ونظر الى البعيد . فرنت الكلمة في رأسه ، وأحس بشيء يشبه الهرم يغرق في الضباب . وارتعش لوسيان وارتجفت يده وفكر في نفسه :

— ما قد توصلت . أجل توصلت . وأنا متأكد : « أنا لست موجوداً » .

طيلة الأشهر التالية ، حاول لوسيان ان ينام ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيل . كان ينام تسع ساعات في اليوم اما الباقي فكان يمضيه في الحيرة التي تزداد يوماً عن يوم ! كان أبواه يقولان بأنه على أحسن حال . وعندما فكر بأنه لن يكون له رداء الرئيس ، أحس بأنه رومنتيقي . واعتبرته رغبة بالمسير ساعات في ضوء القمر . لكن أبويه لا يسمحان له بالخروج مساء . في أغلب الأحيان كان يتمدد فوق سريره ويقيس حرارته : فيسجل الميزان ٣٧,٥ أو ٣٧,٦ ، ويفكر لوسيان بلذة مريرة كيف ان أبويه يجدانه بصحة جيدة . « أنا لست موجوداً ! » وانغض عينيه وترك الأمور وشأنها .

الوجود ما هو إلا وهم ؛ وبما أنني اعرف أنني لست موجوداً ، فعليّ إذاً أن اسد ذاتي ولا أفكر بشيء ، اريد ان انعدم . لكن الوهم قاس . لعله يعرف على الأقل سراً لا يدركه الآخرون وهو نوع من التفوق : غاري ، مثلاً ، ليس موجوداً ومثله مثل لوسيان . ولكن ما أن يرى بين المعجبين حتى يقال بأنه يؤمن إيماناً راسخاً بوجوده . والسيد فلورييه هو أيضاً غير موجود — وكذلك ريري وأي انسان آخر — والعالم مهزلة بلا مثلين . ولوسيان الذي حاز على علامة ١٥ في موضوع « الاخلاق والعلم » . فكر بأن يكتب

« موضوعاً عن العدم » وتصور أن الناس عند قراءته سيختفون الواحد تلو الآخر، كالأفاعي عند صياح الديك . وقبل أن يبدأ بكتابة موضوعه ، أراد ان يأخذ رأي بابوان استاذ الفلسفة . قال له عند ختام الدرس :

— ارجوك يا استاذ ، هل بإمكاننا أن ندافع عن فكرة عدم وجودنا ؟

فأجاب بادوان بالنفي وقال :

« أنت موجود لأنك تشك بوجودك » . ولم يقتنع لوسيان لكنه عدل عن كتابة موضوعه . في تموز، نجح بغير ضجة في امتحان البكالوريا، فرع الرياضيات ، وذهب الى فيرول برفقة أبويه . ولم تلبث الحيرة فيه ، كان ذلك كالرغبة في العطس .

ومات الأب بوليفو ، وتغير أسلوب العمال ، عمال السيد فلورييه . فهم يقبضون الآن مرتبات ضخمة ، وصارت زوجاتهم يشترين جوارب الحرير . وسردت السيدة بوفارديه وقائع رهيبة على مسمع السيدة فلورييه :

« أخبرتني الخادمة بأنها رأت عند بائع الشواء أمس ، أوزيوم الصغيرة ، وهي ابنة أحد عمال زوجك ، تلك التي أوليناها عنايتنا بعد وفاة أمها . لقد تزوجت من عامل فني من بوبرتوي . طلبت فروجاً سعره عشرون فرنكاً ، بوجه ملؤه التمجرف ! لم تعد معتبر أي شيء لذيق الطعم تحت أسنانها ! إنهن يردن ان يكون لهن ما لنا » .

في الوقت الحاضر ، عندما يذهب لوسيان برفقة أبويه للتنزه ، لم يعد العمال يكنون لها نفس الاحترام الذي كان في السابق ، فهم لا يكادون يلامسون قبعاتهم لتحية الرئيس . ذات يوم ، التقى لوسيان بابن بوليفو فتظاهر بأنه لم يره . وتأثر لوسيان من ذلك ؛ كانت فرصة ليثبت انه رئيس . فحجج جول بوليفو بنظرة كاسرة وتقدم منه وازعاً يديه وراء ظهره . لكن بوليفو لم

يشعر بأي خوف : إذ نظر الى لوسيان بعينين فارغتين وراح يصفر . وقال لوسيان في نفسه : « لم يعرفني » . لكنه شعر في قرارة نفسه بخيبة الأمل ، وبات يفكر اكثر من اي وقت مضى بأن العالم ليس موجوداً .

كان مسدس السيدة فلورييه الصغير موضوعاً في درج الخزانة . وكان زوجها قد قدمه لها في ايلول سنة ١٩١٤ قبل ان يذهب الى الجبهة . فأخذه لوسيان وقلبه بين يديه : انه جوهرة صغيرة ، ذات فوهة مذهبة ، وقبضة مطعمة . ليس بالامكان الاعتماد على موضوع فلسفي لاقتناع الناس بأنهم ليسوا موجودين . فان للاقدام على فعل ما ضروري جداً . فعل يائنس ، يبدد الظواهر ويبين العدم في العالم . كالانفجار ، والجسد الدامي فوق السجادة والكلمات المكتوبة على الورق :

- سأقتل نفسي لانني لست موجوداً :

« وانتم يا اخوتي كذلك ، انكم عدم ! »

ويطالع الناس جريدة الصباح ويرون : « مراهق تجرأ » ويحس كل واحد منهم بالاضطراب فيسأل نفسه :

« وأنا ؟ هل أنا موجود ؟ »

عرف في التاريخ ، لا سيما عند نشر فريتر ، أوبئة مشابهة من عمليات الانتحار . وفكر لوسيان بأن كلمة « شهيد » تعني باليونانية « الشاهد » ، كان شديد الاحساس كي يصبح رئيساً وليس شاهداً . وبعدها كان يكرر الدخول الى مخدع أمه ، وينظر الى المسدس ، ويدخل في النزاع الأخير . وكان يحدث له أحياناً أن يعض الفوهة المذهبة ويشد أصابعه بقوة على القبضة . ثم يعزبه شعور بالفرح إذ يفكر بأن جميع القادة الكبار حاولوا الانتحار . كنباليون مثلاً . ولم يخف لوسيان على نفسه ما كان يشعر به من يأس . وقرأ باهتمام مذكرات السانت هيلين . كان عليه مع ذلك أن يتخذ قراراً : وحدد لوسيان يوم ٣٠ أيلول كحد أخير لتردده . واصبحت أيامه الأخيرة صعبة

جداً : كانت الأزمة تدفع بلوسيان الى التوتر الشديد ، الى حد انه بات يخشى ان يتحطم ذات يوم كالزجاج . ولم يعد يتجرأ على ملامسة المسدس . بسل بات يكتفي بفتح الدرج ، ثم إنه يرفع قليلا غللات أمه ويتمتع برأى الوحش الصغير البارد الذي يرقد في ثوب الحرير الوردي . غير انه حين قرر أن يعيدش ، أحس بفراغ شديد ، وبأنه عاطل عن العمل . ولحسن الحظ أن هوم المدرسة قد عاودته : إذ أرسله أبواه الى اللبسة سان - لويس ليتابع الدروس الإعدادية لدخول المدرسة المركزية . وارتدى مئزره الأحمر الجميل الذي يحمل الإشارة وراح يغني :

« انه المخروط الذي يدير الآلات »

انه المخروط الذي يدير القاطرات ... »

إن مقدرة « المخروط » الجديدة كانت تبعث الفخار في نفس لوسيان . ثم إن صفته لا يشبه صف الآخرين : إذ كانت له تقاليده واحتفالاته الخاصة . كان نوعاً من القوة . فقد أضحى من المؤلف ان يقوم الطلاب قبل انتهاء درس اللغة الفرنسية ويصبح أحدهم : « ما هو السيار » فيجب الجميع : « إنه الفرج ! » فيردد الصوت من جديد : « وما هو الآغرو ؟ » فيجيبون بقوة أكثر : « انه الفرج » . عندها يقول المعلم باتون الذي كان كفيف البصر نوعاً ما ويضع نظارتين سوداوين ، يقول باعياء :

— أرجوكم ايها السادة . ومرت لحظات من الصمت المطبق ، كان التلاميذ خلالها ينظرون الى بعضهم البعض بنظرات تتم عن الذكاء ، ثم يصبح أحدهم : « ما هو المخروط ! » فيزأرون معاً : « انه شخص ضخم ! » في هذه اللحظة يشعر لوسيان بأنه قد احترق . في المساء ، كان يقص على أبويه بدقة ما جرى له في النهار وعندما يقول : « والصف بأ كمله أخذ هذر ... » أو « الصف بأ كمله قرر ان يعزل ميرينه » . كانت الكلمات عند مرورها تسخن فمه كجذعة من الكحول . كانت الأشهر الأولى مع ذلك ، قاسية جداً : كان لوسيان

يتخلف عن تقديم مسابقات الرياضيات والفيزياء، ثم ان رفاقه لم يكونوا حسني
 العشرة : كل على حدة : كانوا في غالبيتهم يقبضون المنح الدراسية كما ان لهم
 عادات سيئة . ويقول لوسيان لأبيه : « ما من احد منهم يمكن ان يكون
 لي صديقاً » - ويقول السيد فلورييه ! أصحاب المنح الدراسية هم عادة من
 المثقفين لكنهم لا يصبحون في المستقبل قادة من ذوي الكفاءة : أذ انهم
 أسرعوا في تدرجهم » .

وعندما سمع لوسيان عن « القادة الفاسدين » . أحس بأن شيئاً ما يؤلمه
 في قلبه ، وفكر من جديد بالانتحار ، طيلة الأسابيع التي تلت . لكنه لم يعد
 ينطوي على نفس الحماس الذي كان عليه أثناء العطلة . في شهر كانون الثاني
 فضح احد الطلبة واسمه برلياك الصف بأمره : كان يرتدي سترة خضراء او
 بنفسجية على آخر طراز ، ذات قبة مستديرة فوق سروال كالسراويل التي في
 كتب الحياطين، ضيق جداً الى حد يثير التساؤل : إذ كيف استطاع ان يرتدي
 هذا السروال . وحل برلياك أخيراً في الرياضيات وصرح بقوله :

— لا يعني الأمر ، فأنا من الفرع الأدبي، وأدرس الرياضيات للتقوية ليس إلّا.
 وما هو إلّا شهر حتى سحر الجميع : كان يوزع لفائف مهربة . يقول لرفاقه
 بأن لديه نساء ، ويبدى لهم الرسائل التي بعثن بها اليه . وقرر جميع من في
 الصف اعتباره شاباً أنيقاً ، وبأن عليهم ان يريحوا أنفسهم منه . كان لوسيان
 معجباً باناقته وبأساليبه ، لكن برلياك كان يلعبه « بصبي الأغنياء » وقال
 لوسيان في أحد الأيام : « بعد هذا ، وددت لو كنت ابن فقير . » وابتسم
 برلياك وقال له : « انت كليّ ساخر » . وفي اليوم التالي اطلعه على قصيدة :
 « كان كاريزو يهذر بعينيه النيتن كل مساء ، انه صبور كالجلجل . صنعت امرأة
 باقة من أعين عائلتها وألقت بها على المسرح . والكل انحنوا أمام هذا العمل
 النموذجي . ولكن لا تنسوا أن ساعة المجد دامت سبعة وثلاثين دقيقة : تماماً منذ
 الهتاف الأول وحتى انطفاء أضواء الأوبرا (وبعدها كان ينبغي ان تجر

زوجها، وهو الحائز على عدة جوائز ، وكان يسد بصليبين اثنين المحجرتين اللذين تقع فيها عيناه). وانتبه الى هذا، ان جميع الذين يفرطون في أكل اللحم البشري المحفوظ . يموتون من نقص في الفيتامين « .

فقال لوسيان وقد خرج عن طوره :

— حسنًا حسنًا .

وقال برلياك برخاوة :

— سأحوز عليها ، بطريقة فنية جديدة ، فهذا ما يسمى بالكتابة الآلية . ولم يمتد وقت طويل حتى شعر لوسيان برغبة عنيفة في الانتحار وصمم على استشارة برلياك وسأله بعد أن عرض قضيته :

— ماذا ينبغي أن أفعل ؟

واصغى اليه برلياك باهتمام . وكان قد تعود على ان يمص اصابعه وان يطلي بريقه البثور الموجودة على وجهه ، بحيث ان جلده كان يلمع في هذا المكان أو ذاك، وكأنه طريق تبللت بالمياه في أمكنة مختلفة . وخلص الى القول :

— اصنع ما شئت فليس لهذا أية أهمية .

وفكر قليلاً ثم اضاف وهو يشد على الكلمات :

— ما من شيء له أهمية .

واصيب لوسيان بخيبة أمل ، لكنه فهم أن برلياك قد تأثر كثيراً حين دعاه للعشاء في بيت والدته . كانت السيدة برلياك محبة جداً . وعلى وجهها آثار بقع ، تجاها خدما الأيسر . وقال برلياك للوسيان :

— هل ترى ؟ انما نحن ضحايا الحرب الحقيقيين .

كان هذا رأي لوسيان ايضاً وقرر أي الاثنين على انها ينتميان معاً للجيل

الضحية . وطلع النهار ، وبرلياك لا يزال ممدداً فوق سريره ، وقد اشتبكت يده تحت رقبته . كانا يدخنان اللغائف الانكليزية . ويصفغان الى الاسطوانات ، وأصغى لوسيان لصوت صوفيا توكر وآل جونسون . واعتراه نوع من الكآبة ، وفكر لوسيان بأن برلياك هو خير اصدقائه . وسأله برلياك ما اذا كان يعرف التحليل النفسي . كان صوته مجداً ، وينظر الى لوسيان بائزان . وأمر اليه قائلاً :

— لقد اشتهيت أمني حتى سن الخامسة عشرة . وشعر لوسيان بالانزعاج . وخشي ان يحمر وجهه وتذكر وجه السيدة برلياك المشوه ، وتساءل كيف يمكن له ان يشتهيها . لكنها حين دخلت لتقدم لها الشراب ، بدا عليه الاضطراب وحاول ان يتعرف على صدرها من خلال الثوب الذي كانت ترتديه ، وما ان خرجت حتى قال برلياك بصوت ايجائي :

— انت ايضاً بالطبع ، ترغب في ان تضاجع امك .

لم يكن يسأل بل إنه يؤكد .

فهز لوسيان كتفيه وقال :

— بالطبع .

في صبيحة اليوم التالي كان شديد الاضطراب وخشي ان يعتمد برلياك الى تكرار الحديث . لكنه اطمأن بسرعة وقال :

— على كل حال ، لقد تناول نفسه أكثر مما تناولني .

كما دهش كثيراً للطابع الشخصي الذي اتخذته محادثتهم ، وفي يوم الخميس التالي ، قرأ كتاباً من كتب فرويد في مكتبة سانت جيفياف . كان بمثابة وحي . وكرر لوسيان وهو يحجوب الشوارع :

— انه هذا إذا ، إنه هذا .

ثم اشترى بعد ذلك « مقدمة التحليل النفسي » و« الامراض النفسية في الحياة اليومية » ، واصبح كل شيء واضحاً لديه . ذلك الشعور الغريب باللاوجود، وذاك الفراغ الذي عاناه في وعيه، وتلك الروبسة، وهاتيك الحيرة، وتلك الجهود الخائبة في سبيل التعرف على الذات، تلك الاشياء التي لم تصادف سوى ستار من الضباب .

وفكر في نفسه :

لا بد وان لدي عقدة نفسية . وشرح لبرلياك كيف انه، حين كان صغيراً، تصور نفسه مروبصاً، وكيف ان الاشياء لم تبد له وكأنها واقعية، وخلص الى القول : « لا بد وان اكون مصاباً بعقدة نفسية » . فقال برلياك : « تماماً كما أنا » . واعتادا معاً على تفسير احلامها وأقل حركة من حركاتها . وكادت لدى برلياك قصص كثيرة ، ظن لوسيان لوفرتها بأن صديقه يخترعها او انه يحسنها . لكنها كانتا متفقين تمام الاتفاق ، يتناولان اشد المواضيع تعقيداً بطريقة موضوعية . واعترف كلاهما بأن مسحة السرور التي تكتنفها ان هي إلا قناع لخداع الآخرين . بينا هما في الواقع معذبان . وتحلل لوسيان من هواجسه . وانكب بشغف على دراسة التحليل النفسي لانه وجده ملائماً له ، وأحس انه اكثر اطمئناناً ، وليس عليه بعد الآن إلا ان يجد جميع الظواهر الملووسة من طبيعته ، في نطاق الوعي . بل ان لوسيان الحقيقي انما هو غارق في اللاوعي . ويلبغي ان يحلم به دون ان يراه كمن يحلم بعزير غائب . وصار لوسيان يفكر طيلة اليوم بعقده النفسية ويتصور بنوع من الفخار ، العالم المظلم ، العالم القاسي العنيف الذي يحتبىء في البحرة وعيه . وقال لبرلياك :

— هل تدري ! لقد كنت في الظاهر صبياً نائماً غير آبه لشيء ، كنت شخصاً لا أهمية له . وكنت شديد التأثر بهذا الاعتقاد حتى كدت ان اتمسك به . لكنني كنت أعرف بان هناك شيئاً آخر .

فأجاب برلياك :

— هناك دائماً شيء آخر .

وتبادلا الابتسام بكل فخار . ونظم لوسيان قصيدة بعنوان « عندما يتمزق الغمام » فوجدها برلياك رائعة ، لكنه أخذ على لوسيان طريقتيه في نظمها حسب الأوزان المعروفة . وحفظها مع ذلك غيباً ، وكانا يقولان بكل طيبة خاطر عندما يريدان الكلام عن نوازعها الجنسية :

« السرطانات الكبيرة المكدسة تحت معطف الغمام » . أو يختصران بقولهما : « السرطانات » وهما يغمزان بأعينها . ولم يفض بعض الوقت حتى بات لوسيان يحذر هذا رهيباً ، عندما يخلو لنفسه . ولم يعد يتجرأ على النظر الى امه في وجهها ، وكان يخشى ، حين يقبلها قبل النوم ، أن تحول القوة غير المنظورة قبلته نحو فم السيدة فلورييه ، إن نفسه تنطوي على بركان . وتعهد لوسيان نفسه بعناية فائقة حتى لا يهدت تلك النفس المتعاطمة المشؤومة التي وجدها فيه . إنه بات يعرف ثمنها حق المعرفة ويخشى هباتها العنيفة . ويقول في نفسه : « أنا اخاف من نفسي » . لقد انقطع منذ ستة أشهر عن ممارسة العادة السرية لأنها كانت تقلقه وكان لديه الكثير من المشاغل ، لكنه عاد اليها : على المرء ان يتابع خطته ، وكتب فرويد مليئة بقصص الكثيرين من الشباب التاسعين ممن اصابوا بالعصاب لأنهم انقطعوا فجأة عن ممارسة عاداتهم . كان يسأل برلياك :

— أفلن نصبح مجانين ؟ لذا كانا يحسان بغرابتهما . وتسلس الظل الى غرفة برلياك وكان قد أحرق عدة علب من السكائر كما كانت يدها ترتجفان . عندها قام احدهما بصمت ، ومشى بخطى الذئب نحو الباب وأدار الزر . وعمّ النور في الغرفة ، ونظر واحدهما للآخر نظرة ملؤها التحدي .

ولم يتأخر لوسيان في ان يلاحظ بأن صداقته مع برلياك انما هي قائمة على

سوء تقام : ما من أحد بلا ريب ، كان أكثر تحسناً منه لعقدة أوديب ، لكنه كان يرى فيها دلالة على قوة العاطفة التي كان يأمل ان يحولها فيما بعد نحو غايات أخرى . اما برلياك ، فكان على العكس سعيداً بحالته ولم يكن يريد الخروج منها . وكان يقول : « نحن اشخاص مارقون ، فاشلون » . فيجيبه لوسيان وكأنه صداه : « لن نفعل أي شيء ابداً ، لن نفعل اي شيء » . لكنه كان غاضباً . بعودتهم من عطلة عيد الفصح أخبره برلياك بأنه اقتسم مع أمه غرفة واحدة في احد فنادق ديجون . واستيقظ في الصباح الباكر ، واقترب من السرير حيث كانت أمه لا تزال نائمة ورفع الغطاء برفق . وقال ضاحكاً : « كان قميصاً مشعراً » . ولم يسمع لوسيان حين سمع تلك الكلمات إلا ان يحتقر برلياك بعض الشيء ويحس بعزله الشديدة . جميل ان يكون لدى المرء عقد نفسية شريطة ان يحسن تصرفها في الوقت المناسب : إذ كيف يمكن للرجل ان يتحمل مسؤولياته ويتولى زمام الامور ، إذا احتفظ بنوازع الطفولة الجنسية ؟ وبدأ لوسيان يقلق كثيراً : كان يوده ان يستشير أحداً ولكنه لم يكن يعرف الى من يوجه سؤاله . غالباً ما كان برلياك يحدثه عن رجل سريالي يدعى برجير ، غائص في التحليل النفسي وهو يفوقه معرفة . لكنه لم يقترح قط على لوسيان التعرف عليه . كما شعر لوسيان بالخيبة الشديدة لانه اعتمد على برلياك في تدبير النساء له .

وفكر بان وجود صاحبة جميلة من شأنه ان يغير بالطبع مجرى افكاره . لكن برلياك انقطع عن الحديث عن عشيقاته الجميلات . كانا يذهبان في بعض الاحيان تاحية الشوارع العريضة يلاحقان الفتيات بدون ان يتجرأ على محادثتهن . ويقول برلياك :

— ماذا تريد ايها المسكين ، لسنا من الجنس الذي يجب النساء . فالنساء تحس فينا شيئاً يزعجهن . ولم يجبه لوسيان ؛ إذ أن برلياك بات يزعجه . غالباً ما كان يبدي ملاحظات عديمة اللياقة بشأن أبري لوسيان ، اذ كان يسميها السيد

دي موليه وزوجته . كان لوسيان يدرك بان الشخص السريالي يكره البورجوازية على العموم ، لكن برلياك قد تلقى مراراً دعوة السيدة فلورييه ، وقد عاملته على صعيد الصداقة والثقة . فليس من اللياقة إذاً أن يتناولها بهذه اللهجة . ثم ان برلياك كان رهيباً بعادته المستحكمة : ألا وهي استدانة الدراهم بدون ارجاعها : في الأوتوبيس لم يكن لديه دراهم ، وعلى رفيقه ان يدفع عنه الاجرة . وفي المقاهي لم يكن ليقتح سوى مرة واحدة من خمس دفع حسابه . وقال له لوسيان في احدى المرات ، إنه لا يفهم تصرفه هذا وان على الاصدقاء ان يقتسموا تكاليف نزهاتهم . فنظر اليه برلياك بعمق وقال : « كنت أشك في ذلك فأنت ذو نزعة شرجية » وشرح له الصلة التي اعطاها فرويد بين التبرز والبخل . وقال له : « أود ان اعرف كم من الوقت ظلت أمك تنظف قذارتك ؟ »

وكادا ان يتخاصما .

منذ بداية شهر أيار ، أخذ برلياك يتغيب عن الكلية : وكان لوسيان يذهب للالتحاق به بعد انتهاء الدرس في أحد البارات في شارع البتي شان حيث كانا يشربان الفرموث ماركة المصلوب . وفي يوم الثلاثاء بعد الظهر وجد لوسيان صديقه برلياك أمام كأس فارغ . فقال برلياك : « ها أنك أتيت . اصغ أنا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان فموعدني في الساعة الخامسة ، انتظري نصف ساعة لأن الطبيب يقيم في المكان المجاور » .

وأجابه لوسيان وهو يجلس متهاكاً على الكرسي :

— حسناً . يا فرانسوا اعطني كأساً من الفرموث .

وفي تلك اللحظة دخل البار أحد الرجال وابتسم بدهشة حين وقع نظره عليها . وتساءل لوسيان في نفسه : « من تراه يكون ؟ » أما برلياك فقد وقف حين مد يده للغريب بطريقة تحول دون رؤية لوسيان . وكان

يتكلم بصوت خافت سريع ، بينما يجيبه الآخر بصوت واضح : « لا . لا يا صديقي . لن تكون سوى مهرج » ، وراح في نفس الوقت ، يقف على رؤوس أصابعه ليرى لوسيان من فوق رأس برلياك ، باطمئنان هادئ . لعله في الخامسة والثلاثين من عمره . له وجه شاحب وشعر أبيض بديم . وفكر لوسيان وقلبه يخفق : « انه برجير بكل تأكيد ، كم هو جميل ! » .

أخذ برلياك الرجل ذا الشعر الأبيض برفقه بحركة متسلطة الى حد ما . وقال له :

— تعال معي أنا ذاهب الى عيادة طبيب الأسنان ، على بعد خطواتين من هنا .

فأجاب بدون أن يزيح نظره عن لوسيان :

— لكنك كنت مع صديقك . وعليك أن تجري التعارف بيننا .

ونفض لوسيان باسماً . وفكر في نفسه : « خدعة ! » وتورّد خدّاه . وغار عنق برلياك بين كتفيه ، وظن لوسيان للحظة بأنه سيرفض . وقال بصوت ملؤه السرور « حسناً ، قدمني له » . لكنه ما كاد يتكلم حتى بان الدم في صدغيه . وتمنى لو أنه يسقط الى باطن الأرض . وغير برلياك رأيه وتمتم بدون أن ينظر الى احد :

— لوسيان فلورييه ، رفيقي في السككية ، السيد أشيل برجير .

فقال لوسيان بصوت ضعيف :

— انني معجب بكتابائك ايها السيد .

وأمسك برجير يده بين أنامله الطويلة وحمله على الجالوس . ومرّت هنيئة من الصمت . كان برجير يغمر لوسيان بنظرة ملؤها الحنو ، وهو لا يزال يمسك بيده ، وسأله بعدوبة :

— هل أنت قلق ؟

فقال لوسيان بصوت أوضح بعد ان رمق برجير بنظرة جادة : « انسي قلق ! » وبدأ له وكأنه يسمع احـد دروسه ، وتردد برجير لحظة ثم عاد على عجل ليأخذ مكانه بعد أن ألقى قبعته على الطاولة . كان لوسيان يحترق لشدة رغبته في أن يحدث برجير عن محاولة الانتحار . انه شخص بالامكان أن نـ نحدثه بلا مقدمات ولا تحضير . ولم يجرؤ على أن يقول شيئاً بسبب برلياك . كان يكره برلياك . وسأل برجير الخادم :

— هل عندكم عرق ؟

فقال برلياك متضجراً :

— كلا ، ليس عندهم عرق ؛ انها حانة جميلة ولكن ليس فيها سوى الفرموث .

فسأل برجير بسهولة تبلغ درجة الرخاوة :

— ما هذا الشيء الأصفر المعبأ في القنينة ؟

فأجابه الصبي :

— إنها ماركة المصلوب الأبيض .

— حسناً ، اعطني منه .

وتلعل برلياك على كرسيه . وحار بين رغبته في امتداح اصدقائه وخشيته من ابراز لوسيان على حسابه . وانتهى الى القول بصوت متجههم فخور :

— أراد ان ينتحر .

فيقول برجير :

— اقسم بأنني أفكر بذلك .

وتمر هنيئة صحت .

كان لوسيان قد اخفض عينيه بهيئة متواضعة ولكنه تساءل ما اذا كان
برلياك سيذهب . ونظر برجير فجأة الى ساعته . وسأل :

— وطبيب الأسنان ؟

ونفض برلياك بالرغم منه ورجاه :

— رافقني يا برجير ، انه على بعد خطوتين .

— لا أرافقك لأنك ستعود . سأبقى برفقة صديقك .

ومكث برلياك لحظة وراح ينط ، فقال برجير بصوت جليل :

— هيا اذهب ، ستعود للقائنا هنا .

وما ان ذهب برلياك حتى قام برجير وجلس بغير تكلف الى جانب لوسيان
وسرد له لوسيان قصة انتحاره بالتفصيل . وشرح له بأنه اشتكى امه ، وبأنه
سادي شرجي ، وبأنه لا يحب شيئاً في جوهره ، وبأن كل شيء عنده مهزلة .
كان برجير يصغي اليه بدون أن يتكلم ، بينما لوسيان مسرور جداً لأنه
وجد من يفهمه . وما ان انتهى ، حتى احاطه برجير بذراعه فشم لوسيان
رائحة الكولونيا والتبغ الانكليزي .

— أتدري يا لوسيان ماذا اسمي حالك ؟

فنظر اليه لوسيان بأمل وبغير خيبة .

قال برجير :

— أسمى التشوش .

التشوش : بدأت الكلمة عذبة بيضاء لكن آخرها رنّ كصوت النفير .

وقال لوسيان : « التشوش ... »

وأحس بأنه مجتهد قلق مثلما كان عليه حين قال لبريري إنه مريض . كان

البار معتمداً ، لكن بابه فتح على مصراعيه لجهة الشارع ، تحت غمام الربيع الساطع . وكان لوسيان يشم ، عبر رائحة برجير العطرة ، رائحة الحانسة الثقيلة ، وهي رائحة النبيذ الأحمر والخشب الرطب . وفكر في نفسه : « التشوش ... إلأم سيقودني هذا ! » فلم يعرف ما اذا كان قد اكتشف فيه جدارة أم مرضاً جديداً . وأبصر قرب عينيه بشفتي برجير الرشيقتين ، اللتين كانتا تبديان بريق سن ذهبية ثم تحجانه . وقال برجير :

— احب الأشخاص الذين عانوا التشوش ، وأرى أن لك حظاً خارقاً للعادة . لأن هذا إنما هو هبة . هل ترى كل هذه الخنازير ؟ إنهم قوم قاعدون . ينبغي أن تقدمهم طعمة للنمل الأحمر ليعبث بهم قليلاً . أو تدري ما تفعل هذه الحيوانات الواعية ؟

فقال لوسيان :

— انها تأكل البشر .
— نعم ، انها تريح الهياكل العظمية من اللحم الانساني الذي يكسوها .

فقال لوسيان :

— انني ألاحظ ذلك .

وأضاف :

— وأنا ؟ ما ينبغي أن أفعل ؟

فقال برجير بنوع من الذعر الهزلي :

— لا شيء بحق الله . وعليك خاصة ألا تقعد مثلهم ، وعلى وتد . هل قرأت رانبو ؟

فقال لوسيان :

— ك — ل — ل — لا .

- سأعيرك ديوان « الالهام » . إصنع ، ينبغي أن نجتمع في وقت آخر .
فإذا كان لديك بعض الفراغ يوم الخميس ، مرّ ببיתי في الساعة الثالثة فأنا اقيم في
هونبارناس ٩ ، شارع السكامبانيه برميير .

يوم الخميس التالي ، ذهب لوسيان الى بيت برجير ، وصار يتردد عليه طيلة
شهر أيار . واتفقا على ان يقولوا لبرلياك انها يلتقيان مرة في الأسبوع ، لأنها
يريدان ان يكونا صريحين معه بدون ان يسببا له أي عناء . وأبدى برلياك
امتناعه . وقال للوسيان ساخراً : « انه الغرام العابر ؟ شرح لك القلق ،
وشرحت له الانتحار : يا للعبة الكبرى ، أليس كذلك ! » واحتج لوسيان
وقال له بعد ان احمر وجهه :

- سأبرهن لك بأنك انت الذي تكلمت أولاً عن عملية انتحاري .

فقال برلياك :

- أوه ! حدث ذلك ، لأجنبك الحجل من عملية سرده بنفسك . وأبعدا
أوقات لقاءهما . ذات يوم قال لوسيان لبرجير :

- إن كل ما كان يعجبني فيه ، أخذه عنك ، لقد أدركت هذا في الوقت
الحاضر .

فقال لبرجير ضاحكاً :

- برلياك هو قرد ، وهذا ما جعلني أوجه اهتمامي اليه . أتدري بأن
جدته لأمه يهودية ؟ وهذا ما يفسر أشياء كثيرة .

فأجاب لوسيان : « في الواقع » وأضاف بعد لحظة : « إنه شخص جذاب
على كل حال » . كانت شقة لبرجير مليئة بالأغراض الغريبة المضحكة : كتبات
ترتكز مقاعدها الخشبية على سيقان نساء صنعت من الخشب المدهون ، وتماثيل
سوداء ، وحزام للعنق صنع من حديد ذي أشواك ، وأثداء من الجفصين

غرست فيها ملاعق صغيرة . وعلى المنضدة ، قملة هائلة من البرونز وججمة كاهن مسروقة من مجموعة عظام ميسترا ، تستعملان لتثبيت الأوراق . أما الجدران فكانت مرصوفة ببطاقات الدعوة التي تعلن عن موت برجير السريالي . الشقة رغم كل شيء توحى بنوع من الترف الذكي ، وكان لوسيان يحب ان يستلقي على ديوان غرفة التدخين . وان ما أثار دهشته بصورة خاصة ، تلك الأشياء التي رصفها برجير على الرف : من مسحوق العطر ، الى وسخ الشيطان الى رباط الساق الخاص بالعروس ... كان برجير وهو يتكلم يتناول قليلاً من وسخ الشيطان بين أصابعه وينظر اليه باهتمام قائلاً :

— إن لهذه الأشياء قيمة ثورية ، انها تثير القلق . ان فيها قوة مدمرة . تفوق القوة التي تضمها جميع مؤلفات لينين . وكان لوسيان ، وقد دهش وانهر ، يتطلع تارة الى هذا الوجه الملعذب ذي العينين الغائرتين ، وطوراً الى تلك الأصابع الدقيقة التي تحمل برفق تلك القذارة . كان برجير يحدثه أكثر الأحيان عن رامبو وعن الحلال القياسي في جميع الحواس . « حين يصبح بإمكانك وانت تمر في ساحة الكونكوردي ، ان ترى بوضوح عندما تشاء ، زنجية راكعة تلحس المسلة ، عندها تستطيع ان تقول إنك خرقت النظام وأنقذت نفسك » . وأعاره ديوان « الإلهام » و« أناشيد المالدرو » ، ومؤلفات الماركيز دي سال . وكان لوسيان يسعى الى الفهم باخلاص ، لكن كثيراً من الأمور كانت تفوته ، كما تعجب لأن رامبو كان لواطياً . وسأل عن ذلك برجير الذي راح يضحك : « ولكن ، لماذا يا صغيري ؟ » وبدأ لوسيان شديد الانزعاج . واحمر وجهه وكره برجير لمدة دقيقة من كل قلبه ؛ غير انه سيطر على نفسه ورفع رأسه وقال بصراحة بسيطة : « قلت انها قذارة » . فداعب برجير شعره : وبدأ انه قد رن كثيراً وقال : « هاتان العينان المنغمستان بالاضطراب ، عينا الغزالة ... أجل يا لوسيان . قلت انها قذارة . إن لواط رامبو هي الحلل الأول والتابع في حساسيته . وانما نحن مدينون لها بقصائده . فالاعتقاد بأن هناك أغراضاً مميزة خاصة بالرغبة الجنسية ، وبأن

هذه الأغراض هي النساء لان لمن ثقباً بين الساقين ، أن هو إلا اعتقاد بغيض خاطيء لدى «القاعدين» . انظر ! » وأخرج من مكتبه حوالي اثني عشرة صورة مصفرة ورماها على ركبتي لوسيان . ورأى لوسيان صوراً مذهلة للبغايا العاريات ، ضاحكات بأفواههن الخالية من الاسنان ، وقد باعدن ما بين سيقانهم كما تتباعد الشفاد ، وغرسن بين أفخاذهن شيئاً كاللسان المكسو بالبرق .. وقال برجير : « اشتريت المجموعة بثلاثة فرنكات في أبو سعدة ، انك إن قبّلت مؤخرة هؤلاء النسوة ، تكن ابن عائلة ، وكل الناس يقولون إنك تعيش حياة رجل . لأنهن نساء ، هل تفهم ؟ وأنا أقول لك بأن أول ما يجب أن تفعله هو أن تقتنع بأن « كل شيء » يمكن أن يشكل غرضاً للرغبة الجنسية ، من آلة الخياطة الى الانبوب الزجاجي ، وكذلك الحصان أو الحذاء . » وقال ضاحكاً :

— أنا نكحت الذباب ، واعرف جندياً بحرياً ينكح البط . كان يضع رؤوسها في درج الطاولة ، ويمسكها بقوة من ساقها ، ويبدأ ! وقرص برجير اذن لوسيان وختم حديثه : « كانت البطة تموت على الآخر ، فيأكلها الجندي » .

كان لوسيان يخرج من تلك الحادثات ملتهب الرأس ، يفكر بأن برجير عمقري ، لكنه في بعض الأحيان كان يستفيق من نومه وقد تبلل جسمه بالعرق ، وتتكدس في رأسه من جديد رؤى رهيبه بذينة ، ويتساءل ما اذا كان برجير يؤثر عليه تأثيراً حسناً . وتنهّد وهو يلوي يديه : « أن اكون وحيداً ! ما من أحد ينصحني ، ويقول لي اذا كنت على « الصراط المستقيم ! » فلو ذهب الى آخر الشوط ، ومارس جميع انواع الخلل في حواسه ، افلن تزل قدمه ويفرق ؟ وذات يوم ، بينما كان برجير يحذثه مطولاً عن اندريه بريوتون ، تمتم لوسيان وكأنه في حلم : « نعم ، ولكن اذا كنت ، بعد هذا ، لا اودّ الرجوع الى الورا » . فارتجف برجير وقال : « تعود الى الورا ؟ من يتحدث عن الرجوع الى الورا ؟ لو تصبح مجنوناً يكن هذا افضل . وبعدما ، على

حد قول رامبو : سيأتي عمال بغيضون آخرون » . فقال لوسيان بأسى :
« هذا ما فكرت به » . ولاحظ ان محادثاته الطويلة كانت تصل الى نتيجة
معاكسة لتلك التي يبغيها برجير ! ما ان يباغت لوسيان نفسه وهو يعاني
حساً دقيقاً نوعاً ما ، او انطباعاً خصباً ، حتى يبدأ بالارتجاف وفكر في نفسه :
« ها ان الأمر قد بدأ . ونمى لو انه لا يشعر بعد الآن بسوء تلك الأنواع
الخشيفة والكثيفة من الادراك الحسي . ولم يعد يشعر بالطمأنينة إلا عند
المساء ، حين يكون مع ابويه : هناك كان ملاذه . كنا يتحدثان عن بريان ،
وعن سوء نية الألمان ، وعن ولادة نسيبتها جان ، وعن غلاء المعيشة . وكان
لوسيان يبادلهم تلك الآراء بلذة ، وبنوع غليظ من انواع الحس السليم . ذات
يوم وكان عائداً من بيت برجير ، اغلق الباب بالفتح آلياً وضغط على الزليج .
ولما ادرك حركته تلك ، اجهد نفسه بالضحك ، لكنه لم يستطع النوم طيلة
الليل : وفهم بأنه خائف .

غير انه لن يتخلى بأي ثمن عن صداقة برجير . كان يقول لنفسه :
« انه يسعني » . ثم انه كان يقدر هذا النوع المميز من انواع الصداقة الذي
أحسن برجير اقامته بينهما . فبدون ان تفارقه نبرة الرجولة ، كان بإمكان
برجير ان يجعل لوسيان يشعر بخنوه : اذ كان مثلاً يعيد ربط ياقته ، ويزجره
لانه لا يحسن هندامه ، ويسرح له شعره بمشط ذهبي من صنع كمبوديا .
وكشف للوسيان عن خفايا جسده وشرح له حلاوة الشباب القاسية المفعمة
بالعاطفة . كان يقول له : « انك انت رامبو ، كانت له يدك الكبيرتان حين
قدم الى باريس لمقابلة فرلين ، كان له هذا الوجه الوردى ، وجه الفلاح الشاب
الرافل بالصحة ، وهذا الجسد الطويل الناحل كجسد فتاة شقراء » . كان يرغب
لوسيان على فك قبته وفتح قميصه ، ثم يقوده شارداً ، الى المرأة ، يتمتع
بهذا الانسجام الجذاب بين خديه الأحمرين وعنقه الأبيض ؛ وعندها يلامس
برفق ردف لوسيان ويضيف بحزن : « على المرء أن يلتحق في سن العشرين » .
في الوقت الحاضر ، اصبح لوسيان كثير التطلع في المرأة ، لقد تعلم كيف

يستمتع بشبابه الغض . وفكر وهو يخلع ثيابه بحركات ملؤها العذوبة بأنه رامبو . ويات يعتقد بأن حياته ستكون قصيرة مؤلة كحياة زهرة رائعة الجمال . في تلك اللحظات ، يتبادر الى ذهنه بأنه رأى في السابق انطباعات وصوراً كهذه : ويرى نفسه من جديد ، بفستانه الطويل الأزرق وجناحي الملك ، يوزع الزهور في عملية بيع ، قصد الاحسان . ويتطلع الى ساقيه الطويلتين . ويقول في نفسه بارتياح : « هل صحيح ان جلدي ناعم الى هذا الحد ؟ » ومرة راح يمر بشفتيه فوق ذراعه ، من القبضة حتى المرفق ، على طول وريد أزرق جميل .

ذات يوم وهو يدخل بيت برجير ، حصلت له مفاجأة لا يرغب فيها : برلياك كان هناك يقطع بالسكين أقساماً من مادة مائلة للسواد تشبه قطعة من التراب . لم يكن الشاب قد التقيا منذ عشرة أيام : وتصادفا ببرود . وقال برلياك : « هل ترى هذه » انها قطعة حشيش ، سنضع قليلاً منها في الغليون بين طبقتين من التبغ الأشقر ، وستحدث مفعولاً مدهشاً » . وأضاف : « ولك فيها حصة » وقال لوسيان : « شكراً ، أنا لا أتعك بهذه الحصة » وراح الآخران يضحكان بينما كان برلياك يلح عليه بعين غاضبة : « انما انت مغفل ، ستأخذ قليلاً منها : فليس بإمكانك ان تتصور كم هذا لذيق » . فقال لوسيان : « قلت لك لا » . ولم يجب برلياك بشيء ، وأخذ يتسم أبسامة متفوقة ، ورأى ان لوسيان يتسم هو الآخر . ف ضرب برجله وقال : « لا أريد تلك القطعة ، لا أريد ان ارهق نفسي ، فن البلاء ان يتعاطى المرء هذه القضايا التي تجعله مخبولاً » . قال هذا بالرغم منه ، ولما أدرك ما ل كلامه وتصور ما يمكن لبرجير ان يعتقد فيه ، اعترفته رغبة في قتل برلياك ، وتصاددت الدموع الى عينيه . وقال برلياك وهو يهز كتفيه : « انت بورجوازي ، تتظاهر بأنك تعوم ، لكنك تخاف ان تزل قدمك » . فقال لوسيان بصوت اكثر هدوءاً : « لا أريد أن أدمن على المخدرات ، انها عبودية كسائر أنواع العبودية وأريد ان أظل جاهزاً في كل وقت » . فأجاب برلياك بحدة : « قل

بأنك لا تريد ان تلتقي » . وهم لوسيان بصفعه ضربتين لما سمع صوت برجير الجليل يقول لبرلياك : « دعه يا شارل ، فالحق الى جانبه . وخوفه الانتماء نوح من التشوش أيضاً » ، ودننا رهبا مستلقين على الدبران ، وتصاعدت في الحجرة رائحة ورق ارمينيا . أما لوسيان فقد جلس على كنبه من المحمل الأحمر ناظراً اليهما بصمت . وما هي إلا لحظة حتى أرحى برلياك رأسه الى الوراء وخفق حاجباه بنوع من الابتسامة المبللة ، وأخيراً نهض برلياك وغادر الحجرة بخطى مترددة : لقد حافظ حتى النهاية على تلك الابتسامة الناعسة اللذيذة فوق شفثيه . وقال لوسيان بصوت مبسوح : « اعطني غليوناً » . فأخذ برجير يضحك وقال : « لا داعي لذلك . ولا تهتم لبرلياك . فأنت لا تعرف ما هو يفعل في هذه اللحظة ؟ » . فقال لوسيان : « هذا لا يهمني » . فقال برجير بهدوء : « حسناً ، أعلم مع ذلك انه يقىء . هذا هو المفعول الوحيد الذي يحدثه الحشيش فيه . اما الباقي فليس سوى مهزلة ، لكنني أعطيه ليدخن في بعض الأحيان فهو يريد ان يلفت نظري اليه . وهذا ما يسليني » وفي صبيحة اليوم التالي جاء برلياك الى الكلية وأراد ان يعامل لوسيان من فوق . وقال له : « انت تصعد في الحافلات ، لكنك تحسن اختيار الذين يظنون في المحطة » . فأجابه لوسيان : « أنت كثير الادعاء لعلك لا تدري أنني اعرف ما كنت تفعله امس في الحمام ؟ كنت تقىء ، يا صاحبي ! » فاصفر وجه برلياك : « هل أن برجير هو الذي اخبرك بذلك ؟ »

— من تريد ان يكون ؟

فتمتم برلياك :

— حسناً ، ولكنني لم أكن لأظن أن برجير يهزأ من اصحابه القدامى مع أصحابه الجدد . كان لوسيان مضطرباً نوعاً ما فقد وعد برجير بأنه لن يتكلم عن شيء . وقال : « حسناً إنه لم يسخر منك ، بل أراد ان يبرهن على ان قصصك

لا تتطلي عليه». لكن برلياك أدار ظهره وخرج بدون أن يشد على يد لوسيان . ولم يكن لوسيان فخوراً جداً حين صادف برجير في المرة الثانية . سأله برجير بهيئة لا تتم عن شيء :

— ماذا قلت لبرلياك ؟

وأخفض لوسيان رأسه بدون أن يجيب . كان متضيقاً جداً . وفجأة احس بيد برجير فوق رقبته : « لا بأس عليك يا صغيري . على كل حال يجب أن ينتهي الأمر : فالممثلون لا أرغب بهم دائماً » . واستعاد لوسيان بعض قوته ، ورفع رأسه وابتسم وقال : « لكنني أنا ممثل ايضاً » .

فأجابه برجير وهو يضمه اليه :

— نعم ، ولكن انت ، انت جميل .

وسمح لوسيان بذلك . واحس بأنه عذب كالفتاة وتصاعدت الدموع الى عينيه . وعانقه برجير على خده ، وعضّ له شفتيه برفق وهو يناديه تارة « بالأبله الصغير » . وطوراً « بأخي الصغير » . وفكر لوسيان بأن من حسن الحظ ان يكون للمرء اخ كهذا الأخ .

وأراد السيد فلورييه وزوجته أن يتعرفا على برجير الذي كان لوسيان يتحدث عنه ودعياه ، لتناول طعام العشاء . لقد وجده الجميع جذاباً ، حتى جرمن ، التي لم تر في حياتها رجلاً جميلاً الى هذا الحد . وكان السيد فلورييه قد تعرف في السابق على عمه الجنرال نيزان وتحدث عنه مطولاً . لذا كانت السيدة فلورييه سعيدة بأن تولي برجير امر مرافقة ولدها في عطلة عيد العنصرة . وقصدا روان ، بالسيارة . كان لوسيان يريد زيارة الكاتدرائية ودار البلدية ، لكن برجير رفض تمام الرفض . وسأله بوقاحة : « تريد زيارة هذه القاذورات ؟ » واخيراً ذهباً ليقضيا ساعتين في شارع الكورديلييه ، وكان برجير مضحكاً : إنه ينادي جميع الأشخاص « آنسي » وهو يرفس

لوسيان برجله من تحت الطاولة ، ثم رضي بالصعود مع احدها من لكنه ما لبث ان عاد بعد خمس دقائق وقال : « فلنذهب من هنا » ، وإلا سيكون الأمر خطيراً . ودفعنا الثمن على عجل وذهبا . في الشارع اخبره برجير عما حصل له . اغتتم الفرصة عندما ادارت الفتاة ظهرها ليرمي على السرير قبضة من الشعر ، ثم اعلن لها انه عاجز وامرع بالنزول . كان لوسيان قد احتسى كأسين من الوسكي وقد داخ قليلا : فغنى نشيد المدفع والذي بروفوندس موريونيوس - ورأى أنه من الأمور الرائعة أن يكون برجير يجمع عمق التفكير الى الصبانية .

وما إن وصلا الى الفندق حتى قال برجير : « لم احجز سوى غرفة واحدة لكن فيها حماماً كبيراً » . ولم يندهش لوسيان إذ كان يتوقع بصورة مبهمة انه سيقسم مع برجير غرفة واحدة ، ولكن بدون ان يتوقف كثيراً عند هذه الفكرة . أما الآن ولم يعد بوسعه ان يتراجع فقد بدت له الفكرة مزعجة بعض الازعاج ، لا سيما وان قدميه لم تكونا نظيفتين . وتصور ، بينما كان الخدم يصعدون الحقائق ، بأن برجير سيقول له : « كم انت قذر ، ستوسخ الغطاء » . وسيجيبه لوسيان بوقاحة : « لديك أفكار بورجوازية عن النظافة » . لكن برجير دفعه الى غرفة الحمام مع حقيبتيه قائلا له :

— تدبر امرك في الداخل ، وأنا سأخلع ثيابي في الغرفة . وغسل لوسيان قدميه وبعض جسمه . وكان يشعر بحاجة الذهاب الى المراحيض لكنه لم يجرؤ على ذلك واكتفى بأن يبول في المفصلة ؛ ثم أرتدى قميص النوم ، وانتعل الخف الذي أعارته أمه إياه (فخفه هو ، كان مثقوباً) وضرب على الباب سائلاً :

— هل انت مستعد ؟

— نعم ، نعم أدخل .

كان برجير قد ارتدى روب النوم الأسود فوق بيجاما زرقاء فاتحة . وكانت رائحة العطر تفوح في الغرفة . وسأل لوسيان : « ألا يوجد سوى سرير واحد ؟ » ولم يجب برجير : بل كان ينظر الى لوسيان مشدوهاً وانتبهت دهشته بضحكة قوية وقال له : « انك بشباب الزينة . ماذا فعلت يقبحة النوم ؟ آه ! كلا انت مضحك جداً أريدك ان ترى نفسك » .

فقال لوسيان بانزعاج :

— ها قد مرت سنتان وأنا أطلب الى أمي ان تشتري لي بيجاما .

واقترب منه برجير وقال له بلهجة لا تحتمل جواباً :

— هيا ، اخلع هذا ، سأعطيك احدى بيجاماتي . ستكون واسعة بعض الشيء ، لكنها ستوافقك أكثر من هذا الثوب .

وظل لوسيان مسمراً في وسط الغرفة ، عيناه تنظران الى المربعات الحمراء والخضراء المرسومة على السجادة . كان يوده ان يعود الى الحمام لكنه خشي من ان يتمزق مغفلاً ، وبحركة عاجلة شمر قبضه الى ما فوق رأسه . ومرت هتية صمت . كان برجير يتطلع الى لوسيان مبتسماً ، وأدرك لوسيان انه عار وسط الغرفة يلتعل في رجله خفي أمه . ونظر الى يديه — يدي رامبو الكبيرتين — وأراد ان يضعهما فوق بطنه ليخفيهما على الأقل ، لكنه تلبه ووضع يديه خلف ظهره . على الجدران ، وبين صفين من المربعات ، كان يبدو من بعيد مربع بنفسجي اللون . وقال برجير : « اقم بأنه لأظهر من فتاة : لوسيان ، انظر الى نفسك في المرآة فقد احمر لونك حتى الصدر . غير أنك افضل على هذا الشكل ، مما كنت عليه بتلك الثياب » . فقال لوسيان يجهد : « نعم ولكن لا يمكن للإنسان ان يكون ظريفاً حين يكون عارياً . اعطني البيجاما بسرعة » . فرمى له برجير بيجاما من الحرير تفوح منها رائحة العطر ، وذهب الى السرير . ومر وقت من الصمت ثقیل فقال لوسيان : « صحي سيئة » . أريد أن أقيء » . ولم يجب برجير وتجنباً الوسكي . وقال في نفسه : « سينام » .

معني « ، وراحت مربعات السجادة تدور بيننا كانت رائحة العطر الحائقة عالقة في حلقه .

« لم يكن ينبغي ان اقوم بهذه الرحلة » . ليس له حظ . لعشرين مرة خلال هذه الايام الاخيرة ، أصبح على قارب قوسين أو اذن من معرفة الشيء الذي يريد به برجير ، ولكن في كل مرة ، كانت تمر حادثة فتحو له عن تفكيره . والآن ، انه هنا موجود ، في سرير الرجل ، ينتظر متعته اللذيذة « سأخذ وسادتي وأذهب الى الحمام لأنام فيه » . لكنه لم يتجرأ ، اذ فكر بنظرات برجير الساخرة . وراح يضحك وقال : « افكر بتلك البغي ، لا بد وأنها تفرك نفسها الآن » . ولم يحب برجير . فنظر اليه لوسيان بطرف عينية : كان مستلقياً على ظهره ، عليه سياء البراءة ، ويداه تحت عنقه . عندها اعترى لوسيان غيظ شديد ، فانتصب على احد مرفقيه وقال له : « حسن ، ماذا تنتظر ؟ هل اصطحبتني الى هذا المكان لأزدان بالجواهر ؟ » .

كان الوقت قد فات حتى يندم على عبارته : وانجبه برجير اليه ونظر اليه نظرة ملؤها السرور : « يا لك من آلة ذات وجه ملائكي . وأخيراً يا طفلي الصغير ، أنا لم أدفعك لتقول هذا : ستعتمد عليّ لكي يدب الحلل في حواسك الصغيرة » ونظر اليه لحظة أخرى ، وكاد وجهها ان يتلامسا ، ثم أخذ لوسيان بين ذراعيه وداعب صدره من تحت ستره البيجاما . لم يكن هذا كريهاً ، بل هو عذب إلى حد ما ، إلا ان برجير كان خفيفاً : ذبذبت عليه سياء البلاهة ، وراح يردد بقوة : « ألا تحب اني الخنزير الصغير . ألا تحب اني ! » وكأنه اسطوانة الفونوغراف تعلن عن مواعيد القطارات . اما يد برجير فكانت بالعكس حية رشيقة وكانها إنسان . كانت تلامس برفق طرف ثدي لوسيان ، وكانها دغدغة الماء الساخن عندما يدخل المرء الى الحمام . وودّ لوسيان لو انه يمك تلك اليد ، ويزيحها عنه ويأويها ، لكنّ برجير سيسخر منه ولا شك . وتزحلق اليد على طول بطنه وتوقف قليلاً لتفك عقدة الحزام الذي يشد

السروال . وترك اليد تتزحلق : كان ثقيلاً مائماً كالاسفنجة المبللة وهو في ذروة الفزع . وازاح برجير الغطاء ، ووضع رأسه على صدر لوسيان وكأنه يحسه . ونجشاً لوسيان مرتين وخشي ان يقيء على شعر برجير الفضي الجميل . وقال له : « انك تضغط على معدتي » . فارتفع برجير قليلاً ووضع إحدى يديه تحت كليتي لوسيان ، اما اليد الاخرى فلم تعد تدغدغه بل راحت تشد عليه . وقال برجير فجأة : « لك فخذان جميلان » وظن لوسيان انه يرى كابوساً : فسأل بغنج : « هل يعجبائك ؟ » لكن برجير تركه فجأة ورفع رأسه على عجل وقال بغضب : « يا لك من مغفل لعين » ها قد مضت ساعة ، وهو يريد أن يلعب دور رامبو ، ولم استطع حتى الآن ان اهيجه » وتصاصدت الى عيني لوسيان دموع الغيظ ودفع برجير عنه بكل قواه وقال بصوت دقيق : « انها ليست غلطتي ، فقد قدمت لي كثيراً من الشراب وأريد الآن أن أقيء . » فقال برجير : « حسناً اذهب . اذهب . واملأ وقتك » واضاف من بين أسنانه : « يا لها من امسية عذبة » . ورفع لوسيان سرواله ، وارتدى روب النوم الأسود وخرج . ولما أقفل باب المرحاض من جديد أحس بالوحشة والفراغ الذين يعانينها ، الى حد ان الدموع انهمرت من عينيه . لم يكن في جيب روب النوم منديل فمسح عينيه وأنفه بالورق الصحي . وأدخل اصبعيه مراراً في حلقومه ولكن عبثاً ، لم يستطع أن يقيء . عندها أنزل سرواله آلياً وجلس على المقعد وهو يرتجف . وفكر في نفسه : « يا له من قدر ! يا له من قدر ! » احس بأنه مهان الى حد بعيد ، لكنه لا يعرف إذا كان خجلاً من مداعبات برجير أو من عدم اضطرابه . كانت تأتيه من الممر قرعة ترتعد فرائضه عند سماعها ، لكنه لم يكن يوسعه أن يقرر دخول الغرفة . وفكر في نفسه : « ينبغي على كل حال أن اعود اليها والا فسيستخر مني - مع برلياك ! » وهم بالوقوف ، لكنه رأى فجأة برجير بوجه الحيواني وكان يسمعه يقول : « ألا تحجل ايها الخنزير الصغير ألا تحجل » . فعاد الى الجالوس يائساً كل اليأس ! وما هي إلا لحظة حتى اصيب باسهال قوي فارتاح

قليلا وفكر في نفسه : « ها ان الأمر ينتهي من تحت ، وأنا افضل هذا » .
 في الواقع ، انه لم يعد يرغب في التقيؤ . وفكر في نفسه فجأة : « سيؤذيني »
 وظن بانه سيغمى عليه . واخيراً شعر لوسيان بالبرد الشديد واخذت اسنانه
 تصطك ؛ وفكر بانه سيصاب بالمرض في الحال . ولما عاد ، نظر اليه برجير
 متضايقا ؛ كان يدخن سيكارة ، وبيجامته مفتوحة ، يبدو من تحتها صدره
 الضعيف . وخلع لوسيان بثوذة ، خفته وروب النوم ، وانزلق تحت اللحاف
 بدون أن ينبس بكلمة . فسأله برجير : « كيف انت ؟ » فهز لوسيان كتفيه :
 « أشعر بالبرد ! »

— هل تريد ان أدفئك ؟

فقال لوسيان :

— حاول دائماً .

في هذه اللحظة أحس بأنه ينسحق تحت عبء ثقیل . والتصق بفعه فم
 ساخن رخو ، وكأنه البفتاك النىء . لم يعد لوسيان يفقه شيئاً ، ولم يعد يدري
 اين هو وكاد ان يختنق ، لكنه سرلانه شعر بالدفء . وفكر بمدام بيس التي
 كانت تضع يدها على بطنه وهي تناديه « يا لعبتي الصغيرة » . وفكر ايضاً
 بهزار الذي كان يسميه « الهليوننة الكبيرة » . ويقول في نفسه : « أنا لعبته
 الصغيرة ! » في تلك اللحظة أرسل برجير صيحة الانتصار وقال : « وأخيراً
 ها انك تصمم » . وأضاف وهو يلث : « هيسا ، سنصنع منك شيئاً » .
 وسحرص لوسيان على ان يخلع بيجامته بنفسه .

في اليوم التالي ، استيقظا عند الظهر . وأتى الخادم بطعامها الى السرير ،
 ووجد لوسيان انه غريب الهيئة . وفكر في نفسه بارتعاشه تم عن الاشتمزاز :
 « انه يعتبني مغفلاً » ، أما برجير فكان في منتهى الدماثة ؛ ارتدى ثيابه قبل
 لوسيان وراح يدخن سيكارتة في محلة الفيور مارشييه بينما كان لوسيان يستحم

وفكر لوسيان وهو يفرك جسمه بعناية : « كل ما هنالك ، ان العملية مقلقة » . ما ان مضت لحظة الذعر ، وأحسن بأنها ليست أليمة بقدر ما توقع ، اجتاحه قلق قائم . كان يأمل دائماً ان ينتهي ذلك وان يستطيع ان ينام ، لكن برجير لم يتركه وشأنه قبل الرابعة صباحاً وقال في نفسه : « ينبغي ان أنهي مسألة التريفونوم تري منها يكن من أمر » . وحاول ان يحصر تفكيره بعمله . كان النهار طويلاً . سردله برجير قصة لوتريامون ، لكن لوسيان لم يصغ اليها بانتباه . اذ ان برجير بات يزعجه قليلاً . وفي المساء ، ناما في كودبيك ، وبالطبع أزعج برجير لوسيان لوقت لا بأس به ، ولكن نحو الساعة الواحدة ، قال له لوسيان بصراحة إنه يشعر بالنعاس ، فتركه برجير وشأنه بدون ان يغضب . وعاد الى باريس في نهاية بعد الظهر . ولم يكن لوسيان راضياً عن نفسه .

واستقبله أبوابه استقبالا حسناً . وسألت أمه : « هل شكرت السيد برجير على الأقل » . وتحدث معها قليلاً عن الريف النورماندي وآوى الى فراشه في ساعة مبكرة . ونام كالملاك ، لكنه في صبيحة اليوم التالي ، شعر عندما استيقظ بأنه يرتجف في داخله . فنهض ونظر الى نفسه ملياً في المرأة . وقال في نفسه : « أنا لواطى » . وخارت قواه . وصاحت أمه من خلف الباب : « انهض يا لوسيان عليك ان تذهب الى الكلية هذا الصباح » فأجابها لوسيان بليونة : « نعم يا أمي » . لكنه استلقى على سريره وراح ينظر الى اصابع قدميه . « ليس هذا صواباً » ، لم اكن أعني ذلك ؛ أنا ؛ ليست لدي أية تجربة » . تلك الاصابع ، قد مصها احد الرجال الواحدة تلو الاخرى . واشاح لوسيان بوجهه بعنف : « كان هو يعرف ذلك إن الفعل الذي جعلني أقدم عليه يحمل اسماً ، انه يسمى مضاجعة رجل لرجل ، وهو يعرف ذلك » . انه امر مضحك - وابتسم لوسيان بمرارة - يوسع الجميع ان يتساءلوا أياماً طويلاً : هل انا ذكي ، هل أنا ساذج ، وليس بالامكان التوصل الى نتيجة . الى جانب هذا ، هناك أمور تتعلق بك يوماً من الأيام ، وبنبغي تحملها طيلة الحياة . كان لوسيان ، على سبيل المثال ، طويلاً اشقر ، يشبه أباه ،

وهو ابن وحيد ، وهو لواطى ابتداء من يوم أمس سيقال عنه : « فلوريه . أنت تعرف حق المعرفة ، هذا الطويل الأشقر الذي يحب الرجال ! » وسيجيب الناس : « آه ! نعم . الرجل الطويل ؟ حسناً ، أعرف من هو . »

وارتدى ثيابه وخرج ، لكنه لم ينو الذهاب الى الكلية . ونزل الى جادة لامبال حتى وصل الى السين . وسار بمحاذاة الأرصفة . كانت السماء صافية ، والشوارع تقوح برائحة الورق الأخضر والقطران والتبغ الأنكليزي . وقت يحلم المرء به ليرتدي أحلى ثيابه على جسده التنظيف وبروح جديدة . كانت الجميع يتمتعون بمعنوياتهم ؛ أما لوسيان فطفل وحده محتاراً وغريباً في هذا الربيع . وفكر في نفسه : « انه الأحمق الحتمي : بدأت بعقدة أوديب ، ثم أصبحت سادياً شرجياً ، والآن جمعت كل شيء اذ أصبحت لواطياً . فأين ينبغي ان اقف ؟ » لا شك ان حالته لم تكن شديدة الخطورة . فلم يستمتع كثيراً بمداعبات برجير . ولكنه فكر بقلق : « ولكن اذا اعتدت على ذلك ؟ لا يعود بإمكانى الاستغناء عنه ، اذ يصبح كالمرفين ! » سيصبح رجلاً ذا عاهة ، ما من أحد يقبل ان يستقبله ، وسيستخسر منه عمال أبيه عندما يصدر اليهم أمره . وتصور لوسيان مصيره الرهيب . ورأى نفسه في الخامسة والثلاثين رقيقاً متبرجاً ، ورجلاً له شاربان يحمل وسام جوقة الشرف ، يرفع عصاه بهيئة تبعث على الرهبة . « ان وجودك هنا ايها السيد إهانة لبناتي » وفجأة تأرجح ذات اليمين وذات اليسار فقد تذكر عبارة من عبارات برجير كان ذلك في كوديك اثناء الليل . قال له برجير : « حسناً قل لي . هل أصبحت تستسيغ ذلك ! » ما كان يعنيه ! بالطبع ، لم يكن لوسيان من خشب . وقال في نفسه قلقاً : « هذا لا يدل على شيء . » لكن هناك من يعتقد بأن هؤلاء الأشخاص كانوا مدعشين في التعرف على اشباههم ، كانت لديهم حاسة سادسة . نظر لوسيان مطولاً الى رقيب المدينة الذي كان ينظم السير أمام جسر الايانا . « هل بإمكان هذا الشرطي ان يهيجني ؟ » وثبت نظره على سراول الشرطي الأزرق ، وتصور فخذييه الزاخرين بالعضلات ، المكسوين

بالشعر : « هل يصنع لي شيئاً ؟ » وذهب بعد ان وجد لنفسه تعزية . وفكر في نفسه : « ليس الأمر خطيراً جداً ، إذ أن بإمكانني ان انفذ نفسي . لقد افترط في استغلال تشوشي لكنني لست لواطياً حقيقياً » وعاد ، التجربة مع جميع الرجال الذين صادفهم ، وفي كل مرة كانت النتيجة سلبية . وفكر في نفسه : « أف ، انني أشعر بشدة الحر . » ان هذا تحذير ، ذلك كل شيء . ليس عليه ان يعيد الكرة ، لأن العادة السيئة يمكن تلقنها بسرعة ثم ان عليه ان يشفى من عقده بسرعة ، وقرر ان يذهب ليجري لنفسه تحليلاً عند محلل نفسي بدون ان يعلم أبويه بذلك . وبعدها ، يتخذ لنفسه عشيقه ويصبح رجلاً كسائر الرجال .

وبدأ لوسيان يطمئن حين يفكر ببرجير : في نفس اللحظة ، كان برجير في باريس شديد الرضى عن نفسه يعيش مع ذكرياته الجميلة : « انه يعرف كيف تكويني ، ويعرف هوي ، لقد قال لي : « لك رائحة لن أنساها قط » . سيذهب الى اصدقائه ليفتخر أمامهم ويقول : « لقد نلتها » . في هذه اللحظة يمكن ان يكون منهمكاً بسرد اخبار ليلاليه الى ... - وتوقف قلب لوسيان عن الخفقان - الى برلياك ! لو فعل هذا ، لقتلته . ان برلياك بكرهني ، وسيخبر بذلك جميع من في الصف ، فأصبح رفيقاً مارقاً ، ويرفض رفاقي أن يمدوا ايديهم لمصافحتي . وقال لوسيان في نفسه ايضاً : « سأقول إن ذلك غير صحيح ، وسأقيم دعوى ، وأقول انه اغتصبني ! » ، كان لوسيان يكره برجير بكل ما أوتي من قوة : فبدونه ، بدون هذا الضمير الفاضح الذي ليس له دواء ، كان بالامكان تسوية كل شيء ، إذ لا أحد يدري بذلك ثم إن لوسيان نفسه سينسى الأمر . « لو كان بالإمكان أن يموت بسرعة ! يا رب » ، أتوسل اليك ، اجعله يموت هذه الليلة قبل أن يخبر أحداً بذلك . رب ، اجعل هذه القصة منسية ، فأنت لا تقبل بأن أكون لواطياً ! » وفكر لوسيان بغیظ : « انه يمكنني على كل حال . سينبغي أن أعود الى بيتي وافعل كل ما يريدني مني وأن أقول له بأنني احب تلك العادة ، وإلا لفقدت نفسي ! » ومشى

خطوات اخرى وأضاف كأنه يقدم على تدبير احترازي : « ربّ ، واجعل برلياك يموت أيضاً » .

لم يعد يوسع لوسيان ان يعود الى بيت برجير . وفي الأسابيع التي تلت ، كان يظن بأنه يلاقيه عند كل خطوة ، وعندما يعمل في غرفته ، ترتعد فرائصه لدى سماعه الجرس . في الليل رأى كوابيس رهيبية : برجير يأخذه بالقوة في باحة كلية سان لويس ، أمام أنظار جميع الرفاق الذين ينظرون ساخرين . لكن برجير لم يقم بأيّة حركة لمقابلته ولم تصدر عنه أية إشارة تدل على أنه حيّ . وفكر لوسيان مزعوجاً : « ما كان ينبغي سوى جلدي » . واختفى برلياك برفقته أيضاً . وغيفار ، الذي كان يذهب أحياناً الى ميدان السباق يوم الأحد ، أكد بأنه غادر باريس على اثر انهيار عصي . وهدأت اعصاب لوسيان شيئاً فشيئاً : إن رحلته الى روان أحدثت في نفسه أثر حلم غامض فظ لا يرتبط بشيء . لقد نسي جميع تفاصيله ، ولم يعد يتذكر سوى رائحة اللحم البشري الكثيبة ، ورائحة العطر وكذلك القلق الذي لا يرحم . وسأل السيد فلورييه مراراً عما حدث للصديق برجير : « ينبغي أن ندعوه الى فيرول للتشكره » . فأجاب لوسيان :

— لقد ذهب الى نيويورك .

وذهب لوسيان مرّات عديدة وتفرغ على شاطئ المارن على قيادة القوارب برفقة غيفار وشقيقته ، وعلمه غيفار الرقص . وفكر في نفسه : « ها انني أستيقظ ، وأحيا من جديد » . لكنه لا يزال يحس في بعض الاحيان بعبء يرحس على كاهله : تلك هي عقده النفسية ؛ وتساءل اذا كان يجب أن يذهب لمقابلة فرويد في فينا : « سأذهب بدون نقود ، مشياً على الأقدام اذا اقتضى الأمر ، سأقول له : أنا مفلس لكنني امثل قضية معينة » . وفي اصل يوم حار من أيار حزينان التقى في جادة سان — ميشال إلبدون ، استاذ السابقي في الفلسفة . فسأله البدوان : « ماذا يا فلورييه ، هل تعد المدرسة المركزية ؟ »

فقال لوسيان : « نعم يا استاذ » . فقال إلبدون : « كان بإمكانك أن تتجه نحو الدراسات الأدبية . فقد كنت من الطلبة الماهرين في مادة الفلسفة » . فقال لوسيان : « لم اتخلّ عن الفلسفة . وقد طالعت كثيراً هذه السنة . طالعت فرويد مثلاً » . وأضاف وكان وحيماً قد أتاه : « كان بروي أن أسألك يا استاذ : ما رأيك بالتحليل النفسي » ؟ فأجابه إلبدون ضاحكاً : « انها تقليعة وغرّ » . وإن ما تجده حسناً عند فرويد ، تجده ايضاً عند افلاطون » . وأضاف بلهجة لا تحتمل المناقشة : « على اني لا أحسم في مثل هذه الأمور ، ولكن عليك ان تقرأ سبينوزا » . واحسن لوسيان بأنه يرتاح من عبء ثقيل ، وعاد الى بيته وهو يصفر وفكر في نفسه :

« كان كابوساً ، ولم يبق منه شيء ! » كانت الشمس محرقة في ذلك النهار ، لكن بوسع لوسيان أن يواجه هذا النهار ، انه تخلص ! وفكر في نفسه : « انه هراء . انه هراء . لقد حاولوا ان يجعلوني مجنوناً لكنهم لم يفلحوا » . في الواقع انه لا زال يقاوم : صحيح ان برجير قد اثر عليه في تحليلاته ، لكن لوسيان يحس مثلاً بان لواطه رامبو هي عيب متأصل فيه ، وتذكر حين أراد هذا البرجير أن يدخن له الحشيش فقاومه . وفكر : « كدت أن أفقد نفسي ، لكن الذي انتقذني انما هي صحي المعنوية » . وفي المساء ، نظر الى أبيه والعائلة جالسة الى مائدة الطعام ، نظرة ملؤها الحنو . كان السيد فلورييه مربع الكتفين ، ثقيل الحركات ، أغبر العينين ، نحاسي النظرات كالرؤساء . وفكر لوسيان : « انني اشبهه » . وتذكر بان أفراد عائلته فلورييه ، أباً عن جد ، كانوا من أرباب الأعمال في الصناعة ، منذ أربعة أجيال . ومهما قيل ، فإن العائلة موجودة ! ثم فكر باعتزاز بصحة آل فلورييه المعنوية .

لم يتقدم لوسيان هذه السنة لامتحان المدرسة المركزية ، وذهبت عائلة فلورييه الى فيرول في وقت مبكر جداً . وسر لوسيان برؤية بيته من جديد

وكذلك البستان والمصنع ، والمدينة الهادئة المتزنة . انه عالم آخر : وقرر ان ينهض في الصباح الباكر ليقوم بزهات كثيرة في المنطقة . وقال لأبيه : « أريد ان املأ رثتي بالهواء النقي استعداداً للعام القادم » . ورافق أمه في زيارتها لعائلي بوفاردييه وبيس ، ووجد الجميع انه اصبح شاباً متزناً . كانت هيرار وونكلمن اللذان يدرسان الحقوق في باريس قد عادا الى فيرول لقضاء العطلة وخرج لوسيان مرات عديدة برفقتهم ، وتحدثوا عن الالاعيب التي قاموا بها مع الكاهن جاكار ، وعن أغنياتهم فوق الدراجة وأنشدوا نشيد مدفع ماز ، بأصواتهم الثلاثة . كان لوسيان يقدر صراحة أصحابه القدامى وصلابتهم وأنحى باللائحة على نفسه لأنه تخلى عنهم . واعترف لهيرار بأنه لا يحب باريس ولم يكن بوسع هيرار ان يفهمه : سلمه أبواه الى أحد الكهنة ؟ وهو لا يزال مبهوراً بمتحف اللوفر وبالألمسية التي قضاهما في الأوبرا . ورق لوسيان لهذه البساطة . وشعر بأنه شقيق هيرار وونكلمن الأكبر ، وبأن يشعر بأنه لا بأسف على تلك الحياة المعذبة التي قضاهما : فقد اكتسبته تجربة . وحدثها عن فرويد وعن التحليل النفسي ، وتسلى قليلاً بأغوائها . لقد انتقدا بعنف نظرية العقد النفسية لكن آراءهما كانت ساذجة كما بين لهما لوسيان ، وأضاف بأنه من الناحية الفلسفية ، بالإمكان دحض نظريات فرويد . وكافا شديدي الإعجاب به ، فیتظاهر لوسيان بأنه لا يلتبه لذلك .

وشرح السيد فلورييه للوسيان كيفية العمل في المصنع . كما اصططحبه لزيارة الأبنية المركزية ، وراقب لوسيان مطولاً شغل العمال . وقال السيد فلورييه : « إذامت ينبغي ان تتمكن بين يوم وآخر من السيطرة على زمام المصنع . وزجره لوسيان قائلاً : « ألا تريد يا أبتاه ، أن تكف عن هذا الحديث ؟ لكنه فكر في الأيام التالية بالمسؤولية الكبرى التي ستلقى على عاتقه إن عاجلاً أم آجلاً . وتبادلا الآراء حول واجبات رب العمل ، وشرح له السيد فلورييه بأن الملكية ليست حقاً بل واجباً . وأضاف : « يريدون ان يزعمونا بصراع الطبقات ، كما لو ان مصلحة أرباب العمل ومصلحة العمال متناقضة ! خذ مثلاً

عني يا لوسيان . أنا رب عمل صغير ، وهذا ما يسمونه بالأرغولان بلغة باريس العامية . حسناً ، انني ، احبي مئة عامل مع عائلاتهم . فاذا قمت بأشغال كبيرة ، فهم أول من يستفيد منها . لكنني اذا ارغمت على أقفال المصنع ، فانهم يتشردون في الشارع . وقال مشدداً على كلامه : « وليس لي الحق » ان أقوم بأشغال سيئة . وهذا ما أسمىه انا تضامن الطبقات » .

وجرى كل شيء على ما يرام طيلة ثلاثة أسابيع . ولم يعد يفكر أبداً ببرجيز . لقد غفر له ، لكنه تأمل على الأقل الا يعود الى رؤيته مدى الحياة . وأحياناً حين يبدل قيصه ، كان يقف أمام المرأة وينظر الى نفسه بدمشة ، ويفكر : « رجل اشتى جسده » . ويمر بيديه على ساقيه مفكراً : « رجل اضطرب من أثر ساقيه » . ويمد يده الى مكان كليته ويأسف على أنه ليس رجلاً آخر ليداعب جسده كما يداعب قطعة الحرير . وكان يأسف أحياناً على عقده : فهي صلبة ، شديدة ، تزرع بعبثها الثقيل على كاهله . والآن ، انتهى كل شيء فلم يعد لوسيان يؤمن بها ، وأحس بشدة خفته . لم يكن ذلك من الأشياء التي لا تحدث ، بل هو نوع من النفوذ المحتمل ، والمؤلم الى حد ما ، يمكن ان يتحول الى قلق . وفكر في نفسه : « أنا لست اي شيء » ، وذاك لأنني لم أتلطخ بشيء . أما بريلاك فهو ملتزم كل الالتزام . وبماكافي ان أتحمّل القليل من عدم اليقين : فهو فدية الطهارة » .

وفكر في احدى رحلاته بعد ان جلس على العشب : « لقد نمت ست سنوات ، ثم استيقظت ذات يوم » . كان مفعماً بالحياة وهو يتطلع الى المناظر الحيطية . وقال في نفسه : « لقد خلقت من اجل العمل » . لكن أفكاره اصبحت باهتة . وقال بصوت خافت : « فلينتظروا قليلاً حتى يروا ما أساوي » . وتكلم بقوة لكن الكلمات تدرجت من فمه كالأصداف الفارغة : « ما بي » . ذلك القلق الغريب الذي لم يرض بالاعتراف به ، سبب له أذى كبيراً . لقد فكر في الماضي : « انه هذا السكون ... هذه البلاد ... »

ما من كائن حي سوى القبابيط تجرّ بطونها وسط الغبار بصعوبة ، كان يكره القبابيط لأنها تبدو أقرب الى الموت . وفي الجهة الثانية رأى الشجرة الباسقة ذارية على حافة النهر . ما من أحد يرى لوسيان ، ما من أحد يسمعه . وقفز في الفضاء وتهاى له بأن حركاته لا تصادف اية مقاومة ، حتى مقاومة الجاذبية ، وهو واقف وراء ستار من الغمام الأغبر . لكأنه موجود في الفراغ . وفكر في نفسه : « هذا السكون ... » كان شيئاً يفوق السكون ، انه العدم . وحول لوسيان بدا السهل ساكناً رخواً عديم الحياة بشكل عجيب : وبدا له أن السهل يتقلص كثيراً قاطعاً تنفسه كيلا يزعجه « متى يعود صاحب المدفع في ميّز الى كتبتيه ... » وانطفأ الصوت على شفّتيه كليب في فراغ : كان لوسيان وحده ، بلا ظل ، ولا صدى ، وسط هذه الطبيعة المتخفية ، التي لا وزن لها . وارتعش قليلاً وحاول أن يعيد وصل حبلى أفكاره : « لقد خلقت من أجل العمل . قد اضل في البدء : إذ بإمكانني ان ارتكب الحماقات ، لكن هذا لن يبلغ مدى بعيداً لأنني سأعود الى رشدي . » وفكر : « لدي حجة معنوية . لكنه توقف بعد ان كسر عن اسنانه مشمراً ، كم بدت له غريبة فكرة الكلام عن « الصحة المعنوية » ، على تلك الطريق البيضاء التي تسير عليها حشرات في نزاعها الأخير . ولشدة غيظه داس لوسيان على قبوط ، وشعر تحت حمائه بكرة صغيرة من المطاط ، ولما رفع رجليه كان القبوط لا يزال على قيد الحياة ، فبصق لوسيان عليه . « أنا محتر ، أنا محتر ، كما في العام الماضي » . وراح يفكر بونكلن الذي كان يلقبه « ببطل الابطال » ، وبالسيد فلورييه الذي يعامله كرجل ، وبالسيدة بيس التي قالت له : « هذا الصبي الذي كنت أناديه بلعقي الصغيرة » ، لم أعد أجروء على غطابته بصيغة المفرد ، انه يرهبنى . لكنهم كانوا شديدي البعد ، وبدا له ان لوسيان الحقيقي قد فقد ، وليس سوى يرقة بيضاء مختارة « ما أنا؟ » كيلو مترات وكيو مترات تمتد على مداها الأراضي البور ، بلا عشب ولا رائحة ، الا الهليون التي ، لشدة غرابتها ، ليس لها اي ظل . « من أكون؟ »

لم يتغير السؤال منذ العطلة السابقة ، وكأنه ينتظر لوسيان حيث تركه ليرد عليه ؛ او بالأحرى ليس سؤالاً ، بل هو حالة من الحالات . وهز لوسيان كتفيه وفكر : « انني شديد الاشتباه ، وأحلل نفسي كثيراً » .

في الأيام التالية ، حاول أن يتغاضى عن تحليل نفسه : شاء ان يجعل الأشياء تسرحه ، ونظر مطولاً الى الأشجار والواجهات ، وامتدح أمه كثيراً وهو يرجوها ان تريحه الطقم الفضي . لكنه بينما كان ينظر الى الطقم الفضي ، فكر بأن وراء نظرتة غمامة صغيرة تتراقص . وعبثاً حاول لوسيان أن يركز انتباهه على حديثه مع أبيه ، لكن الغمامة تسلت الى ما وراء الانتباه الذي كان يبديه لكلمات أبيه : تلك الغمامة ، انها هو بذاته . كان لوسيان من وقت لآخر يتغاضى عن الأصغاء ، ويستدير الى الوراء ، يحاول ان يمسك بالغمامة وينظر اليها مواجهة : ولم يصادف سوى الفراغ ، والغمامة لا تزال وراءه .

وجاءت جرمين باكينة أمام السيد فلورييه ، تقول ان أخاها أصيب بالتهاب رئوي . فقالت السيدة فلورييه :

— مسكينة يا جرمين ، هذا الذي قلت عنه إنه متين العود !
منحتها عطلة شهر ، واستقدمت ابنة احد عمال المصنع لتحل محلها ، وهي برت موزيل الصغيرة ، وعمرها سبع عشرة سنة . إنها فتاة قصيرة ذات جدائل شقراء تلفها حول رأسها ، وهي تعرج بعض الشيء . ولما كانت قادمة من كونكارنو ، رجتها السيدة فلورييه على ارتداء منزر موشى بالدنتيل ، « فهذا أكثر لياقة » . ومنذ اليوم الأول ، أخذت عيناها الزرقاوان الواسعتان ، تشعان بالحبة العنيفة عند رؤية لوسيان . انها تعبه . وتحدث اليها بلطف وسألها مرات عديدة : « هل أنت مسرورة في بيتنا ؟ » . في المرات كلت يلامسها ليرى أثر الملامسة فيها . لكنها كانت تحنو اليه ، فوجد في تلك المحبة تعزية خالصة . كان يفكر اكثر الاحبيان بنوع من التأثير بالصورة التي كونتها برت عنه : « في الواقع انني لا أشبه قط أولئك العمال الذين تعاشرهم

برت . وادخل ونكلمان الى المكتب، فوجدها جذابة ، وقال له : « انك محظوظ ، لو كنت في مكانك لأقدمت » لكن لوسيان كان يتردد : إذ ان رائحة العرق تفوح منها ، كما ان قيصها الأسود اصبح رثاً تحت ذراعيها . في أصيل يوم مطر من شهر أيلول ، قصدت السيدة فلورييه باريس بالسيارة ، وبقي لوسيان وحده في الغرفة . استلقى على سريره وراح يثأب . وبداله أنه غمامة كيفية الطباع ، تبقى على حالها وتتغير في نفس الوقت ، كما تذوب دائماً في الأهواء والشواطيء . « اسأل نفسي لماذا أنا موجود ؟ » انه هنا ، يهضم طعامه ، ويثأب ، ويسمع المطر يضرب الزجاج ، والغمامة البيضاء تتهدى في رأسه : وبعدها ؟ ان حياته فضيحة ولا تكاد المسؤوليات التي ستحملها فيما بعد تكفي لتبريرها . وقال في نفسه : « على اني ، لم أطالب أحداً بخلقي » . واعتراه نوع من الشفقة على نفسه . وتذكر قلقه حين كانت طفلاً ، ورؤيته الطويلة ؛ فبدت له على صورة جديدة : في الواقع انه ما يرحل ينزعج من حياته ، من تلك الهدية الضخمة غير المجدبة ، التي حملها بين ذراعيه دون ان يعرف ابن يضعها . « لقد امضيت وقتي في الأسف على ولادتي » . لكنه كان شديد الاعياء وليس بإمكانه ان يذهب الى أبعد من ذلك . ونهض ، ثم أشعل سيكارة ونزل الى المطبخ ليطلب الى برت ان تحضر له قليلاً من الشاي .

ولم تره برت وهو يدخل . فلمس كتفها فارتعشت بعنف وسألها : « هل اخفكتك ؟ » ونظرت اليه بوجه ملؤه الرهبة وهي تلقي بكلتا يديها على الطاولة؛ وارتفع صدرها قليلاً . وما هي الا انمية حتى ابتسمت ثم قالت : « فوجئت بوجودك ، اذ لم أكن ادري ان هناك احداً » . فبادهها لوسيان الابتسامة بتسامح وقال لها : « أرجو ان تعدني لي فنجاناً من الشاي » . فاجابت الصغرة وهي تسرع نحو الموقد : « سأعده في الحال يا سيد لوسيان » . بدا لها ان وجود لوسيان شديد الوطأة عليها . مكث لوسيان في عتبة الباب متردداً وسألها بلهجة أبوية : « هل انت مسرورة في بيتنا ؟ » كانت برت تدير له ظهرها ،

تملاً الطنجرة من الحنفية . فخم خرير الماء على اجابتها . وانتظر لوسيان لحظة ، وما ان وضعت الطنجرة على النار حتى تابع كلامه : « هل دخنت في السابق ؟ » فأجابت الفتاة بحذر : « مرات كثيرة » . وفتح علبته ماركة كريفن ، وناولها اياها . لم يكن شديد السرور اذ بدا له انه في مجال التآمر ، فلا ينبغي أن يقدم لها سيكارة . فقالت مدهوشة :

— هل تريد ان ادخن ؟

— ولم لا ؟

— ستعنفني السيدة .

واعترى لوسيان شعور التآمر المقيت . فراح يضحك وقال : « لن نخبرها بذلك » . فاحمر وجه برت ، وتناولت سيكارة بطرف اصابعها ووضعتها في غمها . « هل ينبغي أن اشعلها ؟ هذا خطأ » . فقال لها : « ألا تشعلينها ؟ » كانت ترجعه ؛ اذ بقيت في مكانها ، جامدة الذراعين ، محمرة الوجه طائفة ، تزم شفتيها حول السيكاة ، وكأنها تضع في فمها ميزان الحرارة . واخيراً تناولت عود ثقاب من علبة حديدية بيضاء ، وحسكت العود ، وأخذت عدة أنفاس وهي تغمز بعينيها وقال : « هذا لذيذ » . ثم اخرجت السيكاة من غمها ، وضغطت عليها بأصابعها الخمس . وفكر لوسيان « هل ولدت ضحية ؟ » ثم شعرت بالأنس ، حين سأها اذا كانت تحب موطنها بريتونيا ، فشرحت له عن الأصناف الموجودة فيها ، حتى انها انشدت بصوت عذب خاطيء الايقاع ، أغنية لروز بوردرن . ومازحها لوسيان بلطف ، لكنها لم تفهم المازحة وراحت تنظر اليه بوجه ملؤه الخوف ، كانت في تلك اللحظات تشبه الأرنب الأليف . وجلس على طاولة واحد بأنة مرتاح جداً وقال لها : « استريحى اذاً » . « أوه كلا يا سيد لوسيان . ليس أمام السيد لوسيان » . فامسكها من تحت ابطيها وشدها نحو ركبتيه وسألها : « وهكذا ؟ » وسمحت له بذلك بوجه ملؤه الانشراح واللوم ، وتمتت بلهجة غريبة : « على ركبتيك ا » . ففكر

لوسيان بقلق : « انني رحت بعيداً ، لم يكن ينبغي ان ابعد الى هذا الحد » .
وسكت : بينما ظلت هي جالسة على ركبتيه ، شديدة الدفء ، ملؤها الهدوء ؛
لكن لوسيان احس بقلبه يخفق وفكر : « انها شيء لي ، بامكاني ان أفعل
بها ما اريد » . وتركها ، ثم اخذ إبريق الشاي وصعد الى غرفته : ولم تقم
برت بأية حركة لامساكه . وقبل ان يحتسي الشاي ، غسل لوسيان يديه
بصابون أمه المعطر ، اذ ان رائحة الإبط كانت تقوح منها .

« هل سأضاجعها ؟ » شغلت هذه المسألة الصغيرة بال لوسيان في الأيام التي
تلت . كانت برت تقف طيلة الوقت في طريقه وتنظر اليه بعينين كئيبتين .
وانتصرت الأخلاق ، أدرك لوسيان بأنه قد يجعلها حاملاً لأنه ليس ذا خبرة
كافية . (ومن المستحيل ان يشغري « الكبايت الواقعة » من فيرول ، لأنه
معروف فيها) وأنه سيسبب متاعب للسيدة فلورييه . وفكر في نفسه بان
مهايته في المصنع ستقل كثيراً اذا أخذت ابنة احد العمال تفاخر بأنها ضاحمته .
« ليس لي الحق ان ألامسها » . لقد تجنب الانفراد ببرت طيلة الأيام الأخيرة
من شهر ايلول . وقال له ونكلن : « واخيراً ماذا تنتظر ؟ » فأجاب
لوسيان إجابة جافة : « لن أقدم على هذه الخطوة فأنا لا أرغب في غرام الخادومات
ولما سمعه ونكلن يتحدث عن غرام الخادومات ، صفر صفرة خفيفة
وسكت .

كان لوسيان شديد الرضى عن نفسه : لقد تصرف كإنسان عصري ، وهذا
ما يعوض له عن الكثير من الأخطاء . ثم يقول لبعض الأسف : « كانت
جديرة بالحياة » . لكنه يعود ويفكر : « لكأنني نلتها : إذ هي قدمت
نفسها ولم أرض » . واعتبر انه ليس بعد طاهراً . تلك المسرات الخفيفة
شغلته عدة ايام ثم تحولت بدورها الى غمام . وفي بداية تشرين الأول ،
أحس بنفس الضيق الذي كان فيه في العام الدراسي المنصرم .

لم يكن برلياك قد عاد ، ولا أحد يعرف شيئاً عن أخباره . ولاحظ

لوسيان وجود بعض الوجوه التي لا يعرفها : إن جاره الذي كاث يجلس الى يمينه واسمه لي موردا درس سنة في فرع الرياضيات في بواتيه . وهو لا يزال أطول من لوسيان ، فقد أصبح رجلاً كبير بشاربيه الأسودين . لقد قابل لوسيان رفاقه بغير سرور ، لأنهم بدوا بعينه تأفهن كثيري الضجيج : إنهم رهبان . وهو لا يزال يشترك بتظاهراتهم الجماعية ولكن بغير حماس . واجتذبه لي مورداً لأنه أكثر نضوجاً من الآخرين ، لكنه لم يبد عليه أنه أفاد قدر إفادة لوسيان من تجاربه الكثيرة الصعبة : إنه بالغ بالولادة . وغالباً ما كان لوسيان يتمتع بمنظر هذا الرأس الضخم المفكر ، الذي لا عتق له ، وإنسا غرس بين الكتفين اعتباطاً : وليس بالإمكان ادخال اي شيء فيه لا عن طريق الأذنين ولا عن طريق العينين الصينيتين المحمرتين . وفكر لوسيان باحترام : « انه شخص له آراؤه الراسخة » . كما كان يتساءل ، وليس بغير حسد ، ما يمكن ان يكون ذاك اليقين الذي يجعل لي مورداً ، يعني نفسه الى هذا الحد . « وهذا ما ينبغي ان أكونه : صخرة » . ودهش كثيراً اذ كيف للي مورداً أن يفقه المنطق الرياضي ؛ وطمأنه الأستاذ هوسون بعد ان رد لهم الفروض الاولى : حل لوسيان سابعاً ، أما لي مورداً فنال العلامة خمسة وحل في الدرجة الثامنة والسبعين . كل شيء كان يسير بانتظام . ولم يتعجب لي مورداً إذ يبدو أنه توقع نتيجة أسوأ ، ولم يكن خداه الاصفران الناعم ، وفعه الصغير ، لتعبّر عن المشاعر . إنه كتمثال بوذا . لم يره أحد وهو غاضب سوى مرة واحدة ، في اليوم الذي دفعه لوفي الى غرفة الثياب . أرسل في البداية بعض المهمات الحادة وهو يرفرف بمجابهة . ثم قال في النهاية « الى بولونيا ! الى بولونيا ! يا يوبان القذر ، ولا تلطخنا بقذارتك هنا » . وخيم على لوفي بقامته الضخمة ومالبت ان صفعه صفتين ، فاعتذر لوفي القصير ، ووقف الأمر عند هذا الحد

يوم الخميس خرج لوسيان بصحبة غيغار وقد دعاه الى الرقص عند صديقات شقيقته . لكن غيغار اعترف في النهاية بأن هذه البلاهات تقلقه .

وأسرّ للوسيان : « لي صديقة موظفة عند بليسنه ، في شارع رويال . ولها صديقة ليس عندها صاحب : فعليك ان تأتي معنا مساء السبت » . وتنازع لوسيان مع أهله حتى سمحوا له بالخروج أيام السبت ؛ على ان يتركوا له المفتاح تحت الممسحة . ولحق بغيفار في الساعة التاسعة الى إحدى الحانات في شارع سانت - هونوري . وقال غيفار : « سترى ، ان فاني جذابة ومن ميزاتنا أنها تحسن الاعتناء بهندامها » .

- وصديقتي أنا ؟

- أنا لا أعرفها ، لكنني اعرف انها عاملة خياطة قدمت الى باريس مؤخراً من انغوليم .

وأضاف : « لا تخطيء : أنا بيار دورا . وانت بما انك اشقر ، فقد قلت بأن دمك انكليزي ، فهذا أفضل . واسمك لوسيان بونيار .

فسأل لوسيان مدهوشاً :

- ولكن لماذا ؟

فأجاب غيفار :

- يا صاح - انه مبدأ ، بإمكانك ان تفعل أي شيء مع هؤلاء النسوة ، ولكن ليس بإمكانك أن تعطيهن اسمك الحقيقي .

فقال لوسيان :

- حسناً ، حسناً . وماذا عن مهنتي في الحياة ؟

- بإمكانك ان تقول إنك طالب ، فهذا أفضل ، فعشرة الطلاب تروق لمن ؛ ثم إنك تضطر لدفع ثمن ماض . أما بالنسبة للتكاليف فسنتقسمها بالطبع . ولكن دعني ادفع هذا المساء لانني آلفت ذلك : وساعين لك يوم الاثنين المبلغ الذي ينبغي أن تدفعه لي . وفكر لوسيان في الحال بأن غيفار يريد ان يجني

مكسباً من وراء ذلك . وفكر أيضاً في نفسه : « كم أصبحت حذراً ! » في تلك اللحظة بالذات دخلت فاني : كانت فتاة طويلة سمراء اللون نحيلة الجسم ، ذات فخذين مديدين ووجه شديد التبرج . فوجدها لوسيان مهيبة . وقال غيفار : « انه السيد بانيار الذي حدثتك عنه » . فقالت فاني بغير اهتمام : « تشرفنا . وهذه هود ، صديقتي » . وأبصر لوسيان امرأة قصيرة القامة ، لم تتبرج ، كما بدا لونها أغبر الى جانب فاني الرائعة . اصيب لوسيان بنحية أمل مريرة ، لكنه وجدها جميلة الثغر — ثم انه لن يشعر معها بانزعاج . واتفق غيفار معها على الأجرة وسط الضجة التي سادت عند دخولهما واصطحب الفتاتين نحو الباب ، قبل ان يفسح لهما المجال كي تتناولوا شرباً ما . لم يكن السيد فلورييه يعطي لوسيان أكثر من مئة وخمسة وعشرين فرنكاً في الاسبوع من ضمنها اجرة المواصلات . كانت الأمسية جميلة ؛ فقد ذهبوا ليرقصوا في الحلي اللاتيني ، في قاعة ساخنة ووردية ذات زوايا مظلمة ، حيث سمر كأس الكوكتيل بمئة فلس . كان فيها الكثير من الطلبة مع نسوة من طراز فاني ولكن دونها رونقاً . وكانت فاني رائعة : نظرت الى رجل سمين أرسل لحيته ووضع في فمه غليوناً وصاحت بأعلى صوتها . انني أكره الرجال الذين يضعون الغليون في حلبة الرقص » . فاحمر وجه الرجل ووضع غليونه وهو يشتمل ، في جيبه . كما انها عاملت غيفار ورفيقه باحتقار مرددة على مسامعها : « اننا صبيان قذران » . واحس لوسيان بأنه مرتاح جداً ، وقد سرد لفاني كثيراً من الدعايات المسلية وهو يبتسم عندما يقولها . واخيراً ، لم تعد الابتسامة تفارق وجهه وعرف كيف يتدبر امره بنوع من اللياقة . لكن فاني لا تكلمه كثيراً : بل امسكت ذقن غيفار بيدها وضغطت عليها لتبرز فمه الى الخارج . وما تدفق شفتاه وتنتفخان حتى تروح تلمسها برفق قائلة : « يا طفلي » . وأحس لوسيان بانزعاج شديد ووجد غيفار مضحكاً : اذ تلطخت شفتاه بأحمر الشفاه وعلى وجهه آثار أصابع . لكن وضع الرفاق الآخر كان اكثر اهمالاً . الجميع يتعانقون ، كما تأتي من وقت لآخر السيدة

المولجة بغرفة الشباب وترمي بكرات متعددة الألوان صائحة : « هيا يا أبنائي ، استمعوا ! » . ويبدأ الجميع بالضحك . واخيراً تذكر لوسيان بأن مود موجودة فقال باسم : « انظري الى هذين الشابين » . وهو يعني غيغار وفاني وأضاف : « أما نحن فشيخان وقوران ... » ولم يمه عبارته ، بل ضحك بصورة غريبة حتى ضحككت مود بدورها . وانتزعت قبعته ، ورأى لوسيان انها كانت افضل من سائر النساء اللاتي كن في الحلبة ، عندئذ دعاها للرقص وحديثها عن الألعاب التي قام بها مع الأساتذة ، عندما كان في صف البسكالوريا . انها تحسن الرقص ، كما ان عينيها سوداوين رصينتين ، وعليها سياء التباهة . حدثها لوسيان عن برت وقال لها انه يشعر بالندم متأماً وأضاف : « لكن هذا كان افضل لها » . ووجدت مود قصة برت شاعرية وحزينة معاً ، وسألت كم تكسب برت من عملها عند اهل لوسيان » . وأضافت : « أليس من المضحك حقاً أن تتخذ الفتاة لنفسها وضعاً معيناً » . لم يعد غيغار وفاني يهتان بها ، فهو يداعبها وهي تداعبه ، وكان وجه غيغار مبللاً من العرق . وراح لوسيان يردد من وقت لآخر : « انظري الى الشابين ، انظري اليهما » . وجهاز عبارته : « انها يدبان في الرغبة لأعمل مثلها » . ولكنه لم يضعها في مكانها واكتفى بالابتسام ، ثم تظاهر بأنه رفيق قديم لمود ، قد ملّ من الحب وسمّاها « بالأخ القديم » . وتظاهر بأنه يربت على كتفها . وفجأة نظرت فاني نحوها مدهوشة وقالت : « إذأ ، أيتها الطبقة الصغيرة ، ماذا تفعلان ؟ تعانقا ، فستموتان من شدة الرغبة » . واخذ لوسيان مود بين ذراعيه ، كان مزعوجاً بعض الانزعاج لأن فاني تتطلع اليها : أراد أن تكون القبلة طويلة ناجحة ، لكنه تساءل ما ينبغي أن يفعله الناس ليستطيعوا التنفس . واخيراً ، وجد ان العناق ليس بمثل الصعوبة التي توقعها ، إذ يكفي ان يقبل المرء اعتباراً حتى يزج بمنخريه . وسمع غيغار وهو يعدّ : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... » وترك مود عند رقم اثنين وخمسين » . وقال غيغار لا بأس بهذا كبدية ؛ لكنني ساحسن الحال » ونظر لوسيان الى قشاط ساعته وراح يعدّ بدوره : « ترك

غيفار ثغر فاني بعد مئة وخمسين ثانية . وفكر في نفسه . وغضب لوسيان أشد الغضب ووجد انها مسابقة لا معنى لها . وفكر في نفسه : « لقد تركت مود بلء ارادتي ، فليس هذا صعباً ، اذ انه ما ان يتعلم المرم كيف يتنفس حتى يصبح بإمكانه ان يستمر وقتاً لا نهاية له » . وعادوا الكرة ثانية . وما ان انتهى الجميع ، حتى تطلعت مود الى لوسيان وقالت له برصانة : « انت تحسن التقبيل » . فاحمر وجهه لوسيان من السرور . وأضاف هو ينحني : « أنا في خدمتك » لكنه مع ذلك يؤثر تقبيل فاني . وافترقوا في الساعة الثانية عشرة والنصف ، موعد المترو الأخير . كان لوسيان جذلاً : « لقد كسب القضية » . لكن زوايا فده باتت تؤله لأنه ابتسم كثيراً .

اعتاد على مقابلة مود يوم الخميس في السادسة وليلة السبت . كانت تسمح له بتقبيلها بدون ان تستسلم له . فشكا لوسيان الأمر لغيفار فطمأنه قائلاً : « لا تقلق بالكل ، فاني متأكدة من انها ستراجع ؛ فهي لا تزال صغيرة ولم تعرف سوى عشيقين حتى الآن ؛ توصيك فاني بأن تكون شديد الرقة معها » . فقال لوسيان : « شديد الرقة » . كان يقبل مود كثيراً ويقول لها انه يحبها ، ولكن مع الوقت اصبح هذا رتيباً ، ثم انه لم يكن فخوراً بالخروج معها : كما ان بوده ان يبدي لها بعض الملاحظات بشأن زينتها لكن لديها الكثير من المزاعم الخاطئة فضلاً عن أنها سريعة الغضب . وفي فترة ما بين القبلتين ، كانا يظلمان صامتين ، يسك واحدهما بيد الآخر مثبتاً نظره فيه . « الله يعلم بم هي تفكر ، بتلك النظرات الصارمة » . أما لوسيان ، فكان يفكر بشيء واحد : بتلك الحياة الكثيفة المبهمة ، حياته هو . فيقول في نفسه : « أود ان أصبح مثل لي موردان ، فهذا شخص عرف كيف يجد طريقه ! » في تلك اللحظات ، يرى نفسه وكأنه انسان آخر : يجلس يجوار امرأة تحبه ، يدها في يده ، وشفتاها لا تزالان مبتلتين من قبلاته ، ترفض السعادة التي يعرضها عليها : وحده . عندها يضغط بقوة على أصابع مود

الصغيرة وتصعد الدموع الى عينيه : إنه يريد ان يسعدها .

في يوم من ايام كانون الاول اقترب لي موردان من لوسيان، وكان يحمل ورقة وسأله : « هل تريد ان توقع عليها » .

- ما هذه ؟

- إنها عريضة احتجاج ضد عريضة أخرى تحمل مئتي توقيع ، تعارض التجنيد الاجباري . ونحن يلزمنا جمع الف توقيع » . واعترت لوسيان النشوة وسأل : « وهل ستشره » - في جريدة أكسيون بالطبع . أو في الايكودي باري ، وأراد لوسيان ان يوقعها في الحال ، لكنه لم يجد ان توقيعها بسرعة يدل على الرصانة . فأخذ الورقة وقرأها بانتباه كلي . وأضاف لي موردان : « انت لا تهتم بالسياسة ، وهذا شأنك . لكنك فرنسي ، ولك الحق بأن تقول كلمتك » . ولما سمع عبارة « لك الحق بأن تقول كلمتك » عمت الفرحة في نفس لوسيان ووقع العريضة . وفي اليوم التالي اشترى جريدة الأكسيون ، لكن العريضة لم تكن موجودة فيها . ولم يتم نشرها إلا يوم الخميس ، لقد عثر عليها لوسيان في الصفحة الثانية بعنوان : « شبيبة فرنسا تسدد ضربة قاصمة الى وجه الحركة اليهودية الدولية » . واسمه كان موجوداً ، في مكان غير بعيد عن اسم لي موردان . انه اسم ملائم . وفكر في نفسه : « لوسيان فلورييه ، اسم فلاح ، اسم فرنسي حقاً » . وقرأ بصوت عال قائمة الأسماء التي تبدأ بحرف ف ، ولما جاء دور اسمه ، لفظه متظاهراً بأنه لم ينتبه اليه . ثم وضع الجريدة في جيبه وعاد الى بيته مسروراً على أشد ما يكون السرور .

وذهب من تلقاء نفسه بعد أيام لمقابلة لي موردان : « هل تقرأ جريدة الأكسيون أحياناً ؟ » فقال لوسيان بصراحة « ليس كثيراً ، فهي لا تهمني كثيراً : حتى الآن ، لكنني أحسن بانني أتبدل » . كان لي موردان ينظر اليه بغير اهتمام . واخبره لوسيان بالتفصيل عما سماه برجيير « بالتشوش » فسأله

لي موردان : « من أين أنت ؟

- من فيرول ، وأبي يملك مصنعاً فيها .

- كم بقيت من الوقت هناك ؟

- حتى الصف الثاني .

فقال لي موردان :

- أرى تماماً بأنك غير مركز هل قرأت بارتس ؟

- قرأت كوليت بودوش .

فقال لي موردان بغير صبر :

- ليس هذا .

- سأتي لك بعد الظهر بكتاب « المهاجرين » انها قصتك . ستجد فيها « العلة والدواء » . كان الكتاب مجلداً بغلاف جلدي أخضر . على الصفحة الأولى اسم « اندريه لي موردان . ودعش لوسيان ! لم يخطر قط ببالي ان يكون للي موردان اسم شخصي .

وبدأ قراءته ببالغ الحذر : فكثيراً ما شرح الناس له الأمور ، وكثيراً ما أعاروه الكتب قائلين له : « اقرأ هذا ، فهو يشبهك تمام الشبه » . وفكر لوسيان ، بضحكة كثيفة ، انه ليس الرجل الذي يمكن خداعه ببعض العبارات : عقدة اوديب ، والتشوش : يا لها من صيانيات وكم ان هذا بعيد المثال ! لكنه تأثر منذ الصفحة الأولى : فليس الكتاب في علم النفس . - والشباب الذين تحدث عنهم بارتس ليسوا من الأشخاص المجردين او الخارجين على مجتمعاتهم مثل رامبو وفرلين ، وليسوا مرضى كنساء فينتا اللواتي لا عمل لهن سوى التردد على عيادة فرويد ، وراح بارتس يضع هؤلاء الشباب

في إطار وسطهم وعائلتهم ؛ لقد احسنوا تربيتهم في المناطق الخارجة عن باريس ضمن التقاليد المتينة . ووجد لوسيان ان ستودبل يشابهه . وقال في نفسه : « هذا صحيح مع ذلك ، فأنا هاجرت من بلدي » . وفكر بصحة آل فلوريه المعنوية ، الصحة التي لا يؤتى بثمنها الا في الريف ، وفكر ايضا بقوتهم الجسدية (كان جده يلوي قطعة النقود المعدنية بين أصابعه . وتذكر بتأثر طلوع الفجر في فيرول : كان ينهض ، وينزل مسرعاً كيلا يوقظ أبويه ، يأخذ دراجته ، ويغلب له منظر الإبل دي فرانس . وفكر في نفسه بقوة : « لقد كرهت باريس على الدوام » . وقرأ « حديقة بيرنيس » ، وكان من وقت لآخر يقطع قراءته ويفكر ، يعينين شاردتين . ها انهم من جديد يقدمون اليه طليعة ومصيراً ، وسيلة للتخلص من الثروات التي لا تنتهي ، طريقة ليحدد نفسه بها ويعرف قيمتها . ولكم يؤثره ذاك اللاوعي المفعم برائحة الحقول ، والذي تعرفه عند بارس لكم يؤثر على حيوانات فرويد الشهوانية . وحق يدرك ذلك ، لم يكن ينبغي على لوسيان إلا ان يتحول عن تأمل عقيم وخطر لنفسه : ينبغي له ان يدرس أرض فيرول من الخارج والداخل ، وأن يفسر معنى الهضاب التي قبلغ « سرنيت » ، وان يتجه نحو الجغرافيا البشرية والتاريخ . أو ان عليه بالأحرى ان يعود الى فيرول ليعيش فيها : سيحدها تحت قدميه ، خصبة وديعة ، تمتد على طول الريف الذي يحمل اسمها ، الريف الذي يتزج بالأعشاب والغابات والسواقي . ومن هناك ستأتيه القوة اللازمة كي يصبح قائداً . وخرج لوسيان شديد التحمس من خيالاته الطويلة ، انه بات يفكر من وقت لآخر ، إنه قد وجد سبيله . والآن عندما يقف راجعاً الى جانب مود ، كانت الكلمات ترن في أذنه « إعادة وصل التقاليد » . « الأرض والأموات » كلمات عميقة ليس لها قرار . وفكر في نفسه « كم هذا مشوق » . غير انه ، لم يتجرأ على تصديق ذلك : فكثيراً ما خاب ظنه . وأعرب للي موردان عن خوافه . فقال لي موردان : وسيكون الأمر جيلاً . فليس بالامكان ان يؤمن الانسان بسهولة بما يراه . بل ان عليه ان يحرب » . وفكر لحظة ثم

اضاف : عليك ان تأتي معنا » . رقبل لوسيان بطيبة خاطر ، لكنه أوضح بأنه يريد حريته وقال : « سأذهب ، غير اني لن التزم . سأرى وأفكر » .

وسر لوسيان بصحبة صفار البائعين ، الذين استقبلوه استقبالا قلبيا وبسيطا معاً ، ولم يمش وقت طويل حتى شعر بالارتياح بينهم . وتعرف بسرعة على «عصبة» لي موردان ، وهم عشرون طالباً يعتمدون قبعات الخمّل . كانوا يداومون على الطابق الأول عند بولدر حيث يلعبون البريدج والبيليار . وكان لوسيان يذهب للقاءهم ، ويدرك بأنهم تبنوه ، لانهم يستقبلونه دائماً هاتفين : « ها هو أجملنا ! » أو « انه فلورييه ذخر الوطن » . لكن حسن عشرتهم هي التي أثرت في نفس لوسيان : فلا ادعاء ولا استبداد ، وقليل من المحادثات السياسية . كان يضحكون وينشدون الأغاني ويهتفون للشبيبة الطلابية ، حتى في موردان نفسه الذي لم ينكر عليه احد جديته كان يبتسم في بعض الأحيان . أما لوسيان ، فكان يسكت في أكثر الاحيان منصتاً الى هؤلاء الشباب الراقدين بالصحة ، الزاخرين بالعضلات . وفكر في نفسه : « انهم يشكلون قوة » .

لقد تعرف في وسطهم على معنى الشباب الحقيقي : اذ ان معناه ليس موجوداً في الاغراء المريض الذي يقدره برجير . الشبيبة ، انها امل فرنسا . ولم يكن لأصدقاء لي موردان مظاهر المراهقة المغربية : انهم راشدون نبتت لحام ، يبعثون في نفس الناظر اليهم نوعاً من الارتياح العائلي : لقد انتهوا من متاهات السن وشكوكه . كانت مآزحاتهم الخفيفة القوية تثير الحنجل في نفس لوسيان : لكنه بالامكان اعتبارهم غير واعين لتلك الحال . ولما جاء ريمي ليعلم أن السيدة دويوس ، زوجة القائد الراديكالي ، قد قطعت الشاحنة ساقها ؛ انتظر لوسيان ان يعمد الرفاق الى الترحم على زوجة الخصم . لكنهم انفجروا بالضحك وراحوا يضربون على أفخاذ بعضهم البعض قائلين : « الجثة العتيقة » . « سائق الشاحنة ذو التقدير » . وتأثر لوسيان قليلاً ، غير انه ادرك أن ذلك لم يكن سوى الرفض : لقد استشفوا الخطر ، ولم يرضوا بنوع من الشفقة . وراح لوسيان يضحك بدوره ، واحرز بعض النجاح . وعندما كان يقول :

« إذا قضى في سريره هذا الرجل ، فليس هناك من إله » وأحس بأنت نوعاً من الغضب الشديد يتولد فيه . عندها ضغط على فكيه ، وأحس للحظة بأنه مقتنع اقتناع ريمي ودي بـرو الضيق . وفكر في نفسه : « إن لي موردان محق . إذ ينبغي إجراء الممارسة ، فكل القضية هنا » . وتعلم أيضاً كيف يرفض المناقشة : فغيغار الذي كان جمهورياً ، أرهقه بالملاحظات . واصغى اليه لوسيان بطيبة خاطر ، ولم تمض لحظة حتى أغلق على نفسه . واستمر غيغار بالكلام ، لكن لوسيان لم يعد ينظر اليه ، بل راح ينفخ الدخان من فمه على شكل دوائر وهو يتفحص وجوه النساء . غير انه كان يسمع ، رغم كل شيء ، ملاحظات غيغار التي تصل الى مسامعه وتتحول من ثم الى كلمات خفيفة لا معنى لها . واخيراً سكنت غيغار متأثراً كل التأثر . وحدث لوسيان أبويه عن أصدقائه الجدد وسأله السيد فلورييه إذا كان ينوي أن يصبح بائعاً صغيراً . وتردد لوسيان ثم قال برصانة : « إن هذا يجتذبي . حقاً انه يجتذبي - فقالت أمه : « لوسيان ، أرجوك لا تقدم على هذا العمل ، انهم متقلقلون ، وقد تقودك صحتهم الى السجن ؟ ثم انك لا زلت صغيراً ولم يأت الوقت لتعمل في السياسة » . ولم يحبها لوسيان بسوى ابتسامة جادة ، فتدخل السيد فلورييه قائلاً بعدوبة : « دعيه يا عزيزتي ، دعيه يقدم على هذا العالم ، إذ ينبغي أن يمر بهذه المرحلة » . وبدا للوسيان منذ ذلك الحين أن أهله باتوا يعاملونه بنوع من الاعتبار . غير انه لم يصمم على شيء . فقد علمته هذه الأسابيع الأخيرة الكثير من الأمور . وتمثل فضول أبيه ، وتخاوف أمه ، واحترام غيغار ، والاحاح لي موردان ، ولجاجة ريمي وقال هو يهز رأسه : « ليس ذلك عملاً بسيطاً » . وتحدث مطولاً مع لي موردان ، وتقمهم لي موردان جميع الأسباب التي قدّمها ، ونصحه بالاستعجال . كان لوسيان لا يزال يشعر بالضيق : وبدا له انه ليس سوى شيء شفاف يرتجف على سطح فنجان القهوة ، ورأى أن تحركات البائعين الصغار لا مبرر لها . غير انه أحس في لحظات أخرى بأنه قاس وثقيل كالخجر ، فسرّ لذلك بعض السرور .

وأخذت أحواله تتحسن مع أولئك الأصحاب . فأنشد لهم أنشودة عرس ريبكا التي علمه إياها هيرار في العطة الماضية . وصرح الجميع بأن الأنشودة مسلية جداً، فتمسّس لوسيان وأبدل بعض الملاحظات ضد اليهود وتحدث عن برلياك البخل : « كنت أقول في نفسي لماذا هو مقتر إلى هذا الحد ، ليس بالامكان ان يكون المرء مقترأ الى هذا الحد . ثم فهمت ذات يوم انه ينتمي للقبيلة » . وراح الجميع يضحكون فتمسّس لوسيان حماساً كبيراً : أحس بأنه شديد النقمة على اليهود كما ان ذكرى برلياك كانت كريهة جداً بالنسبة اليه . ونظر اليه في موردان ملياً وقال له : « أنت عفيف » . وبعدها سئل لوسيان مراراً وفلوريه : اخبرنا قصة عن اليهود . ويبدأ لوسيان بسرد القصص التي حفظها عن والده ، مستهلاً كلامه بتقليد لهجة اليهود . ليضحك رفاقه . ذات يوم قال ريمي وباتنوتر إنها اشتبكا مع يهودي جزائري على ضفاف السين وجعلاه يخاف خوفاً شديداً وهما يتقدمان اليه وكأنها يريدان إلقاءه في الماء وختم ريمي حديثه بقوله : « يا للأسف » آه لو كان فلوريه معنا » . فقاطعه ديبرو « إن غياباه افضل ، لأنه لو كان موجوداً لألقى به فعلاً في الماء . ليس لدى لوسيان من شبيه له حتى يتعرف على اليهودي بمجرد رؤيته . وعندما يخرج مع غيفار ، كان يدفعه برفق : « لا تستدر الى الورا في الحال : هذا القصير الضخم الذي وراءنا هو واحد منهم » . فيقول غيفار : « لديك حاسة قوية في مثل هذه الأمور » . وفاني بدورها لاتستطيع ان تشم رائحة اليهود . صعد الأربعة معاً يوم الخميس الى غرفة مود ، وغنى لوسيان أنشودة عرس ريبكا . ولم تعد فاني تتمالك نذسها فقالت له « توقف ، توقف ، سأبول في سروالي » . وما ان ينتهي حتى ترمقه بنظرة ملؤها السرور والعذوبة . في معمل بولدز ، دبروا للوسيان مقبلاً . فهناك دائماً من يقول : « فلوريه الذي يحب اليهود كثيراً » أو « ليون بلوم صديق فلوريه الكبير » ... بينما ينتظر الآخرون فاغرين أفواههم رد الفعل لديه ويحمر وجه لوسيان ، ويضرب على الطاولة صائحا : « يا للامم اللعين ...! » فيضحك الجميع ويقولون :

« ها قد مشى ؟ ها قد مشى !

كلا لم يش : بل ركض ! »

كان يصحبهم اكثر الأحيان الى الاجتماعات السياسية ويستمع الى الاستاذ كلود والى ماكسيم ريل دل سارت . ولا شك بان هذه الأمور كانت تعيق لوسيان عن دروسه ، ولم يمد يتأمل بالنجاح في تلك السنة في مباراة المدرسة المركزية ، لذا كان السيد فلورييه يقول لزوجته : « لا بأس ، عليه ان يتعلم كيف يكون رجلاً » وعندما يخرجون من الاجتماعات يعمد لوسيان ورفاقه الى ارتكاب الأعمال الصبيانية لشدة تحمسهم . ذات يوم وكانوا خمسة عشر شخصاً يسرون في شارع سان أندريه دي آر أبصروا بشخص يقرأ جريدة الأومانيته . فحسروه عند الحائط وأمره ريمي بقوله : « إرم هذه الجريدة » . وأراد الرجل ان يقاوم ، فجاء ديبرو من ورائه وكتف له يديه ، بينما انتزع منه لي موردان الجريدة . انه لأمر ممتع : راح الرجل القصير يلبط في الهواء صائحاً : « اتركوني ! اتركوني ! » بلهجة مضحكة ، بينما كان لي موردان يمزق الجريدة على مهل . ولكن حين أراد ديبرو أن يفلت الرجل ، تأزمت الأمور : كاد الرجل يمسك لي موردان ، لو لم يضربه ريمي على أذنه ضربة قوية . فارتطم الرجل بالجدار ونظر اليهم صائحاً : « يا لكم من فرنسيين قذرين ! » فقال له مارشسو : « كرر ما قلته » . وفهم لوسيان ان القضية سيزداد تدهورها : اذ ان مارشسو لم يكن يستطيع المازحة حين تتعلق القضية بفرنسا وقال الرجل الغريب . « يا لكم من فرنسيين قذرين » . فتلقى ضربة قوية وارتقى الى الامام مطأطئ الرأس صائحاً : « يا للفرنسيين القذرين ، يا للبورجوازيين القذرين ، انني اكرهكم » أريد أن تموتوا جميعاً ، جميعاً ! » وأضاف الكثير من الشتائم الأخرى التي لم يكن لوسيان ليتصورها . عندها ضاقوا به ذرعاً واشتركوا جميعاً في عملية إصلاحه . وما هي اللحظة حتى تركوه فتهالك الرجل ، وأسند ظهره للجدار ، وتجمعوا حوله بعد ان تعبوا من الضرب ينتظرون

وقوعه على الأرض . ولوى الرجل نفسه وبصق : « يا للفرنسيين القذرين ! »
وسأله ديبرو وهو يلهث : « هل تريد ان تعاود الكرة . ولم يبد على الرجل
انه سمع : بل كان ينظر اليهم بعينه البسرى ، التي لم تصب وراح يكرر :
« يا للفرنسيين القذرين ! يا للفرنسيين القذرين ! »

ومرت فترة تردد ، وفهم لوسيان بأن رفاقه لن يتابعوا الجولة . فانقضّ
بدوره على الرجل بكل قواه . وسمع شيئاً يقرقع ، فنظر اليه الرجل مبهوئاً
« يا للقذرين ... » وبدأت عينه اليمنى المغمضة تنفتح بعض الشيء . ووقع
على ركبتيه ولم يصف أي شيء . فقال ربي : « فلنذهب . » وراحوا
يركضون ولم يترقفوا إلا عند جادة سان - ميشال : ما من أحد لحق بهم .
وحسنوا وضع ياقاتهم وسرّحوا شعرهم على عجل .

ومضت السهرة بدون ان يأتي الشباب على ذكر مغامرتهم ، وتأنسوا
فيما بينهم : ها انهم يتركون ذلك العمل الوحشي الذي يخفي مشاعرهم
وراءه . وراحوا يتحدثون بكل تأدب ، وفكر لوسيان بأنهم بدوا للمرة
الأولى كما ينبغي أن يكونوا عليه في منازل أهلهم . لكنه كان منزعجاً ؛ إذ أنه
لم يألف القتال في الشارع مع أبناء الأزقة ، وفكر بمود وفاني بجنو .

لم يذق طعم النوم . وفكر في نفسه : « ليس بإمكانني ان ألتحق بهم كهوا ،
عليّ أن اعلن انتائني الآن ! » وشعر بأنه رصين جداً حين زفّ النبا للي
موردان . فقال له : « ها أنك تصمم » ، وأنا معلق . وربت لي موردان على
كفّته ، واحتفلت الجماعة بالحدث وشربوا عدّة زجاجات . وعادوا الى
لهجتهم العنيفة ولم يتناووا حادث البارحة . ولما هما بالافتراق قال مارشو
للوسيان : « ضرباتك قوية ! » فأجاب لوسيان : « لقد كان يهودياً ! »

وفي اليوم الذي تلا الغد ، أتى لوسيان لمقابلة مود وهو يحمل قضيباً
غليظاً من الخيزران اشتراه من جادة اللسان ميشال . وأدركت مود المغزى في
الحال ، ونظرت الى القضيب قائلة : « إذا فقد تمّ الأمر . » وأجابه باسم :

« لقد تمّ » . ورأت مود أن هذا يرفع من شأنها شخصياً ؛ وإن كانت أقرب الى اليسار ، فانها واسعة الأفق . وقالت له : « انني أجد جوانب حسنة في جميع الأحزاب » . وفي المساء ؛ حكّت له اذنه عدة مرات وهي تحاطبه بالبائع الصغير . بعد ذلك بوقت قصير ، يوم السبت ، شعرت مود بالتعب وقالت له : « أرى أنه ينبغي أن اعود الى البيت ، ولكن بإمكانك أن تصعد معي ، لو كنت عاقلاً : ستمسكني بيدي وستكون لطيفاً جداً مع مود الصغيرة التي تشعر بالألم ، وستقصّ عليها الحكايات » . ولم يتحسس لوسيان كثيراً للفكرة : إذ أن غرفة مود كانت تضايقه بقلة أثانها ، فهي كغرفة الخادومات . لكنه من الجريمة أن يجعل الفرصة تفوته . وما ان دخلت مود حتى ارتقت على السرير قائلة : « أوف ، كم أشعر بالارتياح » . ثم سكنت ونظرت الى لوسيان بامعان بعد أن زمت شفتيها . وأتى ليستلقي الى جانبها ، ووضعت يديها على وجهها وباعدت بين أصابعها قائلة بصوت كصوت الطفل : « كوكو ، ها أنا أراك ، أنا أراك يا لوسيان » وأحس بأنه يتقبل رغو ، ووضعت أصابعها في فمه فراح يمصها ، وقال لها برقة : « إن صغيرتي مود مريضة ، كم هي بائسة صغيرتي مود » . وداعب كل جسدها ، وكانت قد أغمضت عينيها وهي تبسم ابتسامة غريبة . وما هي إلا لحظة حتى رفع فستان مود ورأى أنه يضاجعها . وفكر لوسيان : « أنا قدير » . وقالت مود بعد ان انتهيا : « آه ، لو كنت انتظر مسبقاً ! » ونظرت الى لوسيان بنوع من العتاب العذب : « يا لك من خبيث ظننت انك ستظل عاقلاً ! » وقال لوسيان بأنه فوجيء أيضاً بذلك وقال : « حدث الأمر تلقائياً » . ففكرت قليلاً وقالت له برصانة : « أنا لاأسف على شيء ، في السابق كان الامر أكثر طهارة ، ولكن أقل كلاً » .

وفكر لوسيان في الميترو : « إن لي عشيقة » . كان فارغ الذهن ، تعباً ، يشم رائحة الافستين والسمك الطازج . وجلس في مكانه جامداً ليتجنب ملابس قبيصة المبلل بالمرق . وتهياً له أن جسمه قد صنع من اللبن . وكرر

لنفسه بقوة : « ان لي عشيقة » . لكنه شعر بالحرمان ؛ فان الذي جعله يرغب في مود حتى عشية أمس ، كان وجهها الضيق ، وشكلها الرقيق ، وشهرتها كفتاة رصينة ، واحتقارها لجنس الرجال ، وكل ما يجعل منها شخصاً غريباً ، انساناً « آخر » . بأفكارها الخاصة وحشمتها ، وجوريتها الحريريين ، وذاب الطلاء حين ضمها اليه ، ولم يبق سوى اللحم ، لقد اقتربت شفتاه من وجهه ليس له عينان ، وجه عار كالبطن ، لقد حاز على زهرة ضخمة من اللحم الملبلل . وتذكر الحيوان الأعشى الذي كان يتحرك في السرير وفكر : « انه كلانا معاً » . لم يكونا سوى شخص واحد ، لم يعد بوسمه أن يميز لحمه عن لحم مود . ما من أحد جعله يشعر بتلك الصحة الخالصة سوى ريري : حين كان ريري يبدي عضوه وراء السياج أو حين كان ينسى نفسه نائماً على بطنه ، يحرك رجله ويديه ، بقفاه العارية ، بينما هو يحققون سره . وشعر لوسيان ببعض العزاء حين فكر بغيفار : سيقول له غداً بأنه ضائع مود ، « انها امرأة مثيرة يا صاح : والاثارة موجودة في قمها » . لكنه كان متضيقاً : يحس بأنه عار وسط المترو ، عار تحت ستار رقيق من الملابس ، جامد وعار يحوار الكاهن ، مواجهاً امرأتين ناضجتين ، وكأنه هليون قدرة .

وهنا غيفار بجمرة . وكأنه قد شتم معاشرته فاني : « ان عشرتها سيئة للغاية . وأمس قلبت وجهها طيلة السهرة » . واتفق كلاهما على انه ينبغي وجود نساء كهذه النساء ، اذ ليس بالامكان ان يبقى المرء طاهراً حتى الزواج ، ثم إن هذه النسوة لسن مغرضات ولا مريضات ، سوى انه من الخطأ التمسك بهن . وتحدث غيفار عن الفتيات الحقيقيات بكثير من الرقة ، وسأله لوسيان عن أخته . فقال غيفار : « صحتها جيدة يا صاح . وتقول بأنك سريع الهجران » وأضاف بنوع من الشرود : « هل تدري ا انني مسرور لأن لي شقيقة ، اذ أن هناك أشياء لا نستطيع ان نعيها بدون الشقيقات . وأعطاه لوسيان كل الحق . وبعدها ، أخذاً يتحدثان كثيراً عن الفتيات وأحسا بأنها مفعمان الشعر ، وكان يحاولان لغيفار ان يردد قول أحد أعمامه ، وهو شديد النجاس مع

النساء : « لعلني لم افعل أية حسنة في حياتي الملعونة ، لكن هناك شيئاً واحداً سيسجله الله لي ، فمن الأفضل ان أنسب بقطع يدي على ان أمدّها نحو فتاة من الفتيات » . كانا يذهبان أحياناً لزيارة صديقات بيرات غيفار . وكلت لوسيان يحب بيرات كثيراً ، يحدثها بلمحة الأخ الأكبر وليس بغير مضايقة ، كما انه شكر لها حسن صنيعها لأنها لم تقدم على قص شعرها . وملأت عليه نشاطاته السياسية كل شيء ، اذ راح يبيع « الأكسيون فرانسين » أمام كنيسة نوبي . ويظل طيلة ساعتين يروح ويحيي ، منكش الاسارير . فترفع الفتيات وهن خارجات من الكنيسة انظارهن الجميلة اليه . عندها ينشرح لوسيان قليلاً ويبتسم لهن . وقد أوضح لجماعته بأنه يحترم النساء وهو سعيد لأنه وجد انهن يتمتعن بنفس الإدراك الذي كان يأمله . وجميع أصحابه لهم شقيقات .

وفي ١٧ نيسان أقام آل غيفار حفلة مناسبة بلوغ بيرات الثامنة عشرة من عمرها ، ودعي لوسيان الى الحفلة بالطبع . كان على صلة وثيقة ببيرات ، إذ انها تسميه راقصها الخاص ، وهو يظن بعض الظن بأنها تحبه . ورقص لوسيان عدة مرات مع بيرات ثم راح ليلتحق بغيفار في قاعة التدخين . فقال غيفار : « تحية لك ، أظن بأنكم تعرفون بعضكم البعض ، سيمون ، فينوس ، لودو » . وبينما غيفار يقدم أصدقاءه ، أبصر لوسيان شاباً أشقر ، كث الحاجبين ، يقترب منهم بتردد ، فاجتاحه الغضب . وتساءل في نفسه : « ماذا يفعل هنا هذا الشخص ؟ » وغيفار يعرف حق المعرفة انني لا استطيع ان أشم رائحة اليهود ! « وأشاح بوجهه وابتعد ليتجنب التعارف . وسأل بيرات بعد لحظة :

« ما هذا اليهودي ! »

— انه وابل ، طالب في معهد العلوم التجارية العليا ؛ تعرف عليه أشفي في قاعة الاسلحة . فقال لوسيان : « انني اكره اليهود » . فضحكت بيرات ضحكة خفيفة وقالت : « انه شاب طيب ، تعال رافقني الى البوفيه » وتناول

لوسيان كوباً من الشمبانيا وما كاد يلقيه من يده : حتى رأى نفسه بمواجهة غيغار ووايل . ونظر الى غيغار نظرة ملؤها الغضب وأدار ظهره بسرعة . لكن بيرات أمسكته بذراعه . وباغته غيغار بصراحة قائلاً ببساطة : « صديقي فلورييه ، صديقي وايل . ها قد أجريننا التعارف » . ومد وايل يده ، وأحس لوسيان بضيق شديد . ولحسن الحظ ، تذكر كلام دييرو : « لو كان فلورييه موجوداً لألقى به فعلاً في الماء » . ووضع يديه في جيبه وأدار ظهره لغيغار وفكر في نفسه وهو يطلب ثيابه : « لم يعد بإمكانني ان آتي الى هذا البيت مرة أخرى » . وأحس بنوع من التكبر المرير . « هذه هي عقوبة التزمت ، يفقد المرء مقدراته على العيش في المجتمع » . وفي الشارع تلاشى ذلك التكبر واعتراه قلق شديد . لا بد وان يكون غيغار قد غضب ! وهز رأسه وحاول ان يقول لنفسه باقتناع راسخ : « لم يكن ينبغي ان يدعو يهودياً ، في نفس الوقت الذي يدعوني فيه » . لكن غضبه تبدد . وتذكر بنوع من الضيق وجه وايل المستهجن ، ويده الممدودة ، وشعر بميل للمصالحة : « لا بد وان تفكر بيرات بأني فظ غليظ . كان ينبغي ان أصافح تلك اليد . فذلك لا يلزمني بشيء » . ان كل ما كان يتوجب علي هو ان أقوم بتحيةة ملؤها التحفظ وأبتعد بعدها على الاثر : هذا كل ما هنالك » . وتساءل في نفسه إذا كان يستطيع العودة الى بيت غيغار . سيقترب من وايل ويقول له : « اعذرني ، فقد اعتراني بعض الضيق » . وسيشد على يده ويجدده نوعاً من الحديث اللطيف » . ولكن لا . لقد فات الوقت . وتصرفه لا يمكن تلافيه . وفكر في نفسه غاضباً : « ما كان محجوبي لبدء آرائي أمام أناس لا يفهمونها ! » وهز كتفيه بعصبية : انها كارثة . في نفس اللحظة كان غيغار وبيرات يعلقان على تصرفه ، وقال غيغار : « انه مجنون تمام الجنون ! » وضغط لوسيان على قبضة يده . وفكر بنوع من اليأس : « أوه ، كم انني اكرهمهم ! كم أكره اليهود ! » وأراد ان يجني بعض القوة من ذلك الكره الكبير . لكن الكراهية تلاشت أمام عينيه ، فمها فكر بان ليون بلوم يتلقى المساعدة من

ألمانيا ويكره الفرنسيين ، لم يعد يشعر بسوى نوع من اللامبالاة . ومن حظ لوسيان انه وجد مود في بيتها . وقال لها انه يحبها وضما عدة مرات الى صدره بنوع من الثورة . وقال في نفسه : « انتهى كل شيء ، ولن أصبح رجلا مهما » . فقالت له مود : « لا . لا . كف عن هذا يا عزيزي الكبير ، هذا ممنوع » . لكنها رضخت في النهاية : أراد لوسيان أن يقبلها في كل مكان . وشعر بأنه صيباني النزعة منحرف الطباع . واعترفته رغبة في البكاء .

وفي صبيحة اليوم التالي انعصر قلب لوسيان حين وقع نظره على غيفار . وتظاهر غيفار بأنه لم يره . ولم يتمكن لوسيان لشدة غيظه من كتابة شروح الأستاذ وفكر في نفسه : « يا للقدر ! يا للقدر » . وفي ختام الدرس اقترب منه غيفار وكان ممتنع اللون وفكر لوسيان : « لو اعترض ، سأضربه » . ومكثا لحظة جنباً الى جنب ، كلاهما ينظر الى رأس حدائه . واخيراً قال غيفار بصوت متهدج : « اعذرني يا صاح ، فلم يكن ينبغي أن اقدم على هذا العمل » . وارتعد لوسيان ونظر اليه بحدَر . لكن غيفار تابع بصعوبة : « صادفته في القاعة ، هل تعلم . عندها أردت ... وكنا نتمرن معاً ، ودعاني الى بيته ، لكنني أدري ، كما تعلم ، لم يكن علي ان ، لست أدري كيف جرى سوى انني كتبت البطاقات لم أفكر بالأمر لحظة واحدة ... » ولم يكن لوسيان يقول شيئاً لأن الكلمات لا تخرج من فيه ، لكنه شعر بميله للغفران . واضاف غيفار مطأطىء الرأس : « وبالنسبة لهذه الخطيئة ... » فقال لوسيان وهو يربت على كتفه : « يا لك من مصران خنزير ، انا اعرف حق المعرفة بأنك لم تتعمد ذلك » . وأضاف : « وأنا اخطأت بدوري . وتصرفت تصرف الفظ الغليظ . ولكن ماذا تريد ، لم استطع ان امالك نفسي ، فليس بإمكانني ان ألأسمهم ، وهذا شيء طبيعي ، أحس بأن في ايديهم القشر . ما قالت بيرات ! » فقال غيفار برفق : « لقد ضحككت كالجهنونة » .

— والرجل ؟

— لقد فهم . وقلت كل ما بإمكانني أن اقله ، لكنه غادر الحفلة بعد

ذلك برسع ساعة . واضاف بنفس الرفق : « قال أهلي بأنك محق ، وبأنه ليس بإمكانك ان تتصرف بخلاف ذلك تجاه اعتقادك الراسخ . وتذوق لوسيان كلمة « اعتقاد » . واراد أن يضم غيفار بين ذراعيه وقال له : « لا بأس . لا بأس . طالما أننا لا نزال اصدقاء » . ونزل الى جادة سان ميشال بنوع من الانسراح العجيب : وبدأ له أنه ليس الشخص نفسه .

وقال في نفسه : « غريب هذا الأمر ، فلست أنا أنا ، ولا أعرف نفسي ! »
 بان الطقس دافئاً ولذيذاً ؛ والناس يحويون الشوارع وعلى وجوههم ابتسامة الريح الأولى . وانضم لوسيان الى هذا الجمهور المائع وكأنه زاوية من الفولاذ وفكر في نفسه : « ما عدت أنا نفسي ، أنا » كنت لا أزال حتى مساء أمس كالخشرة الضخمة ، التي تشبه قبايض فيرول . والآن يشعر لوسيان بأنه دقيق دقة الكرونومتر . ودخل مقهى لاسورس وطلب كأساً . لم يكن صحبه يقصدون لاسورس لأنها تعج بالغرباء . لكن الغرباء واليهود لم يكونوا ليضايقوا لوسيان في هذه الايام . وأحس بأنه غريب على تلك المجموعة من الاجساد البشرية التي تضج كحقل « الشوفان » إذ تلعب به الريح . وتعرف على يودي قصير ، كانت العصبة قد ضربته في الفصل المنصرم ، في ممرات كلية الآداب . لم يظهر أثر الضرب على هذا الكائن العجيب السمين . لقد ألتوت اجزأه لكنه ما لبث ان عاد الى حالته السابقة . لكنه يعيش نوعاً من الاستسلام الفاضح .

انه سعيد في هذه اللحظة . لقد ثأب بذه . كما دغدغ شعاع الشمس منخريه ، فحك أنفه وابتسم . هل كانت تلك بسمه ؟ أو نوعاً من الارتجاج الذي نشأ في الخارج ، هناك في مكان ما من زاوية القاعة ، وجاء ليذوي فوق ثمره ؟ كان جميع هؤلاء الغرباء عائين في مياه قائمة ثقيلة ، تهز بتموجاتها أجسامهم الرخوة ، كما ترفع ايديهم ، وتحرك أصابعهم ، يا للأشخاص المساكين ! ان لوسيان يشفق عليهم بعض الشفقة . لم أتوا الى فرنسا ؟ أية تيارات بحرية

جرفتهم وألقت بهم هنا؟ ومها احتشعوا في لباسهم عند خياطي جادة سان ميشال، فانهم ليسوا سوى حيوانات بحرية. وفكر لوسيان بأنه ليس حيواناً بحرياً، وبأنه لا ينتمي لاية مجموعة من الحيوانات المحترقة. وقال في نفسه: « انني أغطس! » وفجأة نسي لاسورس والغرباء، ولم يعد يرى سوى ظهر، ظهر عريض تكسوه العضلات، يبتعد بسرعة بقوة متزنة، ويضيع في الغمام. ورأى أيضاً غيفار: كان غيفار شاحب الوجه، يلاحق هذا الظهر بعينه، ويقول لبييرات التي لم تظهر: « حسناً، بالنسبة للغلطة... » واعترى لوسيان نوع من السرور الذي لا مبرر له: ان هذا الظهر القوي المنعزل انسا هو « ظهره »! والحادثة جرت أمس وبمجهوده العنيف استطاع أن يتطلع الى ظهره بعيني غيفار، وشعر بوضاعته وأحس بان الذعر قد دب فيه. وفكر في نفسه: « سيكون ذلك بمثابة درس لهم ». وتبدلت المناظر: انها غرفة بييرات الصغيرة، والحادثة تجري في المستقبل. بييرات وغيفار يشيران الى اسم في لائحة المدعوين. لم يكن لوسيان موجوداً، لكن سطوته خيمت عليها. وقال غيفار: « آه! كلا. ليس هذا الشخص! حسناً! فمع لوسيان تصبح الامور جميلة! لوسيان الذي لا يستطيع الرق باليهود ». لقد تلفظ مراراً بتلك العبارة، لكن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة. كلا. في الظاهر ليس إلا، كما لو أننا نقول: لوسيان لا يحب السمك! أو ان « لوسيان يحب الرقص ». ولكن ينبغي أن نتجنب الخطأ. فمحببة الرقص، لعل بالامكان العثور عليها لدى اليهودي القصير، وهي لا تكون آنثد سوى ارتعاشة حيوان بحري. لم يكن ينبغي سوى التطلع الى هذا اليهودي اللعين حتى ندرك بان ادواقه لاصقة به كرائحته، كأنعكاسات جلده؛ وبانها ستختفي معه كاهتزازات جفنيه الثقيلين، وكبساته المفعمة بالشهوة. لكن اللاسامية لدى لوسيان تتخذ طابعاً آخر: انها طاهرة قديمة الشفقة، قد غرست بنأى عنه كسكين الفولاذ، مهددة صدوراً آخر. وفكر في نفسه: « هذا، هذا... لعين! » وتذكر بان أمه كانت تقول له احياناً في صغره: « والدك يعمل في مكتبته »

وبدت له هذه العبارة بمثابة سر من الاسرار المقدسة أفضت اليه فجأة بمحيرة من الموجبات الدينية ، كأن لا يلعب ببندقية الهواء المضغوط وان لا يصيح « تراا يوم » في الممرات وهو يمشي على رؤوس اصابعه ، كما لو انه داخل كنيسة . وفكر في نفسه راضياً كل الرضى : « الآن جاء دوري » . كانوا يقولون بصوت خافت « لوسيان لا يحب اليهود » ويحس الناس بان قوام تتلاشى أمام جمهرة الاسهم التي تخرقها . ويقول في نفسه بحنو : « ان غيفار وبييرات طفلان » ارتكبا جرماً كبيراً ، ولكن ما ان كشر لوسيان عن أسنانه حتى شعرا بتوبيخ الضمير وراحا يتكلمان بصوت خافت ويسيران على رؤوس أصابعهما .

وأحس لوسيان للمرة الثانية بأنه مقعّم باحترام نفسه . لكنه هذه المرة ليس بحاجة لعيني غيفار : فهو يبدو مغترماً بعينه هو ، بعينه اللتين تخرقان غلافه المصنوع من اللحم ، من الذوق ، والاشمئزاز ، والعادات ، والأمزجة . وفكر في نفسه : « لم أجد نفسي حيث شئت عن نفسي » . وقام بإحصاء جميع ما هو عليه . « لكنني إذا لم اكن إلا ما انا ، فأنني لا أساوي اكثر من هذا اليهودي القصير » . ولو بحثنا في سر هذا الغشاء ماذا بإمكاننا ان نجد ، إن لم يكن كآبة اللحم ، وأكذوبة المساواة ، والفوضى ؟ وقال لوسيان في نفسه : « الحكمة الأولى ، عدم البحث عن شيء في الذات . فليس من خطأ يفوق بخطورته هذا الخطر . وهو يعرف الآن ان لوسيان الحقيقي ينبغي ان يعثر عليه في أعين الآخرين ، في طاعة بييرات وغيفار ، وفي الانتظار المقعّم بالأمل لدى أولئك الناس الذين يكبرون وينضجون من أجله ، وفي هؤلاء العمال الذين سيصبحون عماله هو ، وفي سكان الفيرول كباراً وصغاراً ، كان فسيفساج يوماً ما رئيساً لبلديتهم . واعتزى لوسيان بعض الرهبة . وشعر بانسه كبير على نفسه . فكثيرون من الناس ينتظرونه لحل السلاح : وهو كان وسيظل دائماً يحسب انتظار الآخرين . وفكر في نفسه « هذا هو القائد » . ورأى من جديد ظهراً مكسواً بالعضلات ، ثم رأى بعد ذلك كنيسة كان في داخلها يسير بخطى الذئاب تحت الأنواء المكيفة « لكنني ، انا الكنيسة » . وأمعن

النظر الى جاره ، وهو رجل كوبي اسمر عذب كالسيكار . كان ينبغي ايجاد كلمات بأي شكل للتعبير عن هذا الاكتشاف العجيب . ورفع يده بتؤدة وبعناية فائقة الى جبينه ، وخلا لنفسه قليلا وجاءته الكلمات من تلقاء ذاتها وتمت : « لي حقوق ، حقوق ! » شيء على صورة المثلثات والدوائر : إنه كامل الى حد انه ليس موجوداً ، فمها رسمنا خطوطاً مستديرة بواسطة البركار فلن نتمكن من رسم الدائرة . أجيال من العمال ستطيع أوامر لوسيان كل الطاعة ، ولن تستنفد حقه بإعطاء الأوامر . فالحقوق من وراء الوجود كالأشياء الرياضية والعقائد الدينية . وهذا ما كان عليه لوسيان بالضبط : باقة ضخمة من المسؤوليات والحقوق لقد آمن لوقت طويل بأنه وجد بالصدفة : ومرد ذلك لأنه فكّر ما فيه الكفاية . فقبل ولادته كان اسمه مسجلاً في الشمس . في فيرول ، كانوا « بانتظاره » حتى قبل زواج أبيه . واذا ما أتى الى العالم الآن فليكني يحتل هذا المكان . وفكر في نفسه ، « أنا موجود لأن لي الحق بالوجود ولاول مرة ، على ما يبدو ، شهد رؤيا ساطعة مجيدة في مصيره . سيتم قبوله في المدرسة المركزية ان عاجلاً ام آجلاً (وليس لهذا أية أهمية على كل حال) . عندها يتخلى عن مود (انها تريد طيلة الوقت ان تضاجعه . وهذا مرهق فان رائحة الشواء تنبعث من امتزاج جسديهما في مستهل هذا الربيع الحار » ثم إن مود لجميع الناس : اليوم هي لي وغداً لغيري وليس لهذا اي معنى . » (سيقم في فيرول . في مكان ما من فرنسا فتاة من نوع بيرات ، فتاة ريفية ذات عينين ورديتين ، لا تزال تحافظ على عفتها من أجله : كانت تحاول ان تتخيل سيدها في المستقبل ، هذا الرجل الرهيب العذب . لكنها لم تتوصل الى ذلك ، انها عذراء . وتتعرف بحق لوسيان بامتلاك جسدها وحده . سيقترن بها وستصبح « زوجته » وهي اكثر حقوقه عذوبة . وحين تخلع ثيابها في المساء ، بحركات لا أهمية لها ، ستكون بمثابة قربان . سيأخذها بين ذراعيه بموافقة الجميع ، ويقول لها : « انك لي ! » وان ما تبديه أمامه ، من واجهها ألا تبديه أمام غيره ، والعملية الجنسية ستكون بمثابة الاحصاء الشهواني لثرواته ، أي اكثر

حقوقه عذوبة ، وأعز حق عليه : حق الاحترام حتى في اللحم البشري ، والطاعة حتى في السرير . وفكر في نفسه : « سأزوج في وقت مبكر » ، كما فكر بعمل أبيه . انه يستعجل إتمامه وتساءل في نفسه إذا كان السيد فلورييه سيموت بعد وقت قصير .

ودقّت ساعة الجدار الثانية عشرة : قبلها بساعة كان قد دخل المعهد شاب جذاب متروك ، فخرج منها رجلاً . هو قائد من الفرنسيين ، وخطا لوسيان بضع خطوات في ضوء صباح فرنسي نقي . وفي زاوية شارع المدارس وجادة سان جرمان ، اقترب من مكان حانوت الورق وقراءى أمام المرأة : كان يوده أن يرى في وجهه ، وجه لي موردان غير الشفاف . لكن المرأة لم تعكس له سوى وجه عنيد ، ليس تخيفاً جداً حتى الآن : وصمم في نفسه : « سأرسل شاري » .

مطابع سميا - بيروت

هَذَا الْكِتَابُ

* إِنَّ سَارْتِرَ مُفَكِّمَ جَبَّارٍ ، يُلَاحِظُ ظُلُمَاتِ النَّفْسِ ،
فَاضِحًا مَعْبِيَاتِ الْغَارِهَا بِعَقْلِ ثَاقِبٍ وَحَسٍّ مُرْهَفٍ . يُطَارِدُ
أَسْرَارَ الْفُؤَادِ ، وَكَثِيرًا مَّا يَغْلِبُهَا بِنُورِ الْمُسْتَطِيلِ ، فَتُلْقِي
مَقَالِيدَهَا أَمَامَ قَلَمِهِ . وَهُوَ إِنْسَانٌ عَلَى حِدَةٍ ، كَالَّذِي يَشْرُدُ
عَنْ مَرَاتِبِ الْمَالُوفِ ، مَرَّةً فِي كُلِّ جِيلٍ ، لِيَضَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ - مِرثَ
جَدِيدٍ - عَلَى الدُّرُوبِ الصَّاعِدَةِ نَحْوَ الْبَلَاحِ الْأَشْمَى .

* إِنَّ دَارِسَ هَذَا الْمَفْكَرِ الْجَبَّارِ ، يَرَاهُ مُخَاصًّا فِي بَحْثِهِ عَنِ
الْحَقِيقَةِ ، لِأَنَّهُ يَطْلُبُهَا بِالْحَاحِ لَا يَتَوَاضَعِي . يَطْلُبُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ ،
بَعْدَ وَرَاءِ كُلِّ شَيْءٍ ، دُونَ أَنْ يَخَافَ مِنْ انْتِهَائِهِ إِلَى لَا شَيْءٍ .

* لَا شَكَّ عِنْدِي ، فِي أَنَّ سَارْتِرَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ أَمَامَ
الْإِنْسَانِ تَمَرَّاتٍ وَاسِعَةً فِي الْقُوَّةِ وَالْمَقَامَةِ بِالنَّفْسِ . تَمَرَّاتٍ
تُخَرِّجُ مِنَ الذُّلِّ وَالْمُسْكَنَةِ ، وَجُمُودِ الْعَادَاتِ وَالنَّقَالِيدِ .

* يُرِيدُ سَارْتِرَ أَنْ يَنْقُضَ عَنْ كَوَاهِلِنَا عُيُوبًا مَّا
تَوَارَثْنَاهُ مِنْ عَقَائِدٍ مُوهِنَةٍ لِلْعَزِيمَةِ . يُرِيدُ خَمِيرَةً لَا
تُخَالِفُ فِيهَا لِهَذَا سِرَّاهُ يَقُولُ بِإِنَّ الْوُجُودِيَّةَ فِلَسَفَةً
تَقَاوُلُ وَعَمَلٌ ، لَا يُمْكِنُ مُطْلَقًا اتِّهَامُهَا بِالْيَأْسِ ، إِلَّا عَنْ
نِيَّةٍ سَيِّئَةٍ .